http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132)

هنا يعطينا الحق تبارك وتعالى منهجاً لإصلاح المجتمع وضمان انسجامه ، منهج يبدأ بالوحدة الأولى وهو ربُّ الأسرة ، فعليه أنْ يُصلح نفسه أولاً ، ثم ينظر إلى الوحدة الثانية ، وهي الخلية المباشرة له وأقرب الناس إليه وهم أهله وأسرته ، فهو مركز الدائرة فإذا أصلح نفسه ، فعليه أنْ يُصلح الدوائر الأخرى المباشرة له .

فقوله تعالى : { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة } [طه : 132] لتستقيم الوحدة الأولى في بناء الكون ، فإذا ما صلُحَتْ الوحدة الأولى في بناء الكون ، فأمَر كل واحد أهله بالصلاة ، واستقام الكون كله وصَلُح حال الجميع .

والمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئوليته عند هذا الحدِّ إنما { واصطبر عَلَيْهَا } [طه : 132] لأن في الصلاة مشقة تحتاج إلى صبر ، فالصلاة تحتاج إلى وقت تأخذه من حركة الحياة التي هي سبب الخير والنفْع لك ، فلا بُدَّ إذن من صبر عليها .

وفَرْق بين اصبر واصطبر : اصبر الفعل العادي ، إنما اصطبر فيها مبالغة أي : تكلَّف حتى الصبر وتعمَّده .

ومن ذلك أن تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ في أذهانهم أهمية الصلاة ، فمثلاً تدخل البيت فتجد الطعام قد حضر فتقول لأولادك : انتظروني دقائق حتى أُصلي ، هنا يلتفت الأولاد إلى أن الصلاة أهمّ حتى من الأكل ، وتغرس في نفوسهم مهابةَ التكليف ، واحترامَ فريضة الصلاة ، والحرص على تقديمها على أيِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقوم من الليل يصلي ما شاء الله له أنْ يصلي حتى يؤذن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَوْا رَشَّ في وجوههم الماء؛ لأن الصلاة خَيْر من النوم ، فالنوم في مثل هذا الوقت فيه راحة للبدن ، أمّا الصلاة فهي أفضل وأعظم ، ويكفي أنك تكون فيها في حضرة الله تعالى .

وهَبْ أن رب الأسرة غاب عنها لمدة شهر أو عام ، ثم فجأة قالوا : أبوكم جاء ، فترى الجميع يُهرولون إليه ، وهكذا لله المثل الأعلى ، إذا دعاك ، فلا تتخلّف عن دعوته ، بل هَرْول إليه ،

وأسرع إلى تلبية ندائه ، ولك أنْ تتصوَّر واحداً يناديك وأنتَ لا تردّ عليه ولا تجيبه ، أعتقد أنه شيء غير مقبول ، ولا يرضاه صاحبك .

إذن : عليك أنْ تُعوِّد أولادك احترام هذا النداء ، وبمجرد أن يسمعوا « الله أكبر » يُلبُّون النداء ، ولا يُقدِّمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك في عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) ؛ لأنك انشغلتَ بالنعمة عن المنعم عز وجل .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تعرف خير عناصر المجتمع فانظر إلى أسبقيتهم إلى إجابة نداء (الله أكبر) ، فإنْ أردتَ أن تعرف مَنْ هو أعلى منه منزلةً ، فانظر إلى آخرهم خروجاً من المسجد ، وليس كذلك مَنْ يأتي الصلاة دُبُراً ، وبمجرد السلام يسرع إلى الانصراف .

« ويُروى أن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عابَ على أحد الصحابة إسراعه في الانصراف من المسجد بعد السلام ، فتعمَّد رسول الله أنْ يناديه في إحدى المرات ، قال : أزهداً فيناً »؟

وهل هناك مَنْ يزهد في رؤية رسول الله والجلوس معه؟ فقال الرجل : لا يا رسول الله ، ولكن لي زوجة بالبيت تنتظر ثوبي هذا لتصلي فيه ، فيدعو له رسول الله ، وينصرف الرجل إلى زوجته ، فإذا بها تقول له : تأخرت بقدْرِ كذا تسبيحة ، فقال : لقد استوقفني رسول الله وحدث كذا وكذا ، فقالت له : شكوتَ ربَّك لمحمد «

ثم يقول تعالى : { لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ } [طه : 132] إذن : ما الذي يشغلك عن حَضْرة ربك ، الرزق؟ { لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً } [طه : 132] فالذي لا يستطيع العمل نُوجِّه إليه من الأغنياء مَنْ يطرق بابه ويعطيه ، فالغنيّ شَرْطٌ في إيمانه الفقيرُ ، وليس شرطاً في إيمان الفقير الغني .

وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ضرورة البحث عن الفقير ، والطَّرْق على بابه لإعطائه حقَّه في مال الغنيّ ، لا ينتظره حتى يسأل ، ويُريق ماء وجهه وهو يطلب حَقّاً من حقوقه في مجتمع الإيمان .

وقوله : { نَّحْنُ نَرْزُقُكَ } [طه : 132] أي : لا نسألك رزقاً ثم نتركك ، إنما لا نسألك ثم نحن نرزقك ، فاطمئن إلى هذه المسألة .

{ والعاقبة للتقوى } [طه : 132] لأنك إذا تأزمتْ معك أمور الحياة تلجأ إلى الله ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر قام إلى الصلاة ، وتأزُّم الأمور يأتي حينما نفقد نحن الأسباب المعطاة من الله ، فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحِيَل لم يَبْقَ لك إلا أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، كما يقول في آية أخرى :

{ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ } [الطلاق : 23] .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ }

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133)

مرت بنا (لولا) في قوله تعالى : { وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ } [يونس : 19] وتعني : امتناع التعذيب لوجود الكلمة ، أما (لولا) هنا فتعني : هلا ، للحثّ والطلب { لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ } [طه : 133] كما في { ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ الله } [الكهف : 39] .
فكأن القرآن لا يعجبهم ، مع أنهم أمةُ بلاغة وبيانٍ ، وأمة فصاحة وكلام ، والقرآن يخجلهم لفصاحته وبلاغته ، فأيُّ آية تريدونها بعد هذا القرآن؟
{ وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ } [طه : 133] كدليل صِدْق على بلاغه عن الله كالمعجزات الحسّية التي حدثتْ لمن قبله من الرسل ، كما قال تعالى :
{ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 9093] .
إذن : فالآيات من الله لا دَخْلَ لي فيها ولا أختارها ، وها هو القرآن بين أيديكم يخبركم بما كان في الأمم السابقة { فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] .
وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا * والآخرة خَيْرٌ وأبقى * إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى } [الأعلى : 1419] .
وقال تعالى { إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ } [النساء : 163] .
لذلك يقول تعالى بعدها : { أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى } [طه : 133] .
فالقرآن جاء جامعاً ومُهيْمناً على الكتب السابقة ، وفيه ذِكْر لكل ما حدث فيها من معجزات حسية ، وهل شاهد هؤلاء معجزة عيسى عليه السلام في إبراء الأكمه والأبرص؟ هل شاهدوا عصا موسى أو ناقة صالح؟
لقد عرفوا هذه المعجزات عندما حكاها لهم القرآن ، فصارت خبراً من الأخبار ، وليست مَرْأىً ، والمعجزة الحسّية تقع مرة واحدة ، مَنْ رآها آمن بها ، ومَنْ يرهَا فهي بالنسبة له خبر ، ولولا أن القرآن حكاها ما صدَّقها أحد منهم .
لكن هؤلاء يريدون معجزة حِسّية تصاحب رسالة محمد العامة للزمان وللمكان ، ولو كانت معجزَة محمد حِسّية لكانت لمَنْ شاهدها فقط ، والحق سبحانه يريدها معجزة دائمة لأمتداد الزمان والمكان ، فَمنْ آمن بمحمد نقول له : هذه هي معجزته الدائمة الباقية إلى أنْ تقومَ الساعة

.

لذلك ، كان القرآن معجزة لكل القرون ، ولو أفنى القرآن معجزته مرة واحدة للمعاصرين له فحسب لاستقبلتْه القرون الآتية بلا إعجاز ، لكن شاءتْ إرادة الله أن يكون إعجاز القرآن سراً مطموراً فيه ، وكل قرن يكتشف من أسراره على قدر التفافهم إليه وتأملهم فيه ، وهكذا تظل الرسالة محروسة بالمعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ }

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134)

يقول تعالى : أنا قطعت عليهم الحجة؛ لأنني لو أهلكتُهم على فَتْرة من الرسل لقالوا : لماذا لم تُبقِنَا إلى أن يأتينا رسول ، فلو جاءنا رسول لآمنا به قبل أن نقع في الَذُّلِ والخِزْي ، فمعنى : ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبل أن يأتي القرآن لقالوا : ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً لآمنّا به واهتدينا .

وهذه مجرد كلمة هو قائلها ، وكما قال عنهم الحق سبحانه : { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام : 28] إنها مجرد كلمة تنقذهم من الإشكال .

وقولهم : { مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى } [طه : 134] الذل : ما يعتري الحييّ مما ينشأ عنه انكساره بعد أنْ كان متعالياً ، والذلّ يكون أولاً بالهزيمة ، وأذلّ من الهزيمة الأَسْر ، لأنه قد يُهزم ثم يفِرُّ ، وأذلُّ منهما القتل . إذن : الذل يكون في الدنيا أمام المشاهدين له والمعاصرين لانكساره بعد تعاليه .

أما الخزي : نخزى يعني : يُصيبنا الخزي ، وهو تخاذل النفس بعد ارتفاعها . ومن ذلك يقولون : أنت خزيت . يعني : كنت تنتظر شيئاً فوجدت خلافه .

ومنه قوله تعالى : { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة } [آل عمران : 194] فإنْ عُجِّل لهم الذلُّ في الدنيا ، فإن الخزي مُؤخَّر للآخرة حتى تكون فضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، كما يقولون (فضيحة بجلاجل) حيث يشهد خِزْيَهم أهلُ الموقف جميعاً .

وكلمة « الخزي » هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول عليه رحمة الله وكان رجلاً مكفوفَ البصر ، وكنا (نستلخمه) فإذا وجدنا فرصة تفلّتنا منه وهربنا من تصحيح اللوح الذي نحفظه ، فالذي يحفظ بمفرده هكذا من المصحف يكون عرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبد الباري ، وقد حضر مدير المدرسة فجأة ، وأراد أن يُسمِّع لنا ، وكان الشيخ عبد الباري لم يصحح لوحه الذي سيقرأ

منه فقرأ : (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) فقرأها بالراء بدلاً من الزاي ، فضحك الشيخ طويلاً رحمه الله وقال : يا بني المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا .

فكنا نأخذها على الشيخ عبد الباري ، فَمنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار . .) ويسكتْ!!

فشاء الله تعالى أن يتعرض كُلُّ منا لموقف مشابه يُؤْخَذ عليه ، وقد أُخِذ عليَّ مثلُ هذا حين قرأت دون أنْ أُصحِّح اللوح أول سورة الشورى : (حم عسق) وقد سبق لي أن عرفت (حم) لكن لم يمر بي (عسق) فقرأت : (حم عَسَقَ) بالوصل ، فصار الشيخ عبد الباري كلما قلت له : (إنك من تدخل النار . . . .) يقول : (حم) .

فقلنا سبحان ا لله :

مَنْ يَعِبْ يَوْماً بشَيْء ... لَمْ يمُتْ حتَّى يَرَاهُ

إذن : فقول هؤلاء : { رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى } [طه : 134] تمحُّك منهم : لو أرسلت لنا رسولاً لاتبعناه من قبل أنْ نذلّ في الدنيا هزيمةً ، أو أَسْراً ، أو قَتْلاً ، ونخزى في الآخرة بفضيحة علنية على رؤوس الأشهاد .

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)

التربُّص : التحفُّز لوقوع شيء بالغير ، تقول : فلان يتربص بي يعني : يلاحظني ويتابعني ، ينتظر مني هَفْوة أو خطأ ، فقوله : { قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ } [طه : 135] فكُلٌّ مِنَّا يتربص بالآخر ، لأننا أعداء ، كل منا ينتظر من الآخر هفوة ويترقب ماذا يحدث له .

وقد أوضح سبحانه وتعالى توجيهات التربُّص منه ومنهم في آية أخرى : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين } [التوبة : 52] .

ماذا تنتظرون إلا إحدى الحُسْنيين : إما أن نموت في قتالكم شهداء ، أو ننتصر عليكم ونُذِلكم ، فأيُّ تربُّص يحدث شرف لنا ، إما النصر أو الشهادة ، فكلاهما حُسنْى ، ونحن نتربّص بكم أنْ يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فكلاهما سوءة .

وما دام الأمر كذلك فتربَّصُوا بنا كما تحبون ، ونحن نتربص بكم كما نريد؛ لأن تربصنا بكم يفرحنا ، وتربصكم بنا يُؤلمكم ويُحزنكم .

ومعنى { قُلْ } [طه : 135] هنا أن القول {كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ } [طه : 135] ليست من عند محمد ، فليس في يده زمام الكون ولا يعلم الغيب ، فهو قَوْل الله الذي قال له (قل) يا محمد { كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ } [طه : 135] .

إذن : قيلتْ مِمَّن يملك أزمّة الأمور وأعنّتها ، و لايخرج شيء عن مراده تعالى ، وربما لو قُلْت لكم من عندي تقولون : كلام بشر لا يملك من الأمور شيئاً . إذن : خذوها لا بمقياس كلام البشر ،

إنما بمقياس مَنْ يملك زمام أقْضية البشر كلها .
ثم يقول تعالى : { فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي وَمَنِ اهتدى } [طه : 135] متى سيحدث هذا؟ ساعةَ تقوم الساعة حيث الانصراف ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوي : نحن أمْ أنتم؟ لكنه سيكون عِلْماً لا ينفع ولا يُجدي ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، جاء وقت الحساب لا وقت العمل وتلافي الأخطاء .
إنه عِلْم لا يترتب عليه عمل ينجيكم ، فقد انتهى وقت العمل ، وهكذا يكون عِلْماً يُزيد حسرتهم ، ويُؤذيهم ولا ينفعهم .
والصراط : الطريق المستقيم . والسَّويّ : المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه ولا أَمْت .
وقال بعدها { وَمَنِ اهتدى } [طه : 135] لأنه قد يوجد الصراط السويّ ، ولا يوجد مَنْ يسلكه ، فالمراد : الصراط السَّوي ومَن اهتدى إليه وسلَكه .
وقد يظن ظانٌّ أن مسألة التربُّص هذه قد تطول ، فيقطع الحق سبحانه هذا الظن بقوله في سورة الأنبياء الآتية بَعدْ : { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } [الأنبياء : 1] .
وهكذا تنسجم السُّورتان ، ويتصل المعنى بين الآيات .

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1)

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة في مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعني مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفية زماناً أو مكاناً .
والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضي { اقترب } [الأنبياء : 1] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مقبل يقولون : يقترب لا اقترب؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذي يملك الأحداث ويقدر عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .
ومثال ذلك في قوله تعالى : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . } [النحل : 1] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد : فكيف – إذن – جمع بين الماضي { أتى . . . } [النحل : 1] والمستقبل { فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . } [النحل : 1] .
قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضيٍّ على أمر مستقبل؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما في قوله تعالى : { وَلاَ تَقْولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . } [الكهف : 23-24] .
لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة؛ لأن قولك « سأفعل ذلك غداً » قضيةٌ يدعوك للفعل

والقدرة التي تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغي أن تُبرِّيء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذي يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث العفل قُلْ بالماضي : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدَّ له قُلْ : سيحضر فلان أي قريباً ، أو سوف يحضر أي : بعد ذلك .

هذا الذي يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلّ شيء مرهون بأمره التكويني ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدِّق؛ لأنه لا شيء يُخرج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذي يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فَقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه : { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . } [الأنبياء : 1] بصيغة الماضي ولم يقل : يقترب أو سيقترب؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضي (قترب) أيضاً في قوله تعالى : { اقتربت الساعة وانشق القمر } [القمر : 1] .

وفي قوله تعالى { واسجد واقترب } [العلق : 19] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعني دنا ، أما اقترب أي : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عِدّة ، فالحساب أنْ تحسب الشيء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين .

أو تربط المسبِّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتي بغير حساب ، كما قال تعالى : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطاني زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب في { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . } [الأنبياء : 1] فيقتضي مُحَاسباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحَاسَباً عليه وهي الأعمال والأحداث التي أحدثوها في دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسِنِ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه ، إنما تركنا نمرح ونرتع في نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شيء ، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير ، وألزمنا المنهج الذي يضمن سعادتنا « بافعل » و « لا تفعل » وهذا يقتضي أن نحاسب ، فعلنا ، أم لم نفعل .

إذن : المسألة حساب ، ليست جُزَافاً ، جماعة في الجنة وجماعة في النار ، وقوله سبحانه في الحديث القدسي : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي » بِناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب ، ففي علم الله ما فعلوا وما تركوا .
ولا تنْسَ أن المحاسب في هذا الموقف هو الله ، فإنْ كان الحساب في الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه؛ لذلك يضاعف الحسنات ، وإنْ كان الحساب في الشر كان على قَدْره دون زيادة ،كما قال تعالى : { جَزَآءً وِفَاقاً } [النبأ : 26] .
وما دام المحاسب هو الله سبحانه وتعالى ، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق ، فمن رحمته بِنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك ، ولم يأخذنا على غَفْلة ، ولم يفاجئنا بالحساب على غِرّة ، إنما أبان لنا التكاليف ، وأوضح الحلال والحرام ، وأخبرنا بيوم الحساب لسنتعدَّ له ، فلا نسير في الحياة على هوانا .
فقال سبحانه : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8] .
فمن رحمته تعالى بعابده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم في سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعِظَنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .
إذن : ما أخذنا ربنا على غِرَّة ، ولم تُفاجئْنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . } [الأنبياء : 1] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقَدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخَلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات في بطن أمه . إذن : لا تُؤجِّل لأنك لا تدري ، أيمهلك الأجل حتى تتوب؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك؟
والحق سبحانه يقول : { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . } [الأنبياء : 1] مع أن الساعة مازالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة مَا لا يعلمه إلا الله .

فكيف ذلك؟
قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه؛ لأن المدة التي يقضيها في القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .
فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شيء ظنيّ لا نضمنه ، والإنسان عُرضة للموت في أيّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ في قوله تعالى : { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . } [الأنبياء : 1] فقال (للنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس) أي : لمصلحتهم؟ لا يبدو ذلك؛ لأنه قال بعدها : { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء : 1] .

إذن : الحساب ليس في مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون ف مثل هذا السياق { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . } [الأنبياء : 1] ما دام الأمر على الكفار؟ كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أي : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء : 1] الغفلة معناها : زحزحة الشيء عن بال الواجب أَلاَّ يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التي جاء بها الدين ، وهذه هي المعاصي ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : { مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ . . . } [الأنبياء : 2] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلةَ عن حكم الرب الأعلى ، وفَرْق ين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّثَ النبي صلى الله عليه وسلم صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت في جِذْرْ قلوب الرجال) والأمانة هي الإيمان الحق بالله ، أي : حَلَّ الإيمان ، واستقر في القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أي : يغفل (فيظل أثرها مثل أثر الوكت) الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجلد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أي : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شيء) أي : انتفخ (فيصبح الناس) أي : بعد رفع الأمانة (يتابعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

ثم يقول الراوي : (وقد مر عليَّ زمان ما كنت أبالي أيكم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه عليَّ دينه) يعني : إنْ غشَّني في شيء أو حدث خطأ ما في البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه عليَّ ساعيه) أي : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحِسْبة ، فإنْ رأَوْا غِشّاً منعوه ،

وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً) فإنْ كان هذا في أيامهم فما بال أيامنا؟

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » أي : رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك .

وفي رواية أخرى : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً » أي : كنسج الحصير ، عُوداً بعد عود ، حتى تتم الحصيرة ، ثم يكون الرَّان على القلب .

فغفْلة هؤلاء غَفْلة عن القمة ، وعن الألوهية ، لا عن التكاليف؛ لأنهم ليسوا مؤمنين بالمكلّف سبحانه .

وقوله تعالى : { مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء : 1] تدل على الافتعال أي : أنهم مفتعلون هذا الإعراض؟

ثم يقول الحق سبحانه : { مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ . . . . } .

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2)

أي : ذكر من القرآن { مُّحْدَثٍ } [الأنبياء : 2] يعني : يسمعونه جديداً لأول مرة { إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأنبياء : 2] لا يعطونه اهتماماً ، ولا يُلْقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ، ويُوصِي بعضهم بعضاً به ويُحرّضون عليه ، كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى حكاية عنهم : { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت : 26] .

إنهم يخافون إنْ سمعوا القرآن أنْ يتأثروا به فيؤمنوا؛ لذلك لا تسمعوه ، بل شَوِّشوا عليه حتى لا يسمعه أحد في هدوء واطمئنان فيؤمن به . وهذا يعني أن هذا العمل في مصلحتهم؛ لأنهم لا يستطيعون رَدَّ حُجَج القرآن ولا الثبات أمام إعجازيته ولا بلاغته ولا تأثيره على النفوس ، فهُمْ لا يملكون إلاَّ أنْ يصرفوا الناس عن سماعه ، والتشويش عليه ، حتى لا يتمكّن من الأسماع ، وينفذ إلى القلوب ، فيخالطها الإيمان .

واللعب : أن تشغل نفسك بعمل لا قَصْدَ فيه لغاية ، كما يأخذ الطفل الصغير كراسة أخيه ، ويعبث فيها بالقلم دون نظام ودون هدف .

وهناك أيضاً اللهو : وهو عمل مقصود لغاية ، لكن هذه الغاية تضعها أنت لنفسك ، أو يضعها غيرك ممَّنْ يريد أنْ يُفسِدك بها ، إذن : هو عمل مقصود وله غاية ، ليس مجرد (شخبطة) كمَنْ ينشغل مثلاً برسم بعض الصور للتسلية ، أو ينشغل بحلِّ الكلمات المتقاطعة ، فهي أعمال لا فائدة منها .

أما العمل النافع الذي ينبغي أن ينشغل الإنسان به فهو الذي يضعه لك مَنْ هو أعلى منك ،

وأنْ يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلا في الإله ، لذلك كل ما يُلهِيك عَمَّا يضعه لك إلهك فهو لَهْو؛ لأنه شَغَلك عما هو أَهَمّ .

لذلك يقول تعالى : { إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . . } [محمد : 36] .

فاللعب في مرحلة الطفولة ، بل نأتي نحن باللُّعب ونقول للطفل : العب ، إنما اللهو أن تنشغلَ بعمل مقصود وله غاية لكنها تلهيك عن غاية أسمى هي التي وضعها لك الحكيم القادر الأعلى منك المحبّ لك .

إذن : منتهي اللهو واللعب أن يلعبوا عند سماع القرآن ، فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لَعِبٌ لا غاية له ولا فائدةَ منه؛ لأن غايته ضارّة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً في فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أن تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عز وجل الخالق الرازق في هذه الفترة المبكرة من حياة الإنسان ، وهذه مهمة الأب ، فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به . وهكذا في كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله وينبه الولد الصغير : قل : بسم الله قل : الحمد لله .

وهكذا تُربِّي في الولد مواجيده على اليقين بالله القوي ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونِعَمه .

ويرى أباه الذي يتعهده ، ويأتي له بكل شيء لا يتصيّد المجد لنَفْسه ، إنما ينسب كل شيء إلى الله .

فأبوه – وهو المثل الأعلى له – يزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربى وجدانُ الولد على الإيمان . فإذا لم يُرَبَّ الولد هذه التربية تسلل إلى نفسه اللَّهْو واللَّعِب .

وسبق أن قلنا : إن كُلَّ فعل من الأفعال لا بُدَّ أنْ ينشأ عن مَوْجدة من المواجيد ، ولا ينشأ الفعل دون مَوجدة إلا فعل المجنون ، والقلوب هي التي تُوجّه الجوارح ، ولو لم تكُنْ القلوب لاهية ما لعبت الجوارح .

لذلك سيدنا عمر – رضي الله عنه – حينما دخل على رجل يعبث بذقنه هو يصلي – كما يفعل الكثيرون – قال : لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحه . فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب؟ لذلك يقول تعالى بعدها : { لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النجوى . . . } .

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)

ويا ليت كلاً منهم يفعل هذا الفعل في نفسه ، إنما يتآمرون جميعاً على الحق ليفسدوه باللعب واللهو { وَأَسَرُّواْ النجوى . . . } [الأنبياء : 3] أي : يتناجَوْن في الإثم ، ويُسِرُّونه يعني :

يجعلونه سِراً . والنَّجْوى أو التناجي : خَفْضِ الصوت ، كما جاء في قوله تعالى : { مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ . . . } [المجادلة : 7] .
فلا تظنوا أنكم مستورون عن الله ، أو تُخْفون عنه شيئاً . وتلاحظ في ارتقاءات العدد في هذه الآية أنها لم تذكر اثنين ، فبدأت من العدد ثلاثة؛ لأنه عادةً لا تكون النجوى بين الاثنين ، إنما تكون بين الثلاثة ، حيث يتناجى اثنان حتى لا يسمع الثالث .
كما أنها لم تذكر الأعداد بالترتيب ، فلم تَقُلْ مثلاً : ولا أربعة إلا هو خامسهم؛ ذلك لأن الآية لا تقصد الترتيب العددي ، إنما تعطيك مجرد أمثلة ونماذج من الأعداد .
وكذلك في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول . . . } [المجادلة : 8] .
وما داموا يُخْفون كلاماً ويُسِرُّونه ، فلا بُدَّ أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقّاً لَقالُوه علانية ، فالنجْوى دليلُ اتهامهم في العقل ، وفي القلب ، وفي كل شيء .
أما قوله تعالى في شأن النبي صلى الله عليه وسلم : { ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُم صَدَقَةً . . . } [المجادلة : 12] .
وهل كان الصحابة يُحدِّثون الرسول سرّاً؟ لا بل هنا إشارة أخرى أوضحها قوله تعالى : { لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً . . . } [النور : 63] .
فالمراد ألاّ نرفع أصواتنا في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم كما يحدث مِنّا حين يُكلِّم بعضنا بعضاً ، بل نُكلِّمه كلام المهيب ، ونلتزم معه الأدب والخشوع .
وقوله تعالى : { وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ . . } [الأنبياء : 3] هل (الذين) هنا هي الفاعل لأسرُّوا؟ القاعدة النحوية : إذا تقدم أكلوا على الفاعل لقال : وأَسَرَّ الذين ظلموا ، إنما جاء الفاعل (واو الجماعة) ثم الاسم الموصول (الذين) بعدها فليست هي الفاعل ، وليست هذه من لغات العرب الصحيحة .
فكأن سائلاً سأل : ومَن الذي أَسرَّ؟ فأجاب : (الّذِينَ ظَلَمُوا) وكلمة (ظَلَمُوا) عامة في الظلم ، فقد ظلموا أنفسهم أولاً؛ لأن ظلمهم عائد عليهم بالعذاب ، وظُلْم نفسه ناشيء من أنه ظلم الحق الأعلى { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .
ثم ظلم الناس في أمور أخرى وفي حقوق لهم ، لكن جاءتْ (ظلموا) عامة؛ لأن الظلم الواحد سيشمل كل أنواع الظلم ، وما دام قد وصل به الأمر إلى أنْ ظَلَم الله فلا غرابةَ أنْ يظلم ما دونه تعالى .
فما النجوى التي أسرَّهَا القوم؟ ومَنْ أخبر رسول الله بها؟
النجوى قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ } [المجادلة : 8] .
فكيف عرف محمد هذه المقولة ، وقد قالوها في أنفسهم وأسرُّوها؟ ألم يكُن على هؤلاء أن يتنبَّهوا

: كيف عرف محمد مقولتهم؟ وأن الذي أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى ، الذي لا تَخْفى عليه خافية ، كان عليهم أن يلتفتوا إلى رب محمد ، الله الإله الحق الذي يعلم خَبْءَ كل شيء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه ، وبدل أنْ يشغلوا عقولهم بمسائل الشرك ينتهوا بها إلى الإيمان .

ومما جاء في تناجيهم { هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . } [الأنبياء : 3] إذن : أنكروا أن يكون رسولاً لأنه بشر ، والرسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً { أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } [الأنبياء : 3] فسمُّوا القرآن سحْراً ، لأنهم يروْنَ السحر يُفرِّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه { وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } [الأنبياء : 3] أن القرآن يفعل مثل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء . . . } .

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)

كأن سائلاً قال : من أين لك يا محمد بكل هذا وقد أسرّه القوم؟ { قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض . . . } [الأنبياء : 4] فلا تَخْفى عليه خافية { وَهُوَ السميع العليم } [الأنبياء : 4] السميع لما يُقال ويُسر العليم بما يُفعل ، فالأحداث أقوال وأفعال .

ومما قالوه أيضاً : { بَلْ قالوا أَضْغَاثُ . . . } .

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

(بَلْ) تعني أنهم تمادَوْا ، ولم يكتفو بما قالوا ، بل قالوا أيضاً { أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ } [الأنبياء : 5] وأضغاث : جمع ضِغْث ، وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال ، كما جاء في قصة أيوب عليه السلام : { وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ . . . } [ص : 44] أي حزمة من أعواد الحشيش .

ووردْت أيضاً في رُؤْيا عزيز مصر : { قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بِعَالِمِينَ } [يوسف : 44] .

وقوله { بَلِ افتراه . . . } [الأنبياء : 5] أي تمادَوْا فقالوا : تعمد كذبه واختلافه { بَلْ هُوَ شَاعِرٌ . . . } [الأنبياء : 5] إذن : أقوالهم واتهاماتهم لرسول الله متضاربة في ماهية ما هو؟ وهذا دليل تخبطهم ، فمرة ينكورن أنه من البشر ، ومرة يقولون : ساحر ، ومرة يقولون : مفتر ، والآن يقولون : شاعر!!

وقد سبق أنْ فنَّدنا كل هذه الاتهامات وقلنا : إنها تحمل في طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله .

ثم يقولون : { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الأولون } [الأنبياء : 5] كأن آية القرآن ما أقنعتْهم ،

فلم يكتفُوا بها ، ويطلبون آية أخرى مثل التي جاء بها السابقون ، والقرآن يردّ عليهم في هذه المسألة : لو أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية التي اقترحوها لأنزلناها عليهم ، إنما السوابق تؤكد أنهم لنْ تؤمنوا مهما جاءتهم من الآيات ، وهذا من أسباب العذاب .

وقد أوضح الحق سبحانه أنه لن يُعذِّبهم ما دام فيهم رسول الله؛ لذلك لم يُجِبْهم إلى ما طلبوا من الآيات؛ لأن الله تعالى لا يُخلف وعْدَه ، فإنْ جاءتهم الآية فلم يؤمنوا بها لا بُدَّ أنْ يُنزِل بهم العذاب؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُمْ . . . } .

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)

إذن : هذه التجربة مَرَّت مع غيرهم من الأمم السابقة ، وهم كأمثالهم من السابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا ، كما لم يؤمن سابقوهم { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام : 28] ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً . . . } .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7)

الحق – تبارك وتعالى – يردُّ على اعتراضهم على بشرية الرسول وطلبهم أن يكون الرسول ملكاً ، كما قالوا في موضع آخر : { أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا . . . } [التغابن : 6] .

يعني : هم مثلنا ، وليسوا أفضل منَّا ، فكيف يهدوننا؟! وهل الرسول يهديكم ببشريته؟ أم بشيء جاءه من أعلى؟ هل منهجه من عنده؟

الرسول ليس مُصلِحاً اجتماعياً ، إنما هو مُبلّغ عن الله ربي وربكم . وقد سبقت السوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرسول بشراً { وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ . . . } [الأنبياء : 7] ولو أرسلنا إليهم مِلَكاً لجاءكم الرسول مَلَكاً . { فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [الأنبياء : 7] وهم اليهود والنصارى ، ماذا أرسلنا إليهم أرجالاً أم ملائكة؟

ذلك لأن المفروض في النبي أن يكون قدوة لقومه وأُسْوة ، مُبلّغ منهج ، وأُسْوَة سلوك ، منهج يحققه عن الله ، ثم يُطبِّقه على نفسه ، فهو لا يحمل الناس على أمر هو عنه بنَجْوة ، إنما هو أُسْوتهم وقُدْوتهم ، وشرط أساسي في القدوة أنْ يتحد فيها الجنس : المتأسِّي مع المتأسِّي به .

فلو رأيت مثلاً في الغابة أسداً يصول ويجول ويفترس ، هل تفكر في يوم ما أن تكون أسداً؟ هل تأخذ الأسد لك أُسْوة؟! لا ، لأنه يُشترط في أُسْوتك أن يكون من جنسك ، فإذا رأيتَ فارساً على جواده يصول ويجول ويضرب في الأعداد يميناً وشمالاً ، لا شكَّ أنك تود أن تكون مثله .

كذلك إذا جاء النبي مَلَكاً ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون ، إنما نحن بشر ، ولو جاءنا الرسول ملكاً لجاءنا في صورة بشرية .

يقول تعالى : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95] .

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [الأنعام : 9] . وهكذا تظل الشبهة موجودة .

إذن : لا يمكن أن يكون الرسول للبشر إلا من البشر . ونعم ، محمد بشر لكن بشر يُوحَى إليه ، كما جاء في الحديث الشريف : « يرد عليَّ - يعني من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقوله : { فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [الأنبياء : 7] أي : إنْ كنتم في شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذكر من السابقين : اليهود والنصارى أهل الكتاب .

وقال : { إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [الأنبياء : 7] لأنها مسألة عِلْمُها مشكوك فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً . . . } .

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8)

{ جَعَلْنَاهُمْ . . } [الأنبياء : 8] أي : الرسل { جَسَداً . . . } [الأنبياء : 8] يعني : شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، إنما هم بشر يأكلون ويشربون كأيِّ بشر ، ويمشون في الأسواق ، ويعيشون حياة البشر العادية { وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ } [الأنبياء : 8] فليس الخلود من صفة البشر وقد تابعوا الرسل ، وعَلِموا عنهم هذه الحقيقة ، وقال تعالى : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ } [الزمر : 30] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوعد . . . } .

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

وهذه سُنة من سُنَن الله في الرسل أنْ يَصْدقهم وعده ، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه ، وكانت النهاية أن انتصروا عليه؟

ألم يقل الحق تبارك وتعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171-173] .

وكان صِدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين والمسرفون هم الذين تجاوزوا الحدَّ المعروف . فنهاية الرسل جميعاً النُّصْرة من الله ، والوفاء لهم بما وعدهم . { لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً . . . } .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10)

الحق سبحانه يخاطب المكذِّبين للنبي : ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم ، إنما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتُم فيه ، ولما نزل فهمتموه وعرفتم مراميه ، بدليل أن في القرآن ألفاظاً تُستقبل بالغرابة ولم تعترضوا أنتم عليها ، ولم تُكذِّبوا محمداً فيها مع أنكم تتلمسون له خطأ ، وتبحثون له عن زلة .

فمثلاً لما نزلتْ (الم) ما سمعنا أحداً منهم قال : أيها المؤمنون بمحمد ، إن محمداً يدَّعي أنه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه : ما معنى (ألم) ؟ مما يدل على أنهم فهموها وقبلوها ، ولم يجدوا فيها مَغْمزاً في رسول الله؛ لأن العرب في لغتهم وأسلوبهم في الكلام يستخدمون هذه الحروف للتنبيه .

فالكلام سفارة بين المتكلَّم والسامع ، المتكلِّم لا يُفَاجأ بكلامه إنما يعدّه ويُحضره قبل أن ينطق به ، أمّا السامع فقد يُفَاجأ بكلام المتكلم ، وقد يكون غافلاً يحتاج إلى مَنْ يُوقِظه ويُنبِّهه حتى لا يفوته شيء .

وهكذا وُضِعَتْ في اللغة أدوات للتنبيه ، إنْ أردتَ الكلام في شيء مهم تخشى أنْ يفوتَ منه شيء تُنبِّه السامع ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم :

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبِحينَا ... وقول آخر :

أَلاَ أنعِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالي ... وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ في العَصْرِ الخالي

إذن : (ألا) هنا أداة للتنبيه فقط يعني : اسمعوا وانتبهوا لما أقول .

وكذلك أسلوب القرآن : { ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [يونس : 62] { أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ . . . } [هود : 5] .

إذن : عندما نزل القرآن عليهم فهموا هذه الحروف ، وربما فهموا منها أكثر من هذا ، ولم يردُّوا على رسول الله شيئاً من هذه المسائل مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه .

وقوله تعالى : { فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . } [الأنبياء : 10] الذكر : سبق أنْ أوضحنا أن الذكر يُطلق بمعنى : القرآن ، أو بمعنى : الكتب المنزّلة ، أو بمعنى : الصِّيت والشرف . أو بمعنى : التذكير أو التسبيح والتحميد .

والذكر هنا قد يُرَاد به تذكيرهم بالله خالقاً ، وبمنهجه الحق دستوراً ، ولو أنكم تنبهتم لما جاء به القرآن لعرفتُم أن الفطرة تهدي إليه وتتفق معه ، ولعرفتم أن القرآن لم يتعصّب ضدكم ، بدليل أنه أقرَّ بعض الأمور التي اهتديتم إليها بالفطرة السليمة ووافقكم عليها .

ومن ذلك مثلاً الدِّيَة في القتل هي نفس الدية التي حدَّدها القرآن ، مسائل الخطبة والزواج والمهر كانت أموراً موجودة أقرها القرآن ، كثيرون منهم كانوا يُحرِّمون الخمر ولا يشربونها ، هكذا بالفطرة ، وكثيرون كانوا لا يسجدون للأصنام ، إذن : الفطرة السليمة قد تهتدي إلى الحق ، ولا

تتعارض ومنهجَ الله .

أو : يكون معنى { ذِكْرُكُمْ . . . } [الأنبياء : 10] شرفكم وصيْتكم ومكانتكم ونباهة شأنكم بين الأمم؛ لأن القرآن الذي نزل للدنيا كلها نزل بلغتكم ، فكأن الله تعالى يثني عقول الناس جميعاً ، ويثني قلوبهم للغتكم ، ويحثّهم على تعلّمها ومعرفتها والحديث بها ونشرها في الناس ، فمَنْ لم يستطع ذلك ترجمها ، وأيُّ شرف بعد هذا؟!

وقوله تعالى : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الأنبياء : 10] أفلا تُعملِون عقولكم وتتأملون أن خيركم في هذا القرآن ، فإنْ كنتم تريدون خُلقاً وديناً ففي القرآن ، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمعة وصيتاً ففي القرآن ، وأيُّ شرف بعد أن يقول الناس : النبي عربي ، والقرآن عربي؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ } .

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11)

قصمنا : القَصْم هو الكَسْر الذي لا جَبْرَ فيه ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يضع أمام أعينهم القُرَى المكذّبة الظالمة ، ليأخذوا منها عِبْرة وعِظَة ، فليس بِدَعاً أنْ نقصم ظهور المكذِّبين ، بل لها سوابق كثيرة في التاريخ .

لذلك قال : { وَكَمْ قَصَمْنَا . . . } [الأنبياء : 11] وكم هنا خبرية تفيد الكثرة التي لا تُعَدُّ ، فأحذروا إنْ لويتُم أعناقكم أنْ يُنزِل بكم ما نزل بهم .

وقوله : { وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ } [الأنبياء : 11] أي : خَلَف بعدهم خَلْف آخرون .

{ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ . . . } .

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12)

أي : حين أحسُّوا العذاب { إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ } [الأنبياء : 12] حتى لا يلحقهم العذاب . والركْضُ : الجرْى السريع بهَرْولة ، والأصل فيه : رَكْضُ الدابة . يعني : ضَرْبها برجلْه كي تُسرع . ومنها : { اركض بِرِجْلِكَ . . . } [ص : 42] يعني : اضرب الأرض برِجلْك لِتُخرج الماء { هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [ص : 42] .

وفي هذه الآية مَلْمحٌ من ملامح الإعجاز القرآني ، فقد أصاب أيوبَ عليه السلام مرضٌ في جلده ، وأراد له ربُّه – عز وجل – الشفاء . فقال له : اضرب الأرض برِجْلك تُخرج لك ماءً بارداً ، منه مُغْتَسل ومنه شراب ، فالماء هنا دواء يعالج أمرين : يعالج الظاهر والباطن .

وآفةُ المعالجين أنهم إذا رأوا مثلاً البثور والدمامل في الجلد يعالجونها بالمراهم التي يندمِلُ معها الجُرْح ، لكنها لا تعالج أسباب الظاهرة من الداخل ، أما العلاج الإلهي فمغتسلٌ لعلاج الظاهرة ،

وشرابٌ لعلاج أسباب الظاهرة في الجوف .
ثم يقول الحق سبحانه : { لاَ تَرْكُضُواْ وارجعوا . . . } .

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13)

الحق – سبحانه وتعالى – في قصة هؤلاء المكذِّبين قدَّم الغاية من العذاب ، فقال : { وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ . . . } [الأنبياء : 11] ثم فصَّل القَصمْ بأنهم لما أحسُّوا العذاب تركوا قريتهم ، وأسرعوا هاربين أنْ يلحقهم العذاب ، وهنا يقول لهم : لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم ، وإلى ما أُترِفْتم فيه .
والتُّرفُ : هو التنعُّم نقول : ترف الرجل يترف مثل : فرِح يفرَح أي : تنعَّم ، فإذا زِيدتْ عليها همزة فقيل : أترف الرجل فمعناها : أخذ نعيماً وأبطره .
ومنها أيضاً : أترفَهُ الله يعني : غرَّه بالنعيم؛ ليكون عقاباً له .
فقوله هنا { إلى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ . . } [الأنبياء : 13] من أترافه الله يعني : أعطاهم نعيماً لا يؤدون حقَّه ، فيجرّ عليهم العذاب . لكن ما دام أن الله تعالى يريد بهم العذاب ، فلماذا يُنعِّمهم؟
قالوا : فَرْق بين عذاب واحد وعذابين : العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه ، أما أن تُنعِّمه وترفعه ثم تعذبه ، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب .
وقد مثَّلْنا لذلك بأن إنْ أردت أَنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق حصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون أشدَّ عليه وآلَمَ له .
ومن ذلك قَوْلُ القرآن { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ . . . } [الأنعام : 44] أعطيناهم الصحة والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور { حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } [الأنعام : 44] وهكذا يكون أخذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .
ومَلْمَح آخر في قوله تعالى : { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ } [الأنعام : 44] لا لهم كما في : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } [الفتح : 1] فليس هذا كله في صالحهم ، بل هو وَبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سيَبَطْرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .
وقوله تعالى : { لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } [الأنبياء : 13] أي : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم؟ أين ذهب؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزي سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم . { قَالُواْ ياويلنآ . . . } .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14)

لما أحسَّ المكذِّبون بأْسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شيء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : { ياويلنآ . . . } [الأنبياء : 14] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسي) أو (يا شقائي) وهل أحد ينادي على العذاب أو البُؤْس أو الشقاء؟ الإنسان لا ينادي إلا على ما يُفرِح .

فالمعنى : يا ويلتي تعالى ، فهذا أوانك ، فلن يشفيه من الماضي إلا أنْ يتحسَّر عليه ، ويندم على ما كان منه . فالآن يتحسَّرون ، الآن يعلمون أنهم يستحقون العذاب ويلومون أنفسهم .

{ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 14] ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا في أننا كفرنا به ، كما قال في آية أُخْرى : { أَن تَقُولَ نَفْسٌ ياحسرتا على مَا فَرَّطَتُ فِي جَنبِ الله . . . } [الزمر : 56] .

فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15)

قوله تعالى : { فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ . . . } [الأنبياء : 15] أي : قولهم : { قَالُواْ ياويلنآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 14] فلم يقولوها مرة واحدة سرقة عواطف مثلاً ، إنما كانت ديدنهم ، وأخذوها تسبيحاً : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، فلا شيءَ يشفي صدورهم إلا هذه الكلمة يُردِّدونها . كما يجلس المرجم يُعزِّي نفسه نادماً يقول : أنا مُخطيء ، أنا أستحق السجن ، أنا كذا وكذا .

وقوله تعالى : { حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ } [الأنبياء : 15] الحصيد : أي المحصود وهو الزرْع بعد جمعه { خَامِدِينَ } [الأنبياء : 15] الخمود من أوصاف النار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة ، ثم تصير تراباً وتذهب حرارتها . كأن الحق - سبحانه وتعالى - يشير إلى حرارتهم في عداء الرسول وجَدَلهم وعنادهم معه صلى الله عليه وسلم ، وقد خمدتْ هذه النار وصارتْ تراباً .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا خَلَقْنَا السمآء . . . } .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16)

ربنا - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل الأعلى في الخلْق؛ لأن خَلْق السماوات والأرض مسألة كبيرة : { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . } [غافر : 57] فالناس تُولَد وتموت

وتتجدد ، أمّا السماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خلْق هائل عظيم منضبط ومنظوم طوال هذا العمر الطويل ، لم يطرأ عليه خَلَل أو تعطُّل .

والحق سبحانه لا يمتنُّ بخَلْق السماء والأرض وما بينهما؛ لأنها أعجب شيء ، ولكن لأنها مخلوقة للناس ومُسخَّرة لخدمتهم ، فالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب والأرض وما عليها من خَيْرات ، بل وما تحتها أيضاً { وَمَا تَحْتَ الثرى } [طه : 6] .

الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، حتى ما تتصوره خادماً لغيرك هو في النهاية يصبُّ عندك وبين يديك ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، وكلهم يخدمون الإنسان .

فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى في هذا الكون فما عمله هو؟ وما وظيفته في كون الله؟ فكل ما دونك له مهمة يؤديها فما مهمتك؟ إذن : إنْ لم يكن لك مهمة في الحياة فأإنت أتفه من الحيوان ، ومن النبات ، حتى ومن الجماد ، فلا بُدَّ أنْ تبحثَ لك عن عمل يناسب سيادتك على هذه المخلوقات .

ثم هل سخَّرْتَ هذه المخلوقات لنفسك بنفسك ، أم سخَّرها الله وذلَّلها لخدمتك؟ فكان عليك أن تلتفت لمن سخَّر لك هذه المخلوقات وهي أقوى منك ، ألك قدرة على السماء؟ أتطول الشمس والقمر؟

{ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً } [الإسراء : 37] .

إذن : كان يجب عليك أن تبحث بعقلك فيمَنْ سخَّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدي إلى الخالق للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما خلقها عبثاً ، ولا خلقها للعب ، إنما خلقها من أجلك أنت .

لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلي ، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له » .

فالكون مملوك لك ، وأنت مملوك لله ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك .

فما الحكمة من خَلْق السماء والأرض وما بينهما؟ الحكمة أن هذه المخلوقات لولاها ما كُنَّا نستدل على القوة القادرة وراء خَلْق هذه الأشياء ، وهو الخالق سبحانه ، فهي - إذن - لإثبات صفات الجلال والجمال لله عز وجل . فلو ادَّعَى أحد أنه شاعر - ولله المثل الأعلى - نقول له : أين القصيدة التي قلتها؟ فلا نعرف أنه شاعر إلا من خلال شِعْره وآثاره التي ادَّعاها . وهي دعوى دون دليل؟!

وقد خلق الله هذا الخَلْق من أجلك ، وتركك تربَع فيه ، وخلقه مقهوراً مُسيَّراً ، فالشمس ما اعترضتْ يوماً على الشروق ، والقمر والنجوم والمطر والهواء والأرض والنبات كلها تعطي المؤمن والكافر والطائع والعاصي؛ لأنها تعملبالتسخير ، لا بالإرادة والاختيار .

أما الإنسان هو المخلوق صاحب الاختيار في أن يفعل أو لا يفعل .

ولو نظرتَ إلى هذا الكون لأمكنك أنْ تُقسِّمه إلى قسمين : قسم لا دَخْلَ لك فيه أبداً ، وهذا تراه منسجماً في نظامه واستقامته وانضباطه ، وقسم تتدخل فيه ، وهذا الذي يحدث فيه الخَلَل والفساد .

قال الحق سبحانه وتعالى : { والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم * والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم * لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 38-40] .

فالكَوْن من حولك يسير بأمر خالقه ، منضبط لا يتخلف منه شيء ، فلو أخذتَ مثلاً سنة كاملة 365 يوماً ، ثم حاولتَ أنْ تعيدها في عام آخر لوجدتَ أن الشمس طلعتْ في اليوم الأول من نفس المكان ، وفي اليوم الثاني من نفس مكان اليوم الثاني ، وهكذا بدقة متناهية ، سبحان خالقها .

لذلك؛ فالذين يضعون التقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجِّلون دورة الفلك ، ثم يتكرر ما سجَّلوه بانضباط شديد ، ومن ذلك مثلاً إذا حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئي أو حَلْقي ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً في نفس موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه؛ لأنه لا تدخلٌ لنا فيه أبداً .

وفي المقابل انظر إلى أيِّ شيء للإنسان فيه تدخّل : فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض ، ويزن بعضنا لبعض ، ويقيس بعضنا لبعض ، ويخبز بعضنا لبعض ، ويبيع بعضنا لبعض . . الخ انظر إلى هذه العلاقات تجدها - إلاّ ما رحم الله - فاسدة مضطربة ، ما لم تَسِرْ على منهج الله ، فإن سارت على منهج الله استقامت كاستقامة السماء والأرض .

إذن : كلما رأيتَ شيئاً فاسداً شيئاً قبيحاً فاعلم أن الإنسان وضع أنفه فيه .

وكأن الخلق - عز وجل - يقول للإنسان : أنت لستَ أميناً حتى على نفسك ، فقد خلقتُ لك كل هذا الكون ، ولم يشذ منه شيء ، ولا اختلَّتْ فيه ظاهرة ، أمّا أنت - لأنك مختار - فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها .

فاعلم أن المسائل عندي أنا آمَنُ لك ، فإذا أخذتُك من دنيا الأسباب إلى الآخرة وإلى المسبِّب ، فأنا أمين عليك أُنعمك نعيماً لا تعبَ فيه ولا نصبَ ولا شقاء ، وإنْ كنت تخدم نفسك في الدنيا ، فأنا أخدمك في الآخرة ، وأُلبِّي لك رغبتك دون أن تُحرِّك أنت ساكناً .

إذن : لو أنني شغلت نفسي بمَنْ يملكني وهو الله تعالى لاستقام لي ما أملكه .

فهذا الكون وهذا الإيجاد خلقه الله لخدمة الإنسان ، فلماذا؟ كأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لأنِّي يكفيني من خلقي أن يشهدوا مختارين أنه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإنْ كانت المخلوقات قد شهدتْ هذه الشهادة مضطرة ، فالعظمة أن يشهد المختار الذي يملك أنْ

يشهد أو لا يشهد .
كما أنني بعد أنْ أنعمتُ عليك كلَّ هذه النعم أنزلتُ إليك منهجاً بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فإنْ أطعتَ أثبتك ، وإنْ عصيت عاقبتك ، وهذه هي الغاية من خَلْق السماء والأرض ، وأنها لم تُخلَق لعباً .
وهذا المنهج تعرفه من الرسل ، والرسل يعرفونه من الكتاب . فلو كذَّبْتَ بالرسل لم تعرف هذه الأحكام ولم تعرف المنهج ، وبالتالي لا نستطيع أنْ نثيب أو نعاقب ، فيكون خَلْقُ السماء والأرض بدون غاية .
ثم يقول الحق سبحانه : { لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً . . . } .

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17)

فلو أردنا اللهو لفعلناه ، فنحن نقدر على كل شيء ، وقوله : { إِن كُنَّا فَاعِلِينَ . . . } [الأنبياء : 17] تدل على أن ذلك لن يحدث .
فمعنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه ، فالإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فاللهو واللعب حركتان من حركات الجوارح ، ولكنها حركات لا مقصد لها إلا الحركة في ذاتها ، فليس لها هدف كمالي نسعي له في الحركة ، ولذلك فاللهو واللعب دون هدف يسمى عَبَثاً .
وهذا يمتنع في حق الله سبحانه وتعالى : { بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل . . . } .

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

ما دام أنهم فعلوا اللهو واللعب ، وخانوا نِعَم الله في السماء والأرض فليعلموا أن هذا الحال لن يستمر ، فالحق سبحانه يُملي للباطل ويُوسع له حتى يزحف ويمتد ، حتى إذا أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وقذف عليه بالحق .
فقوله : { بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل . . } [الأنبياء : 18] القذف : الرَّمْي بشدة مثل القذائف المدمرة { فَيَدْمَغُهُ . . } [الأنبياء : 18] يقال : دمغه أي : أصاب دماغه . والدماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ ، وهو ميزان المرء ، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أيِّ عطل آخر ، أما إنْ تعطل المخ فلا أملَ في النجاة بعده .
لذلك جعل الحق – سبحانه وتعالى – عَظْمة الدماغ أغوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام ، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت – مثلاً – إذا توقف القلب؛ لأن القلب يجري له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس ، أما إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه ، فهو الخلية

الأولى والتي تحتفظ بآخر مظاهر الحياة في الجسم؛ لذلك يقولون : موت إكلينيكي .
وللمخ يصل خلاصة الغذاء ، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء ، فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفي طاقته الاحتراقية في العمل ، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذّى عليها الجسم ، حين لا يوجد الطعم ، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذَّى على اللحم ، ثم على العَظْمِ لِيُوفِّر للمخ ما يحتاجه ، فهو السيد في الجسم ، ومن بعده تتغذّى باقي الأعضاء .
إذن : كل شيء في الجسم يخدم المخ؛ لأنه أَعْلَى الأعضاء ، أما النبات مثلاً فيخدم أسفله ، فإذا جَفَّ الماء في التربة ولم يجد النبات الغذاءَ الكافي يتغذى على أعلاه فيذبل أولاً ، ثم تتساقط الأوراق ، ثم تجفّ الفروع الصغيرة ، ثم الجذع ، ثم الجذر .
ومن ذلك قول سيدنا زكريا عليه السلام : { قَالَ رَبِّ إِنِّيَ وَهَنَ العظم مِنِّي واشتعل الرأس شَيْباً . . . } [مريم : 4] فالعَظْم آخر مخزَن للغذاء في الجسم ، فوَهَنُ العظم دليل على أن المسألة أوشكتْ على النهاية .
إذن : فقوله تعالى : { فَيَدْمَغُهُ . . . } [الأنبياء : 18] أي : يصيبه في أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها ، لا عضو آخر يمكن أنْ يُجبر؛ لذلك يقول بعدها { فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . . . } [الأنبياء : 18] زاهق : يعني خارج بعنف .
وقوله تعالى : { وَلَكُمُ الويل مِمَّا تَصِفُونَ } [الأنبياء : 18] يعني : أيها الإنسان المغترّ بلججه وعناده في الباطل ، ووقف بعقله وقلبه ليصادم الحق ، سنقذف بالحق على باطلك ، فنصيب دماغه فيزهق ، ساعتها ستقول : يا ويلتي كما سبق أنْ قالوا : { قَالُواْ ياويلنآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 14] حينما يباشرون العذاب .
ومعنى : { تَصِفُونَ } [الأنبياء : 18] تكذبون كذباً افترائياً ، كما لو رأيت شخصاً جميلاً ، فتقول : وجهه يَصِفُ الجمال ، يعني : إنْ كنت تريد وَصْفاً للجمال ، فانظر إلى وجهه يعطيك صورة للجمال ، كما جاء في قوله تعالى :

{ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب . . . } [النحل : 62] يعني : إنْ أردت أنْ تعرف الكذب بعينه ، فاسمع كلامهم وما قالتْه ألسنتهم .
كما يقولون : حديث خرافة ، وأصل هذه المقولة رجل اسمه خرافة ، كان يقول : أنا عندي سهم إنْ أطلقْته على الظَّبي يسير وراءه ، فإن التفت يميناً سار وراءه ، فإنْ ذهب شمالاً ذهب وراءه ، فإنْ صعد الجبل صعد وراءه ، فإنْ نزل نزل وراءه . وكأن سهمه صاروخ مُوجَّه كالذي نراه اليوم!! فسار كلامه مثالاً يُضرب للكذب .
لذلك قال الشاعر :
حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرو ... فإنْ أردتَ تعريفاً للكذب فأنا لا أُعرِّفه لك بأنه قوْلٌ لا يوافق

الواقع ، إنما اسمع إلى كلامهم ، فهو أصدق وَصْف للكذب؛ لأنه كذب مكشوف مفضوح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام : 100] أي : يكذبون ويفترون على الله .

وقد يقول قائل : لماذا يُملِي الله للباطل حتى يتمرَّد ويعلو ، ثم يعلو عليه الحق فيدمغه؟

نقول : الحكمة من هذا أنْ تتم الابتلاءات ، والناس لا تتعشق الحق إلا إذا رأتْ بشاعة الباطل ، ولا تعرف منزلة العدل إلا حين ترى بشاعة الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء ، كما قال الشاعر :

فَالوجْهُ مِثْلُ الصبُّحْ مُبيضٌ ... وَالشَّعْر مِثْلُ الليْلِ مُسْودُ
ضِدَّان لَمَّا استْجمْعاَ حَسْناً ... والضِدُّ يُظهِرُ حُسْنه الضِدُ

إذن : لا نعرف جمال الحق إلا بقُبْح الباطل ، ولا حلاوة الإيمان إلا بمرارة الكفر . { وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض . . . } .

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19)

سبق أن أخبر الحق سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وهذا ظَرْف ، فما المظروف فيه؟ المظروف فيه هم الخَلْق ، وهم أيضاً لله : { وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض . . . } [الأنبياء : 19] وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميَّزه الله بالاختيار يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصي ، فإنْ كان مختاراً في أمور التكليف فهو مقهورة : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . . } [الأحزاب : 72] .

فاختارت التسخير على الاختيار الذي لا طاقة لها به .

أما الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضَّل الاختيار ، ورأى أنه سيُوجه هذه الأمانة التوجيه السليم { وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

فوصفه رَبُّه بأنه كان في هذا العمل ظلوماً جهولاً؛ لأنه لا يدري عاقبة هذا التحمل . فإنْ قلتَ : فما ميزة طاعة السماوات والأرض وهي مضطرة؟ نقول : هي مضطرة باختيارها ، فقد خيَّرها الله فاختارت الاضطرار .

وقوله : { وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ . . . } [الأنبياء : 19] أي ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم في عبادة دائمة لا تنقطع ، والمراد هنا الملائكة؛ لأنهم { لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .

{ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ } [الأنبياء : 19] من حسر : يعني ضَعُفَ وكَلّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

ومنه قوله تعالى : { ثُمَّ ارجع البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك : 4] أي : كليل ضعيف ، لا يَقْوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ

الشمس أو ضوء سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية؛ لأن الضوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه .

وفي آية أخرى يقول تعالى : { لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون . . . } [النساء : 172] لأن عِزَّهم في هذه المسألة . { يُسَبِّحُونَ الليل . . . } .

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ويسبحونه ، لا يصيبهم ضَعْف ، ولا يصيبهم فُتُور ، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه : فالملائكة لا تتكبر عن عبادته والخضوع له .

والحق سبحانه يقول : { إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [الأعراف : 206] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { أَمِ اتخذوا آلِهَةً . . } .

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21)

أي : فما لهم أعرضوا عن كل هذه الحقائق؟ ألهم آلهة غيري وأنا خالق السماء والأرض ، وهي لي بِمَنْ فيها من الإنس والجن والملائك؟ فالجميع عَبْد لي يُسبِّح بحمدي ، فما الذي أعجبهم في غيري فأعرضوا عني ، وانصرفوا إليه؟ أهو أحسن مني ، أو أقرب إليهم مني؟

كأن الحق – تبارك وتعالى – يستنكر انصرافهم عن الإله الحق الذي له كل هذا الملك ، وله كل هذه الأيادي والنِّعَم .

وقوله تعالى : { هُمْ يُنشِرُونَ } [الأنبياء : 21] أي : لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم . وشيء من هذا كله لم يحدث؛ لأنه : { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ . . . } .

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)

فمَع انصرافكم عن الإله الحق الذي له مُلْك السماء والأرض ، وله تُسبِّح جميع المخلوقات ، لا يوجد إله آخر { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا . . . } [الأنبياء : 22] أي : ما زال الكلام مرتبطاً بالسماء والأرض { لَفَسَدَتَا . . . } [الأنبياء : 22] السماء والأرض ، وهما ظرفان لكلِّ شيء من خَلْق الله .

ومعنى { إِلاَّ الله . . . } [الأنبياء : 22] إلا : أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ : جاء القوم إلا محمد ، فقد أخرجتَ محمداً عن حكم القوم وهو المجيء ، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا . . . } [الأنبياء : 22]

يعني : لو كان هناك آلهة ، الله خارج عنها لفسدت السماوات والأرض .

إذن : ما الحال لو قلنا : لو كان هناك آلهة والله معهم؟ معنى ذلك أنها لا تفسد . فإلا إنْ حققت وجود الله ، فلم تمنع الشَّركة مع الله ، وليس هذا مقصود الآية ، فالآية تقرر أنه لا إله غيره .

إذن : (إلا) هنا ليست أداةَ استثناء . إنما هي اسم بمعنى (غير) كما جاء في قوله تعالى : { وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ . . . } [هود : 36] .

فالمعنى : لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لَفسدتَا ، فامتنع أن يكون هناك شريك .

وهناك آية أخرى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] .

الحق – سبحانه وتعالى – يعطينا القسمة العقلية في القرآن : فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً . . } [الإسراء : 42] أي : لو حدث هذا { لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] .

السبيل : الطريق ، أي طلبوا طريقاً إلى ذي العرش أي : إلى الله ، لماذا؟ إما ليجادلوه ويصاولوه ، كيف أنه أخذ الألوهية من خلف ظهورهم ، وإمّا ليتقربوا إليه ويأخذوا ألوهية من باطنه ، وقوة في ظل قوته ، كما أعطى الله تعالى قوة فاعلة للنار مثلاً من باطن قوته تعالى ، فالنار لا تعمل من نفسها ، ولكن الفاعل الحقيقي هو الذي خلق النار ، بدليل أنه لو أراد سبحانه لَسلَبها هذه القدرة ، كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] .

وقوله : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . } [المؤمنون : 91] وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنه سبحانه موجود وواحد .

أما على اعتبار أن (إلا) استثناء فهي تثبت أنه موجود ، إنما معه شريك ، وليس واحداً . فهي – إذن – اسم بمعنى غير ، ولما كانت مبنية بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها (لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ) فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ (إلا) الذي ظهر على لفظ الجلالة (الله) .

لكن ، لماذا تفسد السماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله؟

قالوا : لأنك في هذه المسألة أمام أمرين : إما أن تكون هذه الآلهة مستوية في صفات الكمال ، أو واحد له صفات الكمال والآخر له صفة نقص . فإنْ كان لهم صفات الكمال ، اتفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا؟

إنْ كانوا متفقين على خَلْق شيء ، فهذا تكرار لا مُبرِّر له ، فواحد سيخلق ، والآخر لا عملَ له ، ولا يجتمع مؤثران على أثر واحد .

فإن اختلفوا على الخَلْق : يقول أحدهم : هذه لي . ويقول الآخر : هذه لي ، فقد علا بعضهم

على بعض .

أما إنْ كان لأحدهم صفة الكمال ، وللآخر صفة النقص ، فصاحب النقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً . وهكذا الحق – سبحانه وتعالى – يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلي هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل : لا إله إلا الله ، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل .

كذلك يردُّ على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل مَنْ قالوا : العزيزُ ابن الله ومَنْ قالوا : المسيح ابن الله . ومَن اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله : { أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ . . } [الإسراء : 57] .

إن هؤلاء الذين تدعُونهم مع الله يطلبون إليه وسيلة ، ويتقرّبون إليه سبحانه ، وينظرون أيّهم أقرب إلى الله من الآخر ، فكيف يكونون آلهة؟

ثم يقول تعالى : { فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش . . . } [الأنبياء : 22] أي : تنزيهاً لله عَمَّا قال هؤلاء : { عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنبياء : 22] أي : يُلحِدون ويكذبون ويفترون .

والعرش : هو السرير الذي يجلس عليه الملك ، وهو علامة المُلْك والسيطرة ، كما في قوله تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد : { إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل : 23] فحين يقول سبحانه { رَبِّ العرش } [الأنبياء : 22] ينصرف إلى عرشه تعالى ، الذي لا يعلو عليه ، ولا ينازعه عَرْش آخر . ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته سبحانه : { لاَ يُسْأَلُ عَمَّا . . . } .

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)

فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل؛ لأن السائلَ له مراتب مع المسئول ، والعادة أن يكون المسئول في مرتبة أَدْنى من السائل؛ لذلكلا احدَ يسأل الله تعالى عَمَّا يفعل ، أمّا هو سبحانه فيسأل الناس .

لذلك قال بعض الظرفاء : الدليل على أن الله لا شريك له ، خَلْقه لفلان ، لأنه لو كان له شريك كان عارضه في هذه المسألة .

إذن : لا أحدَ أعلى من الله ، حتى يسأله : لِمَ فعلتَ كذا وكذا؟

ثم يقول الحق سبحانه : { أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ . . . } .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

طالما اتخذوا من دون الله آلهة فهاتوا البرهان على صِدْقها ، كما أن الله تعالى – وهو الإله الحق – أتى بالبراهين الدامغة على وجوده ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، وعلى أحديته ، فهاتوا أنتم

أيضاً ما لديكم ، أم أنها آلهة لا أدلةَ لها ولا برهانَ عليها ، فلم تنزل كتاباً ، ولا أرسلتْ رسولاً ، ولا جاءت بمنهج .

فأين هم إذن؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث ، فهي آلهة غافلة لا يصح أنْ يحتلوا هذه المنزلة ، وإنْ كانوا على دراية فلِمَ لَمْ يُجابهوا الحقائق ويدافعوا عن أنفسهم؟ إذن : هم ضعفاء عن هذه المواجهة .

وقوله تعالى : { قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ . . . } [الأنبياء : 24] أي : هاتوا الدليل على وجود آلهة غير الله ، والبرهان : التدليل بإيجاد الكون على هذا النظام البديع ، فهل سمعتم أن إلهاً آخر قال : أنا الذي أوجدتُ؟ هل أرسل رسولاً بآية؟

إذن : هذا كلام كذب وافتراء واختلاق من عند أنفسكم؛ لأنكم لستم أهلَ علم في شيء ، ولا يعني هذا عدمَ وجود العلم ، إنما العلم موجود ، ولكنكم مُعرِضون عن سماعه : { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق فَهُمْ مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء : 24] .

كأن للحق سمات يعلم بها ، فَمنْ أقبل على معرفة الحق وجده ، أما مَنْ أعرض عن المعرفة ، فمن أين له أنْ يعرف؟ إذن : فالحق موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه ، وأمسكوا بالدليل عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ . . . . } .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

إذن : فقضية التوحيد واضحة منذ بداية الرسالات إلى خاتمها ، الكل جاء بقول لا إله إلا الله قضية مشتركة بين جميع رسالات السماء .

وقوله تعالى : { مِن رَّسُولٍ . . } [الأنبياء : 25] (منْ) هنا للشمول والتعميم ، يعني : كل أفراد الرسل ، كلّ مَنْ يُقَال له رسول . فلو قال لك شخص : ما عندي مال ، لا يمنع هذا القول أن يكون عنده قليل من المال ، قروش مثلاً لا يُقال لها مال ، فإنْ قال لك : ما عندي من مال فقد نفى وجود جنس المال من بداية ما يقال له مال ، ما عندي حتى مليم واحد .

إذن : ما جئتم به من مسألة الشرك بالله أو إنكاره عز وجل مسألة جديدة (موضة) طلعتُم علينا بها . { وَقَالُواْ اتخذ الرحمن . . . . } .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26)

قوله : { سُبْحَانَهُ . . . } [الأنبياء : 26] أي : تنزيهاً له أنْ يكون له ولد ، فقُلْ : إنْ كان له ، فله عباد مكرمون وهم الملائكة .

ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الذين هم الملائكة أنهم : { لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول . . . } .

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27)

ومع أنهم عباد مكرمون إنما لا يسبقونه بالقول ، فلا يقولون ما لم يقُلْه ولا يتقدمون عليه بقول حتى إنْ وافق مراد الله ، ولا يفعلون ما لم يأمر به ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة لبعض آفات المجتمع ، فمن آفات المجتمع أن ترى العظماء المكرمين إلا أنهم يصنعون لأنفسهم سلطة زمنية من باطنهم ، فيقولون ما لم يَقُلْه ربهم عز وجل ، ويفعلون ما لم يأمر به ، ويُقدِّمون أوامرهم على أوامره .

وقوله تعالى : { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء : 27] أي : يأتمرون بأمره ، فإنْ أمر فعلوا ، وإنْ نَهَى تركوا .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . . . } .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28)

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فَمَع أن الله أكرمهم وفضَّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما { وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى . . . } [الأنبياء : 28] .

أي : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم { عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } [الأنبياء : 26] أي : مُدلَّلون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة { مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء : 28] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إني إله مِّن دُونِهِ . . . } .

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

أي : على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول ، إذن : هذا كلام لم يحدث ، ولا يمكن أنْ يُقال منهم { فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين } [الأنبياء : 29] لماذا؟ لأنهم أخذوا الظُّلم في أعلى مراتبة وعنفوانه وطغيانه ، ظلم في مسألة القمة { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

لذلك يُهدّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم

، وفي هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

***

بعد ذلك أراد الحق – سبحانه وتعالى – أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التي أكَّدها في كلامه السابق ، والوحدانية في طَيّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصفْان لله عز وجل { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] وقال : { الواحد القهار } [الرعد : 16] .

فالواحد أي : الفرد الذي لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد في ذاته أحد أي : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون في ذاته مُكوّناً من أجزاء؛ لأنه سبحانه لو كوّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً في وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له في وجوده ليكوِّن كله ، إذنْ : فلا هو كليّ ، ولا هو جزئي .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التي لا يمكن أنْ ينكرها أحد؛ لأنها آيات مُرتّبة واضحة ونافعة في الوقت نفسه ، فقد يكون المرئي واضحاً لكن لا حاجة لك فيه – فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه ، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر . . إلخ .

فمشهودية هذه الآيات تقتضي الالتفات إليها ، والنفعية فيها تقتضي أيضاً الالتفات إليها ، حتى وهي غائبة عنك ، فتنظر وتتطلع إلى عودتها من جديد .

فيقول الحق سبحانه : { أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات . . . } .

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)

قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا . . . } [الأنبياء : 30] يعني : أعميتْ أبصارهم ، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام ، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله . وهكذا كما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفي .

لكن كيف يقول الحق سبحانه : { أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا . . } [الأنبياء : 30] والحديث هنا عن السماء والأرض ، وقد قال تعالى : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] ؟

فهذه مسألة لم يشهدها أحد ، ولم يخبرهم أحد بها ، فكيف يروْنها؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية في القرآن ، وأن لها استعمالات مختلفة : فتارة تأتي بمعنى : نظر أي : بصرية . وتأتي بمعنى : علم ، ففي قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1] .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها؛ لأنه وُلِد في نفس عامها ، فالمعنى : ألم تعلم ، فلماذا عَدلَ السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية ، مع أن رؤية العين هي آكد الرُّؤى ، حتى أنهم يقولون : ليس مع العَيْن أيْن؟

قالوا : لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله صلى الله عليه وسلم أنت صحيح لم ترهَا بعينيك ، لكن ربك أخبرك بهان وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك ، فإذا أخبرك الله بشيء فإخبار الله أصدقُ من رؤية العين ، فالعين يمكن أنْ تخدعك ، أو ترى بها دون أنْ تتأمل . أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً } [مريم : **83**] .

لكن ، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم في مسألة خَلْق السماوات والأرض؟

قالوا : لأن الإنسان حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ : من أين جاء هذا الكون العجيب؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشيء العجيب ، ويسأل عنه ، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به ، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له؟

إذن : كان عليهم أن ينظروا : مَنِ الذي نبَّأ رسول الله بهذه المسألة؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها ، وقد جاءهم رسول الله بمعجزة تُثبِت صدقه في البلاغ عن الله ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه ، وما دام الكلام من الله فهو صدق : { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً } [النساء : **122**] .

وقد نزل القرآن في جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام ، وفيها اليهود وبعض النصارى ، وهما أهل الكتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب ، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم : لقد أطلّ زمان نبي سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

ومع ذلك ، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به ، والتحموا بالكفار ، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، ما جمعهم إلا كراهية النبي ، وما جاء به من الدين الحق ، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي من اتحاد ضد الإسلام .

إذن : بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام في خندق واحد ، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب ، وفي التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول : إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة ، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان ، فالدخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السماء ، والبقية ظلتْ فكوَّنت الأرض .

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْقِ؛ لذلك قال الله عنهم : { أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا . . . } [الأنبياء : **30**] .

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى : { كَانَتَا رَتْقاً } [الأنبياء : **30**] قالوا :

السماوات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضي أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع . وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْر أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوي والأرضية وهما مُثنَّى .

وفي القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربي المبنيّ على الفِطنة والذكاء ومُرونة الفهم . فخُذْ مثلاً قوله تعالى : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا . . . } [الحجرات : 9] .

فلم يقُلْ حسْب الظاهر : اقتتلتَا؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفرداً إلا أنها تحوي جماعة ، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة ، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه ، فالقتال ملحوظ فيه الجمع { اقتتلوا . . . } [الحجرات : 9] فإذا ما جِئْنا للصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثل عن كل طائفة ، فالصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثل عن كل طائفة ، فالصُّلْح قائم بين طرفين؛ لذلك يعود السياق للتثنية . { فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل } [الحجرات : 9] .

والرَّتْق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى { فَفَتَقْنَاهُمَا . . } [الأنبياء : 30] أي : فَصلْنَاهما وأزَحْنَا هذا الالتحام ، وما ذُكِر في التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها في هَيْبة ، فحصل لها كذا وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالى : { ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً . . . } [فصلت : 11] .

والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون ، وهذا أمر قابل للخلاف ، فكلٌّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

فالعربي القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية ، لا يعرف الجاذبية ، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها ، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التي لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذي لا يفهمه ، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً : إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال الخ .

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » لذلك كلٌّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحاً لا غموض فيه ، أمَّا الأمور الكونية التي تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التي تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى ، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يعطينا مجرد إشارة ، وعلى العقول المتأمّلة أنْ تُكمِلَ هذه المنظومة .

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان في هذه المسألة ، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله ، والغرام بكتابه ، والرغبة الصادقة في إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث

ليقول بها الآن ، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان .

الموقف الأول : وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديداً شاهداً من القرآن ليقولوا : إن القرآن سبق إليه وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق في بلاغه عن الله .

الموقف الثاني : أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد ، ويلتمسون لها شاهداً من كتاب الله ، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن .

والموقف الحق أن هناك فرقاً بين نظرية علمية ، وحقيقة علمية ، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد؛ لذلك يقولون : هذا كلام نظري أي : يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع ، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة ، وثبت صدقها عملياً ووثقنا أنها لا تتغير .

فعلينا – إذن – ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التي تحتمل الصدق أو الكذب ، حتى لا يتذبذب الناس في فَهْم القرآن ، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا . أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن .

من ذلك مسألة كروية الأرض ، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتباً ، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن . فلما تقدم العلم ، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية ، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر ، فلماذا لا تكون الأرض كذلك؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطئ البحر ، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ، ولا ترى باقي المركب إلا إذا اقتربتْ منك ، عَلامَ يدلُّ ذلك؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستوياً ، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها .

فلما جاء عصر الفضاء ، وصعد العلماء للفضاء الخارجي ، وجاءوا للأرض بصور ، فإذا بها كُروية فعلاً ، وهكذا تحولتْ النظرية إلى حقيقة علمية لا تُدفع ، ولا جدال حولها ، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها .

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها ، ومَنْ كان يصدق قديماً أن الأرض هي التي تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وغيره؟ ولك أن تأخذَ كوزاً ممتلئاً بالماء ، واربطه بخيط من أعلى ، ثم أَدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى ، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء ، لماذا؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التي تجذب الماء إليها ، بدليل أنك إذا تهاونتَ في دوران الكوز يقع الماء من فُوهته ، ولا بُد من وجود تأثير للجاذبية ، فجاذبية الأرض هي التي تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها .

أما أن نلتقط نظرية وليدة في طَوْر البحث والدراسة ، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية ، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية ، وكانت في بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتّبة حسب قُرْبها من الشمس في المركز : عطارد ، فالزهرة ، فالأرض ، فالمريخ ، فالمشتري ، فزُحَل ، فأورانوس .

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار – منهم الشيخ المراغي – بالقول بأنها السماوات السبع ، وكتبوا في ذلك بحوثاً ، وفي القرآن الذي سبق إلى هذا . ومرَّتْ الأيام ، واكتشف العلماء الكواكب الثامن (نبتون) ، ثم التاسع .

إذن : رَبْط النظرية التي لم تتأكد بَعْد علمياً بالقرآن خطأ كبير ، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزة أحدث ومجاهر أكبر – كما يقول بعض علماء الفضاء – لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة ، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة في المجرة التي نسميها (سكة التبَّانة) ، والإغريق يسمونها (الطريق اللبني) .

وهذه الكواكب التي نراها كبيرة وعظيمة ، لدرجة تفوق تصورات الناس ، فالشمس التي نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة ، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس في جوفه . والمسافة بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ضوئية ، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب في ستين ثانية ، الثانية الواحدة السرعة فيها 186 ألف ميل يعني : ثلاثمائة ألف كيلومتر .

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق ، فوجدوها مائة سنة ضوئية ، أما الشِّعْري الذي امتنَّ الله به في قوله { وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى } [النجم : 49] فهو أبعد من ذلك . وهذه الكواكب والأفلاك كلها في السماء الدنيا فقط ، فما دَخْل هذا بالسماوات السبع التي تحدثوا عنها؟!

لذلك حاول كثيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم ، حتى لا تكون سُبَّة في حقِّهم وزلّة في طريقهم العلمي .

كذلك من النظريات التي قالوا بها وجانبتْ الصواب قولهم : إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتيجة دوران الشمس وهي كتلة ملتهبة ، فانفصل عنها بعض (طراطيش) ، وخرج منها بعض الأجزاء التي بردتْ بمرور الوقت ، ومنها تكونت الأرض ، ولما بردتْ الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهباً حتى الآن . وتتفجر منه براكين كبركان (فيزوف) مثلاً .

والقياس العقلي يقتضي أن نقول : إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، فمن الطبيعي أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهي بالاستطراق الحراري ، إذن : فهذه نظرية غير سلمة ، وقولكم بها يقتضي أنكم عرفتم شيئاً عن خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ما أخبر الله به ، وقد قال تعالى :

{ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض . . } [الكهف : **51**] .
ثم يقول في آية جامعة { وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : **51**] .
والمضلّ هو الذي يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلِّلة في هذه المسألة تقول : حدث في الخلق كيت وكيت .
والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق – عز وجل – وأن نقف عند هذا الحد ، لأن معرفتك بكيفية الشيء ليست شرطاً لانتفاعك به ، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلِقَتْ؟ وكيف كانت؟ انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئاً عنها ، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض .
فالرجل الأميّ الذي لا يعلم شيئاً يشتري مثلاً « التليفزيون » ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به ، دون أنْ يعلم شيئاً عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت . . إلخ . فخُذْ ما في الكون من جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض في أصل خَلْقه وكيفية تكوينه ، كما لو قُدِّم لك طعام شهيّ أتبحثُ قبل أن تأكل : كيف طُهِي هذا الطعام؟!
وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والَتْق ، فمنهم مَنْ قال بالرأي الذي قالتْه التوراة ، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة ، وحدث لها كذا وكذا ، وتكوَّنت السماء والأرض .
ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء ، كل على حِدَة ، وأنهما لم يكونا أبداً ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : { فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً } [عبس : **24–28**] .
وفي موضع آخر قال : { فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } [القمر : **11–12**] .
فالمراد – إذن – أن الأرض وحدها كانت رَتْقاً ، فتفجرت بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر ، فشقَّ الله السماء بالمطر ، وشَقّ الأرض بالنبات الذي يصدعها : { والسمآء ذَاتِ الرجع * والأرض ذَاتِ الصدع } [الطارق : **11–12**] .
وقال عن السماء : { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام . . . } [الفرقان : **25**] على اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك ، فيكون السحاب من السماء .
نفهم من هذا الرأي أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض ، إنما فتق كل منهما على حِدَة ، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطي حكماً جديداً ، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام ، وقد تأتي بشيء آخر ، المهم أن القولَيْن لا يمنع أحدُهما الآخر .

وقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . . } [الأنبياء : 30] قال أصحاب التأويل الثاني : ما دام ذكر هنا الماء ، فلا بُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق في كل من الأرض والسماء .

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ : كل شيء حيًا ، إنما { وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . . } [الأنبياء : 30] وقد استدلوا بها على أن الحيَّ المراد به الحياة الإنسانية التي نحياها ، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ في تكوين كل شيء ، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى ، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضاً ، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء .

فالمعنى {كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . } [الأنبياء : 30] أي : كل شيء مذكور موجود .

والتحقيق العلمي أن لكل شيء حياةً تناسبه ، وكل شيء فيه ماء ، بدليل قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . } [الأنفال : 24] .

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء ، إذن : يحييكم أي : حياة أخرى لها قيمة؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا ، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هي حياة الآخرة .

وسُميّ الشيء الذي يتصل بالمادة ، فتدبّ فيها الحياة روحاً ، فقال : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . . } [الحجر : 29] .

وسُمِّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحاً ، وسُمّي الملَك الذي ينزل به روحاً؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية ، لا فناء لها ، وهكذا يتم الإرتقاء بالحياة .

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة ، وللنبات حياة ، فالحيوان يُنْفَق ويموت ، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى . أما الجماد فله حياة أيضاً ، بدليل قوله تعالى : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] .

فوَصَف كل ما يقال له شيء بأنه هالك ، والهلاك ضد الحياة ، فلا بُدَّ أن تكون له حياة ، ألم تقرأ قوله تعالى : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . } [الأنفال : 42] فالحياة ضِدُّها الهلاك .

إذن : فكل شيء في المخلوقات حتى الجماد له حياة ، وفي تكوينه مائية ، كما قال سبحانه : { وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . . } [الأنبياء : 30] .

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله : { أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ } [الأنبياء : 30] يعني : أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان؟ يعني : أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان؟ فكان يجب عليهم أنْ يتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم ، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آله حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون : مَنْ فعل هذه؟ ويُؤرِّخون له ولحياته ، وتخرَّج في كلية كذا . . . إلخ .

فمن الأَوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون ، فالانصراف – إذن – عن

آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول .

يقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا فِي الأرض . . . } .

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31)

الرواسي : الجبال جمع رَاس يعني : ثابت ، وقد عبر عنها أيضاً بالأوتاد ، فقال : { والجبال أَوْتَاداً } [النبأ : 7] شبّه الجبال بالنسبة للأرض بالأوتاد بالنسبة للخيمة .

ثم يذكر عِلَّة ذلك : { أَن تَمِيدَ بِهِمْ . . . } [الأنبياء : 31] أي : مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرك بهم ، ولو أنها مخلوقة على هيئة الثبوت ما كانت لتميد أو تتحرك ، وما احتاجت لأن يُثبِّتها بالجبال؛ لذلك قال تعالى : { وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب . . . } [النمل : 88] .

فليس غريباً الآن أن نعرف أن للجبال حركة ، وأنْ كنا لا نراها؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنك وصاحبك في مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب ، فالسحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه ، إنما يمرُّ بدفْع الرياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض .

ثم يقول تعالى : { وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً . . . } [الأنبياء : 31] أي من حكمة الله أنْ جعل لنا في الأرض سُبُلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صَلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم فيها ، فقال { فِجَاجاً سُبُلاً . . . } [الأنبياء : 31] أي : طرقاً واسعة في الوديان ، والأماكن السهلة . وفي موضع آخر قال : { لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً } [نوح : 20] .

ومعنى : { وَجَعَلْنَا فِيهَا . . . } [الأنبياء : 31] يصح في الجبال أو في الأرض ، ففي كل منهما طرق يسلكها الناس ، وهي في الجبال على شكل شِعَاب ووديان .

ثم يذكر سبحانه عِلَّة ذلك ، فيقول : { لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [الأنبياء : 31] والهداية هنا تحتمل معنيين : يهتدون لخالقها ومكوِّنها ، ويستدلون بها على الصانع المبدع سبحانه ، أو يهتدون إلى البلاد والأماكن والاتجاهات ، وقديماً كانوا يتخذون من الجبال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات ، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال ، فيقولون : المكان الفلاني قريب من جبل كذا ، وعلى يمين جبل كذا ، وقد قال شاعرهم :

خُذَا بَطْنَ هِرْشَي أو قَفَاهَا فِإنَّهُ ... كِلاَ جَانِبَيْ هَرْشَي لَهُنَّ طَرِيقُ

فالهداية هنا تشمل هذا وذاك ، كما في قوله تعالى : { وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل : 16] أي : يهتدون إلى الطرق والاتجاهات ، وكان العربي يقول مثلاً : اجعل الثُّريَا عن يمينك

أو النجم القطبي ، أو سهيل أو غيرها ، فكانوا على علم بمواقع هذه النجوم ويسيرون على هَدْيها .

أو : يهتدون إلى أن للنجوم علاقة بحياة الإنسان الحيّ ، وقديماً كانوا يقولون : فلان هَوَى نَجْمه ، كأن لكل واحد منا نجماً في السماء له علاقة ما به ، وهذه يعرفها بعض المختصين ، وربما اهتدوا من خلالها إلى شيء ، شريطة أن يكونوا صادقين أمناء لا يخدعون خَلْق الله .

ويُؤيِّد هذا قوله تعالى : { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة : 75-76] أي : لو كنتم على معرفة بها لعلمتُم أن للنجوم دوراً كبيراً وعظيماً في الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً . . . } .

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32)

سمِّي السماء سقفاً؛ لأن السماء كل ما علاَك فأظلّك ، وفرْقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم . . الخ ، وسقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطي الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة ، سقف مَسْتوٍ لا نتوءَ ولا فتور .

والسماء أخذتْ دوراً تكوينياً خصَّها الله به كما خَصَّ آدم عليه السلام ، فالخَلْق جميعاً خُلِقوا بكُنْ من أب وأم ، أمّا آدم فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سبحانه ، لذلك قال تعالى : { قَالَ ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . . } [ص : 75] وهذا شرف كبير لآدم .

وكذلك قال في خَلْق السماء : { والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَييْدٍ . . . } [الذاريات : 47] .

وفي آية أخرى قال سبحانه : { والسمآء ذَاتِ الحبك . . . } [الذاريات : 7] يعني : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التي لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات؛ لذلك ترى السماء ملساء؛ ولذلك قال عنها الخالق عز وجل : { رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا } [النازعات : 28] .

ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدنا أنْ يبنيَ مثلاً ، أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عو طوبة ، فيأتي عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ، ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد في الجدار تعاريج ، ثم يأتي عامل الدهانات ، فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجوناً ويكون له في الحائط دور هام .

وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله في إعداد بيته كما يحب تأتي بعد عدة أيام ، فترى الحق - سبحانه وتعالى - يُعدّل على الجميع ، ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عمودَياً فيريك بوضوح ما في الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحَذَقة في عمله ، فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذي يبني ويُسوّي ويُزيّن؟ { الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا ترى فِي خَلْقِ

الرحمن مِن تَفَاوُتٍ . . . } [الملك : 3] .
وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن ، يُسوِّي سقفاً لعدة حجرات ، ويستخدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد ، لا بُدَّ أن تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إنْ خلط العامل اللون مرة واحدة لكل الحجرات يأتي اللون مختلفاً ، لماذا؟ لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل في نفس اليوم تجد ما تبقّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً في درجة اللون .

ومعنى : { مَّحْفُوظاً . . . } [الأنبياء : 32] أي : في بنية تكوينه؛ لأنه مُحْكَم لا اختلاف فيه ، ولا يحفظ إلا الشيء النفيس ، تحافظ عليه لنفاسته وأصالته . لكن من أيّ شيء يحفظه الله؟ يحفظها أن تمور ، يحفظها أن تقع على الأرض إلا بإذنه . { وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ } [الحج : 65] .

وقال : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ . . . }

[الروم : 25] .

إذن : في خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة لأنها صنعتنا .

ومن المسائل التي بيَّنها لنا الحق – سبحانه وتعالى – في أمر السماء مسألة استراق السمع ، فكانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع ، لكن بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم شاء الحق سبحانه ألاَّ يدلس على دعوته بسماع شيطان يُوحِي إلى أعدائه ، فمنع الجن من استراق السمع بالشُّهُب ، فقال سبحانه : { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ } [الحجر : 16–18] .

ثم يقول سبحانه : { وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ } [الأنبياء : 32] كأن للسماء آيات خاصة بها ، ففي الكون آيات كثيرة ، وللسماء آياتها ، فالشمس والقمر والنجوم والأفلاك من آياتها .

وبعد ذلك نسمع من رجال الأرصاد أن من كواكب السماء ما لم يَصِلْنا ضوؤه منذ خلق الله الأرض حتى الآن ، مع أن سرعة الضوء ثلثمئة ألف كيلومتر في الثانية ، ويمكن أن نفهم هذا في ضوء قوله تعالى : { والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [الذاريات : 47] .

لذلك يعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة تقريبية لهذه المسألة ، حتى لا نُرهق أنفسنا بالتفكير فيها : « ما السماوات والأرض وما بينهما بالنسبة لملْك الله إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » .

ومع ذلك لما صعد رواد الفضاء للقمر سارع بعض علمائنا من منطلق حُبِّهم للإسلام وإخلاصهم للقرآن بالقول بأنهم صعدوا للسماء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : { يامعشر الجن والإنس إِنِ

استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ } [الرحمن : 33] .

والمراد هنا : سلطان العلم الذي مكّنهم من الصعود .

لكن ما داموا نفذوا بِسلطن العلمِ ، فلماذا قال بعدها : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ } [الرحمن : 35] إذن السلطان المراد ليس هو سلطان العلم كما يظنون ، إنما المراد سلطان مِنّي ، بإذني وإرادتي .

ولو كان الأمر كما يقولون لقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بالمعراج : كيف تقول ذلك يا محمد وربك هو القائل : { يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ } [الرحمن : 33] .

إذن : المراد هنا سلطان من الله تعالى هو سبحانه الذي يأذن بهذه المسألة ، فتُفتّح له أبواب السماء .

ثم ما علاقة القمر بالسماء؟ والكلام عن النفاذ من أقطار السماوات ، وأين القمر من السماء؟

إن المسافة بين الأرض والقمر سنتان ضوئيتان ، فالقمر – إذن – ما هو إلا ضاحية من ضواحي الأرض ، كالمعادي مثلاً بالنسبة للقاهرة ، فأَيُّ سماء هذه التي يتحدثون عنها؟!

وقوله تعالى : { مُعْرِضُونَ } [الأنبياء : 33] سبق أن تحدّثنا عن الإعراض ، وهو الانصراف عن الشيء مِنْ أعرض يعني : أعطاه ظهره .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل . . . . } .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

الحق – سبحانه وتعالى – يمتنّ ببعض خَلْقه ، ولا يمتن الله إلا بشيء عظيم ونعمة من نعمه على عباده ، ومن ذلك الليل والنهار ، وقد أقسم سبحانه بهما في قوله تعالى : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى } [الليل : 1–2] وقال : { والضحى * والليل إِذَا سجى } [الضحى : 1–2] فالليل والنهار آيتان متكاملتان ، ليستا متضادتين ، فالأرض خلقها الله ليعمرها خليفته فيها : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا . . . } [هود : 61] .

أي : طلب منكم عمارتها بما أعطاكم الله من مُقوّمات الحياة ، فالعقل المدبر ، والجوارح الفاعلة ، والقوة ، والمادة كلها مخلوقة لله تعالى ، وما عليك إلا أنْ تستخدم نِعَم الله هذه في عمارة أرضه ، فإذا ما تمّتْ الحركة في النهار احتاج الجسم بعدها إلى الراحة في الليل .

لذلك كان النوم آية عُظْمى من آيات الله للإنسان تدلّ على أن الخالق – عز وجل – أمين على النفس أكثر من صاحب النفس .

لذلك نرى البعض مِنّا يُرهِق نفسه في العمل ، ولا يعطي لجسده راحته الطبيعية ، إلى أنْ يصيرَ

غير قادر على العمل والعطاء ، وهنا يأتي النوم كأنه رادع ذاتيٌّ فيك يُجبرك على الراحة ، ويدقُّ لك ناقسو الخطر : أنت لست صالحاً الآن للعمل ، ارحم نفسك وأعطها حقَّها من الراحة ، فإنْ حاولتَ أنت أنْ تنام قبل وقت النوم يتأبَّى عليك ولا يطاوعك ، أما هو فإنْ جاء أخذك من أعتى المؤثرات . وغلبك على كل شيء فتنام حتى على الحصى .

وفي المثل العربي : (فراش المتعبَ وطيء ، وطعام الجائع هَنِيء) أي : هين ينام الإنسان المتعَب المجهد ينام ، ولو على الحصى ، ولو دون أيّ وسائل للراحة ، ومع ذلك ينام نَوْمه مريحة .

وفي المثَل أيضاً : (النوم ضيف ، إنْ طلبتَه أعْنَتَك ، وإنْ طلبك أراحك) والحق سبحانه يُحدِّثن عن آية النوم في موضع آخر : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار } [الروم : 23] .

وهنا احتياط ومَلْحظ ، فإنْ كان النوم بالليل للسكن وللراحة ، فهناك مَنْ يعملون بالليل ، فينامون بالنهار كالحرّاس ورجال الشرطة والخبازين وغيرهم ، وهؤلاء لا مانعَ أن يناموا بالنهار ليسايروا حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : { والشمس والقمر . . . } [الأنبياء : 33] نعم هناك آيات أخرى كثيرة في كَوْن الله ، لكن أوضحها وأشهرها : الشمس والقمر فهما تحت المشاهدة {كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : 33] فالليل والنهار والشمس والقمر يدور كُلٌّ منهم خَلْف الآخر ويخلفه ، كما قال سبحانه : { وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً . . . } [الفرقان : 62] .

وكلمة { يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : 33] تعبير قرآني دقيق للأداء الحركي ، وهي مأخوذة من سبحة السمك في الماء حيث يسبح السمك في ليونة الماء بحركة انسيابية سهلة؛ لأن الحركة لقطع المسافات إما حركة إنسيابية ، وإما حركة قفزية .

وتلاحظ هاتين الحركتين في عقارب الساعة ، فلو لاحظت عقرب الثواني مثلاً لوجدّتَه يتحرّك حركة قفزية ، يعني : ينطلق من الثبات إلى الحركة إلى الثبات ، فالزمن فيه جزء للحركة وجزء للسكون .

أما عقرب الدقائق فيسير بحركة إنسيابية مستمرة ، كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة ، وهكذا تكون سُبْحة السمك ، ومنها قوله تعالى : { والسابحات سَبْحاً } [النازعات : 3] .

وكذلك تكون حركة الظل : { أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل . . . } [الفرقان : 45] وأيضاً حركة نمو الطفل ، فلو أدمْتَ النظر إلى طفلك الصغير لا تكاد تلاحظ عليه مظاهر النمو ، وكأنه لا يكبر أمام عينيك ، أمّا لو غِبْتَ عنه مثلاً عدة شهور يمكن أن تلاحظ نُموه؛ ذلك لأن النمو حركة مُوزّعة على كل ثانية في الزمن؛ لا أن النمو يتجمع ثم يظهر فجأة ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ . . . } .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34)

ذلك لأن الكفار حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم بإلقاء حجر عليه من مكان عالٍ وهكذا يتخلَّصون منه صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يتمنون ذلك ، فيخاطبه ربه : يا محمد لست بدعاً من الرسل { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ } [الزمر : 30] .

وهذه سُنَّة الله في خَلْقه ، بل موتك يا محمد لنسرع لك بالجزاء على ما تحمّلته من مشاقِ الدعوة ، وعناء الحياة الدنيا .

لذلك « لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموت قال : » بل الرفيق الأعلى « أما نحن فنتشبث بالحياة ، ونطلب امتدادها .

فقوله : { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد . . . } [الأنبياء : 34] فأنت كغيرك من البشر قبلك ، أما مَنْ بعدك فلن يخلدوا بعد موت { أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون } [الأنبياء : 34] فلا يفرحوا بموتك؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك . { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم . . . } .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35)

إذن : فالموت قضية كونية عامة ، وهي في حقيقتها خَيْر ، فإنْ كانوا أخياراً نُعجِّل لهم جزاءهم عند الله ، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ اللهُ منهم البلاد والعباد .

لكن ، كيف يُذَاق الموت؟ الذَّوْق هنا يعني إحساسَ الإنسان بالألم من الموت ، فإنْ مات فعلاً يستحيل أن يذوق ، أما قبل أن يموت فيذوق مقدمات الموت ، والشاعر يقول :

وَالأَسَى بَعْد فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ ... وَالأسَى لاَ يكُونُ قَبْلَ الفِرَاقِ

فعلى أيِّ شيء يحزن الإنسان بعد أن يموت؟ ولماذا الحزن قبل أن يموت؟

فالمراد – إذن – ذائقةُ مقدمات الموت ، التي يعرف بها أنه ميت ، فالإنسان مهما كان صحيحاً لا بُدّ أنْ يأتي عليه وقت يدرك أنه لا محالةَ ميت ، ذلك إذا بلغت الروح الحلقوم ، كما قال تعالى : { كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقي * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق } [القيامة : 26–28] فالموت في هذه الحالة أمر مقطوع به .

ثم يقول سبحانه : { وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً . . . } [الأنبياء : 35] أي : نختبركم ، والإبتلاء لا يُذَمُّ في ذاته ، إنما تذم غية الابتلاء : أينجح فيه أم يفشل؟ كما نختبر الطلاب ، فهل الاختبار في آخر العام شَرٌّ؟ لكن هل الحق سبحانه في حاجة لأنْ يختبر عباده ليعلم حالهم؟ الحق يختبر الخَلْق لا ليعلم ، ولكن ليقيم عليهم الحجة .

والمخاطب في { وَنَبْلُوكُم . . . } [الأنبياء : 35] الجميع : الغني والفقير ، والصحيح والسقيم ، والحاكم والمحكوم . . إلخ .

إذن : كلنا فتنة ، بعضنا لبعض : فالغنيّ فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغني ، كيف؟ الفقير : هل يصبر على فقره ويرضى به؟ هل سيحقد على الغني ويحسده ، أم يقول : بسم الله ما شاء الله ،

اللهم بارك له ، وأعطني من خَيْرك؟ والغني : هل يسير في ماله سَيْراً حسناً ، فيؤدي حقَّه وينفق منه على المحتاجين؟

وهكذا ، يمكنك أنْ تُجري مثل هذه المقابلات لتعلم أن الشر والخير كلاهما فتنة واختبار ، ينتهي إما بالنجاح وإما بالفشل؛ لذلك يقول بعدها : { وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء : 35] لنجازي كُلاّ على عمله ، فإنْ حالفك التوفيق فَلَكَ الأجر والمكافأة ، وإنْ أخفقت فَلَكَ العقوبة ، فلا بُدَّ أن تنتهي المسألة بالرجوع إلى الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ . . . } .

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36)

هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن واقعٍ حدثَ له مع الكفار : { وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً . . . } [الأنبياء : 36] و (إنْ) هنا ليست شرطية ، إنما للنفي كما في قوله تعالى : { الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ . . . } [المجادلة : 2] أي : ما أمهاتهم إلا اللائي ولَدْنهم .

فالمعنى : إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا هُزُواً ، أي : يهزأون بك ، لكن ما وَجْه الهُزْو هنا؟

قولهم : { أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ . . . } [الأنبياء : 36] أي : يعيبها ويسبُّها ، ويقول عنها : إنها باطلة ومعنى { أهذا . . . } [الأنبياء : 36] كأنهم يستقلّونه ، ويستقلّون أنْ يقول هذا عن آلهتهم .

والذكر قد يكون بالخير ، وقد يكون بالشر ، فإنْ ذكرك صديق تتوقع أنْ يذكرك بخير ، وإنْ ذكرك عدو تتوقع أنْ يذكرك بشرٍّ ، وطالما أن محمداً سيذكر آلهتهم ، فلا بُدَّ أنه سيذكرها بشرٍّ ، والشر الذي ذكره محمد عن آلهتكم أنها أصنام وحجارة لا تضرُّ ولا تنفع . { إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ . . . } [فاطر : 14] .

ثم يقول تعالى : { وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ } [الأنبياء : 36] فكيف تتعجبون وتغضبون أنْ يسُبّ محمد آلهتكم الباطلة ، وأنتم تسبُّون الإله الحق ، وتكفرون به ، ونلحظ أن السياق ذكر الضمير العائد عليهم مرتين : { وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ } [الأنبياء : 36] ليؤكد أن ذلك حدث منهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ . . . } .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

معنى : { مِنْ عَجَلٍ . . . } [الأنبياء : 37] أي : مُتعجِّلاً كأن في طينته عجلة ، والعجلة أن تريد الشيء قبل نُضْجه ، وقبل أوانه ، وقد يتعجَّل الإنسان الخير ، وهذا أمر جائز ، أما أنْ يتعجّل الشر فهذا هو الحمق بعينه والغباء ، ألم يقولوا لرسول الله : { وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [الأنبياء : 38] .

ألم يقولوا : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .

إذن : تعجَّل هؤلاء العذاب؛ لأنهم غير مؤمنين به ، لا يُصدِّقون أن شيئاً من هذا سيحدث؛ لذلك يردُّ عليهم : { سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37] وخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] .

أي : سنريك فيهم آياتنا ، وسترى ما وعدناهم من العذاب ، فإنْ قبضناك إلينا فسترى ما ينزل بهم في الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد . . . } .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)

وهذا استبطاء منهم لِوَعْد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأن سيُعذِّبهم بالنار التي تُنضج جلوددهم ، ويُبدِّلهم الله جلوداً غيرها . . إلخ؛ لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به ، وسبق أنْ قالوا لرسول الله : { أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً } [الإسراء : 92] .

ثم يقول تعالى : { لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ . . . } .

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39)

أي : لو يعلمون ما يحدث لهم في هذا الوقت حين لا يستطيعون دَفْع النار عن وجوههم ، وذَكر الوجه بالذات لأنه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها؛ لذلك إذا أصابك أذىً في وجهك تحرص على إزالته بيدك ، وأنت لم تفعل أكثر من أنك نقلْتَ الأذى من وجهك إلى يدك ، لماذا؟ لأن الوجه عزيز عليك ، لا تقبل إهانته ، ولا تتحمَّل عليه أيَّ سوء .

فقوله تعالى : { لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار . . . } [الأنبياء : 39] دلاَلة على إهانتهم { وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ . . . } [الأنبياء : 39] لأنها تأتيهم من كل مكان : { وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ . . }

[الأنبياء : 39] أي : لا يجدون مَنْ ينقذهم ، أو يأخذ بأيديهم ويدفع عنهم .
حتى الشيطان الذي أغواهم في الدنيا سيتبرأ منهم يوم القيامة ، ويقول : { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } [إبراهيم : 22] وأصرخه : أزال سبب صراخه ، والهمزة في أصرخه تسمى همزة إزالة ، تقول : صرخ فلان إذا وقع عليه ما هو فوق طاقته واحتماله ، فيصرخ صرخةً يستدعي بها مَنْ يغيثه ويُعينه ، فإنْ أجابه وأزال ما هو فيه فقد أصرخه ، يعني : أزال سبب صراخه . فالمعنى : لا أدافع عنكم ، ولا تدافعون عني ، ولا أنقذكم من العذاب ، ولاتنقذونني .
وفي موضع آخر : {كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّي بريىء مِّنكَ إني أَخَافُ الله رَبَّ العالمين } [الحشر : 16] فحظُّ الشيطان أنْ يُوقِعك في المعصية ، ثم يتبرأ منك .

فما جواب (لو) هنا؟ المعنى : لو يعلم الذين كفروا الوقت الذي لا يكفُّون فيه النار عن وجوههم ، ولا عن ظهورهم ولا يُنصرون لكفّوا عما يُؤدِّي بهم إلى ذلك ، وانتهَوْا عن أسبابه .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ . . . } .

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

أي : القيامة ، والبغتة : نزول الحدث قبل توقعه لذلك { فَتَبْهَتُهُمْ . . . } [الأنبياء : 40] من البهت : أي : الدهشة والحيرة ، فإذا ما باغتتهم القيامة يندهشون ويتحيرون ماذا يفعلون؟ وأين يفرون؟
والبغتة تمنع الاستعداد والتأهُّب ، وتمنع المحافظة على النفس . ومن ذلك ما كانوا يفعلونه أوقات الحروب من صافرات الإنذار التي تُنبِّه الناس إلى حدوث غارة مثلاً ، فيأخذ الناس استعدادهم ، ويلجئون إلى المخابئ ، أمَّا إن داهمهم العدو فجأة فلن يتمكنوا من ذلك ، ولن يجدوا فرصة للنجاة من الخطر .
ومن البَهْت قوله تعالى في قصة الذي حَاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربه : { فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . . } [البقرة : 258] .
وقوله : { وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ } [الأنبياء : 40] أي : لا يُمهَلُون ولا يُؤخَّرون ، فليست المسألة تهديداً وننصرف عنهم إلى وقت آخر ، إنما هي الأَخْذة الكُبْرى التي لا تُرَدُّ عنهم ولا تُؤخَّر .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . . } .

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41)

سبق أنْ خاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : { وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً . . } [الأنبياء : 36] لذلك يُسلّيه هنا : لست بدعاً من الرسل ، فَخُذْ هذه المسألة بصدر رَحْب ، فلقد استهزئ بالرسل من قبلك فلا تحزن ، فسوف يحيق بهم ما صنعوا ، ويجدون عاقبة هذا الاستهزاء .

كما جاء في قصة نوح عليه السلام : { وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ . . . } [هود : 38] فيردُّ نوح : { إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } [هود : 38] أي : انتظروا النهاية ، وسوف ترون!! .

ومعنى : { فَحَاقَ . . . } [الأنبياء : 41] أي : حَلَّ ونزل بقسوة { بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الأنبياء : 41] .

وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ } [المطففين : 29-31] أي : مسرورين فرحين ، وهذا دليل على لُؤْمهم ورذالة طباعهم ، فلم يكتفوا بالاستهزاء ، وإنما يحكونه وينبجحون به . { وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 32-36] .

هل استطعنا أنْ نُجازيهم بما عملوا؟ نعم يا ربّ .

ولا ننسى أن استهزاء الكفار بأهل الحق استهزاء موقوت بوقته في الدنيا ، أمّا استهزاء الله بهم فاستهزاء أبديّ لا نهايةَ له . ويجب هنا أن نتنبه لهذه المسألة ، فكثيراً ما يتعرض أهل الإيمان للاستهزاء وللسخرية من أهل الباطل ، وهؤلاء الذين يسخرون منهم لأجلهم يصون الله لهم الحياة ويدفع عنهم العذاب ، كما جاء في الحديث القدسي : « فلولا أطفال رُضَّع ، وشيوخ رُكّع ، وبهائم رُتَّع لصببتُ عليكم العذاب صباً » .

فحين ترى تقياً ، فإذا لم تشكره على تقواه وتقتدي به فلا أقلَّ من أنْ تدعه لحاله ، لا تهزأ به ، ولا تسخر منه؛ لأن في وجوده استبقاءً لحياتك وأَمْنِكَ ، وأقل ما يمكنك أنْ تُقيّم به التقى : يكفيك منه أن أمنتَ شرَّه ، فلن يعتدي عليك ، ولن ترى منه شيئاً يسؤوك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار . . . } .

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42)

أي : يرعاكم ويحفظكم ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يُجري مقارنة بين إنعامه سبحانه على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران ، أنتم تكفرون بالله وتُؤذُون الصالحين من عباده وتسخرون منهم ، وهو سبحانه الذي { يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار . . . } [الأنبياء : 42] أي :

كلاءة صادرة من الله الرحمن .
كما في قوله تعالى : { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . . } [الرعد : 11] فليس المراد أنهم يحفظونه من أمر الله الذي أراده الله فيه؛ لأن الحِفْظَ صادر من الله ، والحفَظة مكلّفون من قبله تعالى بحفظكم ، وليس تطوُّعاً منهم . وكلاءة الله لك وحفْظه إياك في النهار وفي الليل وأنت نائم عليك حَفَظة يحفظونك ، ويدفعون عنك الأذى .
وكثيراً ما نسمع أن بعض الناس قام من نومه فوجد ثعباناً في فراشه ، ولم يُصِبْه بسوء ، وربما فزع لرؤيته فأصابه مكروه بسبب هذا الخوف ، وهو لا يعلم أن الثعبان لا يؤذيه طالما أنه لم يتعرَّض له ، وهذا من عجائب هذه المخلوقات أنها لا تؤذيك طالما لا تؤذيها . إذن : لا أحدَ يرقبك ويحفظك في نومك مِمَّا يُؤذيك إلا الحق سبحانه .
وكلاءة الله لكم لا تقتصر على الحِفْظ من المعاطب ، فمن كلاءته سبحانه أن يمدّكم بمقوّمات الحياة ، فالشمس بضوئها ، والقمر بنوره ، والأرض بنباتها ، والسماء بمائها . ومع هذا تكفرون به ، وتسخرون من رسله وأهل طاعته؛ لذلك يقول بعدها : { بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء : 42] وما كان يصحّ أنْ يغيبَ ذِكْره تعالى عنهم .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا . . . } .

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

ألَهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله؛ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم ، وكيف ينصرون أنفسهم ، وهي أصنام من حجارة نحتها عُبَّادها على أشكال اختاروها؟ كيف ينصرون أنفسهم ، ولو أطاحت الريح بأحدهم لاحتاج لِمَنْ يرفعه ويقيمه؟
وقوله تعالى : { وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ } [الأنبياء : 43] كانوا قديماً في البادية ، إذا فعل أحدهم ذنباً ، أو فعل فَعْله في إحدى القبائل ، واحتاج إلى المرور عليهم في طريقه يذهب إلى واحد قويّ يصاحبه في مشواره ، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم ، كما في قوله تعالى : { وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ } [الشعراء : 14] .
فالمراد : يصحبه كي يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب ، فهؤلاء لن نكون في صُحْبتهم لننجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، لا هذه ولا تلك .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء وَآبَآءَهُمْ . . . } .

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44)

أي : أنهم مكثوا فترة طويلة من الزمن يتقلَّبون في نعَم الله ، لكن انظروا ماذا حدث لهم بعد ذلك ، فخذوا منهم عبرةً : { أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا . . } [الروم : 9] .

ومع ذلك أُخذوا أَخْذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : { أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } [الأنعام : 6] .

ثم يقول سبحانه : { أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ . . . } [الأنبياء : 44] .

وفي موضع آخر : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب } [الرعد : 41] .

وهذه آية من الآيات التي وقف عندها بعض علماءنا من النبيين من بعمليات القرآن ، فلما أعلن العلماء أن الأرض بيضاوية ، لشكل ، وليست كاملة الاستدارة ، يعني : أقطارها مختلفة بالنسبة لمركزها ، سارع بعضهم من منطلق الغَيْرة على دين الله ومحاولة إثبات صِدْق القرآن ، وأنه سبق إلى ذِكْر هذه المسألة فقالوا : لقد ذكر القرآن هذا الإكتشاف في قوله تعالى : { أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ . . . } [الأنبياء : 44] يعني : من ناحية خط الاستواء ، لا من ناحية القطبين .

وغفل هؤلاء أن الآية تقول : { نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ . . } [الأنبياء : 44] لا من طرفها ، فالنقص من جميع الأطراف ، فمِثْل هذه الأقوال تفتح الباب للطعن في القرآن والخوْض فيه .

ونتساءل { أَفَلاَ يَرَوْنَ . . . } [الأنبياء : 44] رأي هنا علمية أم بصرية؟ لو قلنا : إنها بصرية فهذه ظاهرة لم تُعْرَف إلا في القرن العشرين ، ولم ينتبه لها أحد قبل ذلك ، إذن : فهي ليست بصرية . وأيضاً ليست علمية ، فلم تصل هذه المعلومة إلى هؤلاء ، ولم يكُنْ العرب حينذاك أمةَ علم ، ولا أمة ثقافة ، ولاشيء من ذلك أبداً . فإذا ما استبعدنا هذا التفسير ، فما المعنى المناسب؟

نقول : إنْ كانت رأي بصرية ، فقد رأوا هذه الظاهرية في الأمم السابقة ، وقد كانوا يصادمون دين الله ويحاربونه؛ لأنه جاء ليقضي على سلطتهم الزمنية ، ويجعل الناس سواء ، ومع ذلك كان الدين ينتشر كل يوم وتزيد رقعته وتقلّ رُقعة الكفر .

فالمعنى : ننقص أرض الكفر إما من الناس ، أو من العمائر التي تُهدم وتخرب بالزلازل والخسف وغيره ، فننقص الأرض ، وننقص الناس ، وننقص مظاهر العمران في جانب الكفر ، وهذا النقص هو نفسه الزيادة في أرض الإيمان . وهذه الظاهرة حدثت في جميع الرسالات .

فإنْ قال قائل : كيف نقبل هذا التفسير ، وزيادة أرض الإيمان لم تحدث إلا بعد الهجرة ، والآية

مكية؟ تقول : كَوْن الآية مكية لا يقدح في المعنى هنا ، فليس من الضروري أن يَروْا ذلك في أنفسهم ، ويكفي أنْ يروها في الأمم السابقة ، كما جاء في قوله تعالى :

{ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137] .

وقال : { وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد } [الفجر : 9-12] .

وإن اعتبرنا (رأي) علمية ، فقد علموا ذلك من أهل الكتاب مِمَّنْ تحالفوا معهم ، فما حدث للأمم السابقة سيحدث لكم .

وقوله تعالى : { أَفَهُمُ الغالبون } [الأنبياء : 44] يعني : أفلم يشاهدوا أنَّا ننقص الأرض من أطرافها ، أم أن هذا لم يحدث ، وهم الغالبون؟ أيهما الغالب : رسل الله ، أم الكافرون؟ الإجابة أنهم غُلِبوا واندحروا ، فقال تعالى : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 173] وقال : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا . . . } [غافر : 51]

ويخاطب الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم : { قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بالوحي . . . } .

قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45)

أي : أن رسول الله ما أبلغكم بشيء من عند نفسه ، إنما كل ما جاء به من وعد ووعيد فهو من عند الله ، وأنتم أنفسكم تؤكدون على بشريته ، نعم هو بشر لا يعلم شيئاً كما تقولون ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، إنما ربه يوحي إليه .

فلو قال محمد : إنما أنذركم . . لكان لكم حق أنْ تتشكَّكوا ، إنما القائل هو الله ، وأنا مجرد مُبلِّغ عن الله الذي يملك أعِنَّة الأحداث ، فإذا قال بوجود حدث فلا بُدَّ أنْ يقع .

ثم يقول تعالى : { وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعآء إِذَا مَا يُنذَرُونَ } [الأنبياء : 45]

وحاسّة السمع هي أول معلوميات الإنسان ، وأول حواسه عملاً ، وقبل أن يتكلم الطفل لا بُدَّ أنْ يسمع أولاً ، لينطق ما سمعه؛ لأن السمع هو الإدراك الأول المصاحب لتكوين الإدراكات ، والأذن - كما قلنا - تسبق العين في أداء مهمتها .

لذلك قدّمه الحق سبحانه ، فقال : { إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء : 36] .

والسمع هو الآلة التي لا تتعطّل عن مهمتها ، حتى ولو كان الإنسان نائماً؛ لأن به يتم الاستدعاء؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ضرب على آذانهم ، وعطّل عندهم حاسة السمع حتى لا تُزعجهم أصوات الطبيعة خارج الغار ، فقال : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11] .

ومعنى : { وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعآء . . . } [الأنبياء : 45] صحيح أنهم يسمعون ، وآلة السمع عندهم صالحة للعمل ، إلا أنه سماعٌ لا فائدة منه ، ففائدة السمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك ، فإذا لم تستجِبْ فكأنك لم تسمع ، وإذا أمرت العامل مثلاً بشيء فتغافل عنه تقول له : أأنت أطرش؟ ولذلك سماهم القرآن : صُماً .

وقوله تعالى : { إِذَا مَا يُنذَرُونَ } [الأنبياء : 45] أي : لَيْتهم يتغافلون عن نداء عادي ، إنما يتغافلون وينصرفون { إِذَا مَا يُنذَرُونَ } [الأنبياء : 45] حين يُخوّفهم عذاب الله ، والإنذار والتحذير أَوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به ، ففيه مصلحته ، ومن الغباء ألاَّ يهتم به ، كما لو أنذرتَ إنساناً وحذَّرْتَه من مخاطر طريق ، وأن فيه ذئاباً أو أُسُوداً أو ثعابين أو قطاعَ طريق ، فلا يهتم بكلامك ، ولا يحتاط للنجاة بنفسه .

وقلنا : إن الإنذار : أنْ تخبر بشرٍّ قبل أوانه ليستعد لتلافيه ، لا أنْ تنذره ساعة الحادث فلا يجد فرصة .

إذن : المسألة ليست طبيعية في التكوين ، إنما توجيه إدراكات ، كأنْ تكلِّم شخصاً في أمر لا يعجبه ، فتجده « أذن من طين ، وأذن من عجين » ينصرف عنك كأنه لم يسمع شيئاً ، كأحدهم لما قال لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السر؟ قال : نعم سِرُّك في بير ، قال : أعطني عشرة جنيهات ، فردَّ عليه : كأنِّي لم أسمع شيئاً!!!

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ . . . } .

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46)

الآن فقط تنبهتم ووَعَيْتُم؟ الآن بعد أن مسَّكم العذاب؟

ومعنى : { مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ . . . } [الأنبياء : 46] أي : مساً ولمساً خفيفاً ، والنفخة : هي الريح اللينة التي تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها ، كأن تحمل لك الريحُ رائحة الورود مثلاً ، هي لا تحمل لك الوورد نفسها ، إنما رائحتها ، وتظل الورود كما هي .

كذلك هذه المسَّة من العذاب ، إنها مجرد رائحة عذاب ، كما نقول لفح النار الذي نشعر به ، ونحن بعيدون عنها .

والنفحة : اسم مرَّة أي : تدل على حدوثها مرة واحدة ، كما تقول : جلس جَلسة أي : مرة واحدة ، وهذا أيضاً دليل على التقليل . (فمسَّتْهُمْ) تقليل و (نَفْحَة) تقليل ، وكونها مرة واحدة تقليل آخر ، ومع ذلك يضجُّون ويجأرون ، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته ، وهو عذاب أبديّ؟!

وقوله تعالى : { لَيَقُولُنَّ ياويلنآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 46] الآن ينطقون ، الآن يقولون كلمة الحق التي طالما كتموها ، الآن ظهرتْ حساسية الإدراك لديهم ، فمن أقلِّ القليل ومن

رائحة العذاب يجأؤون ، وأين كان هذا الإدراك ، وهذه الحساسية من قبل؟ إذن : المسألة – كما قلنا – ليست طبيعة تكوين ، إنما توجيه إدراكات .

وقولهم : { ياويلنآ . . . } [الأنبياء : 46] إحساس بما هم مُقبلون عليه ، وهذا القول صادر عن مواجيد في النفس وفي الذِّهْن قبل أن ينطق بالكلمة ، ثم يُقرُّون على أنفسهم ويعترفون : { إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 46] . { وَنَضَعُ الموازين . . . } .

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)

نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول ، وعدم الإيمان بالوحي ، وصَمِّ آذانهم عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط ، فلماذا هذه النَّقْلة؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذي قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم ، وأن كل شيء محسوب ، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى ، وكأنه ينصحهم ، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتكم .

وكلمة (موازين) جمع : ميزان ، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها ، لأن التقدير يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس . . الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن – تقريباً – في باريس ، وكذلك الياردة . وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل . . إلخ .

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعةً من الحجارة تساوي كيلو مثلاً ، ويستعملونها في الوزن؛ لأن لها مرجعاً ، لكن هذه القطعة تتآكل من كثرة الاستعمال ، فلا بُدَّ من تغييرها .

وهنا تكلَّم عن الشيء الذي يوزَن ، ولم يذكر المعايير الأخرى ، قالوا : لأن الأشياء التي لها كثافة هي الأكثر ، وكاوا يختبرون الأولاد يقولون : كيلو الحديد أثقل ، أم كيلو القطن؟ فالولد ينظر إلى القطن فيراه هَشّاً مُنتفِشاً فيقول : القطن ، والقطن أزيد من الحديد في الحجم ، لكن كثافته يمكن أن تستطرق ، فنُرقِّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض . إذن : العُمْدة في التقدير : الثقل .

وفي موضع آخر قال تعالى : { والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان } [الرحمن : 7] فهل هي موازين متعددة ، أم هو ميزان واحد

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة ، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره ، بل في وقت واحد؛ لذلك لما سُئِل الإمام على – كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسب الله الخَلْق جميعاً في وقت واحد؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد . فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه .

والقِسْط : صفة للموازين ، وهي مصدر بمعنى عدل ،كما تقول في مدح القاضي : هذا قاضٍ عادل . أي : موصوف بالعدل ، فإذا أردتَ المبالغة تقول : هذا قاضٍ عَدْل ،كأنه هو نفسه عَدْل أي (معجون بالعدل) ؛ لذلك نقول في أسماء الحق سبحانه : الحكم العدل . ولا نقول : العادل .

وهذه المادة (قسط) لها دور في اللغة ، فهي من الكلمات المشتركة التي تحمل المعنى وضده ، مثل (الزوج) تُطلق على الرجل والمرأة ، و (العَيْن) تطلق على العين : العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وعلى الذهب والفضة .

كذلك (القِسْط) نقول : القِسْط بالكسر مثل : حِمْل بمعنى العدل من قَسَط قِسْطاً . ومنه قوله تعالى : { إنَّ الله يُحِبُّ المقسطين } [المائدة : 42] ونقول : القَسْط بالفتح يعني : الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً ، ومنه قوله تعالى : { وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً } [الجن : 15] أي : الجائرون الظالمون .

والقِسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية ، لكن أقسط يعني كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل في الاستئناف .

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى : { ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . . } [الأحزاب : 5] فأقسط هنا : أفعل تفضيل ، تدل على أن حكم محمد صلى الله عليه وسلم في مسألة زيد كان عَدْلاً وقِسْطاً ، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل .

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله ، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله ، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد .

إذن : الحق سبحانه عدل لرسوله ، لكن عدل له العدل لا الجوْر ، وعَدْل الله أَوْلى من عدل محمد لذلك قال : { أَقْسَطُ عِندَ الله . . . } [الأحزاب : 5] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل .

وقوله تعالى : { ادعوهم لآبَآئِهِمْ . . } [الأحزاب : 5] جاء ليبطل التبني؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد في الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة في شرع الله لا تستقيم في وجود هذه المسألة ، وإلاّ فكيف سيكون حال الأسرة حين يكبر المتبنّي ويبلغ مَبْلَغ الرجال؟ وما موقفه من الزوجة ومن البنت ، وهو في الحقيقة غريب عن الأسرة؟

ومسألة الموازين هذه من المسائل التي وجد فيها المستشرقون تعارضاً في ظاهر الآيات ، فجعلوا منها مَأخَذاً على كتاب الله ، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين : { وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة . . . } [الأنبياء : 47] وقوله تعالى : { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً } [

الكهف : **105**] حيث أثبت الميزان في الأولى ، ونفاه في الثانية .
وقلنا : إن هؤلاء معذورون؛ لأنهم لا يملكون الملكة اللغوية التي تمكّنهم من فَهْم كلام الله . ولو تأملنا اللام في { نُقِيمُ لَهُمْ . . . } [الكهف : **105**] لا نحلّ هذا الإشكال ، فاللام للملك والانتفاع ، كما يقولون في لغة البنوك : له وعليه . والقرآن يقول : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . } [البقرة : **286**] .
فالمعنى : { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً } [الكهف : **105**] أي : وزناً في صالحهم ، إنما نقيم عليهم وندينهم . كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل في اللغة إمَّا لوزن الماديّ ، أو لوزن المعنى ، كما نقول : فلان لا وَزْنَ له في الرجال .
وعلى هذا يكون المعنى : أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومادتهم ، إنما الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة في قصة ابن نوح عليه السلام : { قَالَ يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . } [هود : **46**] .
فالنبوة هنا بُنُوّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .
وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم في الآخرة ، كما كانت لهم في الدنيا ، كما جاء في قصة صاحب الجنتين الذي قال لأخيه متباهياً مفتخراً . { أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً }

[الكهف : **34-36**] .
لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ في الآخرة ، فالوزن في القيامة للأعمال ، لا للأعيان .
إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم ، إنما نزن أعمالهم؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقرابته : « لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأحسابكم » .
وقال صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة بنت محمد اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمة لها في هذا الموقف .
وقوله تعالى : { فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً . . . } [الأنبياء : **47**] مع أن القاعدة : { فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ . . } [البقرة : **194**] وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به ، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه : ساحر ، وكاذب ومجنون ، ومع ذلك فلن نردّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم .
وقوله تعالى : { وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا . . . } [الأنبياء : **47**] والخردل : مثال للصِّغَر ، للدلالة على استقصاء كل شيء ، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمي للكيلو ، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوياً في الوزن ، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن ، وقد أتى بها القرآن

منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

ومعنى : { أَتَيْنَا بِهَا . . . } [الأنبياء : 47] أي : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله لا يظلمهم ، ويبحث لهم عن أقلّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصي كل شيء في الحساب ، وحَبّة الخردل تدل على صِغَرها على الجحم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها الحجم والوزن .

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة : { وكفى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء : 47] فلا أحد يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضبَطْ لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزِنَ الوزن المضبوط؛ لأن المعيار الحديد الذي تزن به عُرْضة في استعماله للزيادة أو النقصان .

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضيئلاً ، وهذا في صالح الموزون له ، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعةً على خلاف ما حولها . إذن : أي ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتى في الموازين الحديثة التي تضمن لك أقصى درجات الدقة فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية ، وهذا معنى { وكفى بالله حَسِيباً } [الأحزاب : 39] { وكفى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء : 47] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى . . . . } .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48)

يريد الحق – تبارك وتعالى – أن يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم ويُخفِّف عنه مَا لاقاه من قومه ، فيذكر له نماذج من إخوانه أُولِي العزم من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم ، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته ، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه .

فبدأ بموسى – عليه السلام – لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا في دعوتهم ، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به ، فقال سبحانه : { وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان . . . } [الأنبياء : 48] لأن رسالتهما واحدة ، وهم فيها شركاء : { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً . . . } [القصص : 34] وقال : { اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي } [طه : 31-32] .

والفرقان : هو الفارق القوي بين شيئين؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى ، كما تقول : غفر الله لفلان غفراناً ، وتقول : قرأت قراءة ، وقرأة قرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا

كل كتاب يُقرأ .
والفرقان من أسماء القرآن : { تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [الفرقان : 1] .
فالفرقان – إذن – مصدر يدلُّ على المبالغة ، تقول : فرَّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة في المعنى ، وأن الفَرْق في هذه المسألة فَرْق جليل وفَرْق واضح؛ لأن كونك تُفرِّق بين شيئين يترتب على ذلك خطورة في تكوين المجتمع وخطورة في حركة الحياة ، فهذا فرقان؛ لذلك سَمَّي القرآن فرقاناً؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .
ومن الفرقان ، قوله تعالى : { يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . . } [الأنفال : 29] وتقوى الله لا تكون إلا بتنفيذ أوامره وتعاليمه الواردة في القرآن الذي نزل على محمد ، والفرقان هنا يعني : نور تُفَرّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .
وعلى قَدْر ما تتقي الله باتباع الفرقان الأول يجعل لكم الفرقان الثاني ، وتتكوَّن لديكم فراسة المؤمن وبصيرته ، وتنزل عليكم الإشراقات التي تُسعِف المؤمن عندما يقع في مأزق .
ألاَ تراهم يقولون : فلان ذكي ، فلان حاضر البديهة . أي : يستحضر الأشياء البعيدة وينتفع بها في الوقت الحاضر ، وهذا من توفيق الله له ، ونتيجة لبصيرته وفراسته ، وكانت العرب تضرب المثل في الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر :
إقْدامُ عَمْرٍو في سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... في حِلْمِ أَحنفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ
ويُرْوَى أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله في آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثوري يتناوله ونتقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العم ، وأريد أنْ أراه مصلوباً في مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثوري يقيم بها في جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدلِّلان الثوري ويعتزان به .
وفي يوم كان الثلاثة في المسجد والثوري مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه في حِجْر أحدهما ، ورِجلْيهْ في حِجْر الآخر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفضيل للشيخ الثوري : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكَّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يَضعف اعتقاد الناس في المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثوري : والذي نفسي بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثوري .
هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذي يرى بنور الله ، ولا يصدر في أمر من أموره

إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدي الخليفة العباسي أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحي والهَيْبة والوقار ، والصبي يُلْقِي عليهم درساً ، فتعجب المهدي وقال : أُفٍّ لهذه السعانين يعني الذقون ، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم؟! ثم دنا من الصبي يريد أن يُقرّعه ويؤنّبه فقال له : كم سِنّك يا غلام؟ فقال الصبي : سني سِنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدي – معترفاً بذكائه وأحقيقته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان – إذن – لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصضبح عَلَماً على القرآن ، فهناك بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمّا إنْ سُمّي به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل في مادة (فَرَق) في القرآن يجد أن لها دوراً في قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر . . . } [البقرة : **50**] .

والفَرْق أنْ تفصل بين شيء مُتصل مع اختلاف هذا الشيء ، وفي علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهي مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

إذن : ففَرْق البحر لموسى – عليه السلام – ليس فَرْقاً بل فرقاناً ، لأن أعظم ألوان الفروق أن تَفرِق السائل إلى فِرْقيْن ، كل فِرق كالطود العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله؟

ثم يقول تعالى : { وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ } [الأنبياء : **48**] أي : نوراً يهدي الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب ، وإلاَّ فكيف يسيرون في دروب الحياة؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتطحم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، فالضياء – إذن – هام وضروري في مسيرة الإنسان ، وبه يهتدي لحركة الحياة الآمنة ويسعي على بينة ، فلا يَتْعب ، ولا يُتعِب الآخرين .

{ وَذِكْراً . . . } [الأنبياء : **48**] أي : يذكِّر ويُنبِّه الغافلين ، فلو تراكمتْ الغفلات تكوَّنَ الران الذي يحجب الرؤية ويُعمى البصيرة ، لذلك لما شبه النبي صلى الله عليه وسلم غفلة الناس قال : « تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً » .

وفي رواية « عوذاً عوذاً » أي يستعيذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صانع الحصير حينما يضمُّ عُوداً إلى عُود حتى يُكوِّن الحصير؟ كذلك تُعرَض علينا الفتن ، فإنْ جاء التذكير في البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

« فأيُّما قلب أُشْرِبها – يعني قَبلَها – العود تلو العود – نُكتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأيُّما قلب

أنكرها نُكتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون على قلبين – صدق رسول الله – على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ، ما دامت السماوات والأرض . أو على أسود كالكوز مُجَخِّياً – يعني منكُوساً – لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً » .

قالوا : فذلك هو الرَّانُ الذي يقول الله فيه : { كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } [المطففين : **14**] والذكر هو الذي يُجلِّي هذا الران .

{ وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ } [الأنبياء : **48**] ومن صفاتهم أنهم : { الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب . . . }

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)

الخشية : الخوف بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شيء وأنت تكرهه أو تحتقره . فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذ كأن يراك مُقصِّراً ، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير . فمعنى الخوف من الله : أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلِب منك ، وفيما كلَّفك به؛ لأن مقاييسه تعالى عالية ، وربما فاتكَ من ذلك شيء .

وفي موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول : { إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . . } [فاطر : **28**] لماذا؟ لأنهم الأعلم بالله وبحكمته في كونه ، وكلما تكشَّفَتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية ، ومنه مهابة وإجلالاً؛ لذلك قال عنهم : { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ . . . } [النحل : **50**] أي : أعلى منهم وعلى رؤوسهم ، لكن بحُبٍّ ومهابة .

ومعنى : { بالغيب . . . } [الأنبياء : **49**] أنهم يخافون الله ، مع أنهم لا يروْنه بأعينهم ، إنما يَرَوْنَه في آثار صُنْعه ، أو بالغيب يعني : الأمور الغيبية التي لا يشاهدونها ، لكن أخبرهم الله بها فأصبحت بَعْد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم في خَلَواتِهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى في خَلْوتهم وانفرادهم ، على خلاف مَنْ يُظهِر هذا السلوك أمام الناس رياءً ، وهو نمرود في خَلْوته .

وقوله تعالى : { وَهُمْ مِّنَ الساعة مُشْفِقُونَ } [الأنبياء : **49**] والإشفاق بمعنى الخوف أيضاً ، لكنه خَوْفَ يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوب بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقوْنَه . { وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . . } .

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50)

أي : كما جاءت التوراة { ذِكْراً . . . } [الأنبياء : **48**] كذلك القرآن الذي نزل عليك يا محمد (ذكر) ، لكنه { ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . } [الأنبياء : **50**] يقولون : هذا شيء مبارك يعني :

فيه البركة ، والبركة في الشيء أنْ يعطي من الخير فوق ما يتوقع فيه .
كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسقي صحابته من قَعْب واحد من اللبن ، ويُطعِم الجيش كله من الطعام اليسير القليل . وتسمعهم يقولون : فلان راتبة ضئيل ، ومع ذلك يعيش هو وأولاده في كذا وكذا فنقول : لأن الله تبارك له في هذا القليل .
فمعنى { ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . . } [الأنبياء : 50] أي : فيه من الخير فوق ما تظنون ، فإياك أنْ تقولوا : إنه كتاب أحكام وتكاليف فحسْب ، فالقرآن فيه صفة الخلود ، وفيه من الأسرار ما لا ينتهي ، فبركته تشمل جميع النواحي وجميع المجالات إلى أنْ تقوم الساعة . فمهما رددنا آياته نجدها جميلة مُوحِية مُعبّرة . فكل عصر يأتي بجديد ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقَضي عجائبه فهو مبارك لأن ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وكل العصور والأعمار والقرون فيعطي كل يوم سراً جديداً من أسرار قائله سبحانه .
إذن : فالقرآن { ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . . } [الأنبياء : 50] لأن ما فيه من وجوه الخير سيتجاوز العصر الذي نزل فيه ، ويتجاوز كل الأعمار وكل القرون ، فيعطي كل يوم لَوْناً جديداً من أسرار قائله والمتكلِّم به؛ لذلك يتعجّب بعدها من إنكار القوم له : { أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } [الأنبياء : 50] أَمِثْل هذا الكلام يُنكر؟
وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم في القرآن .
منهم مَنْ قال : سحر . ومنهم من قال : شعر . ومنهم من قال كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس في الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .
ألم يقولوا هم أنفسهم : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] إذن : هم يعرفون صِدْق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه في شيء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفي هذا دليل على أنهم ليست عندهم يقظة في تغفيلهم .
وتأمل : { وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . } [الأنبياء : 50] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن . { وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ . . . } .

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51)

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله صلى الله عليه وسلم بذِكْر طرف من قصة موسى ، ثم ثنَّى بقصة إبراهيم ، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى ، فلماذا؟ لأن موسى له صِلَة مباشرة باليهود وقريب منهم ، وكان اليهود معه أهلَ جَدَل وعناد .
ومعنى { رُشْدَهُ . . . } [الأنبياء : 51] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل في الصلاح والأعلى في الخير ، بحيث لا يأتي بعد الصلاح فسادٌ ، ولا بعد الخير شر ، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط ، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يحرِّك الصلاح الظاهر إلى فساد ، أو يُسلِمَك اليخر إلى شر

، فليس في ذلك رُشْدٌ .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنّ جميل . . سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميل ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شيء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدِي من مفاتنها وحركاتها ما لا تُحسنه زوجته في البيت؟ كم بيوت خَربَتْ وأُسرَ تهدمت بسبب راقصة ، فأيُّ رقيٍّ؟ وأيُّ جمال في هذا الفن؟!

لذلك؛ فالإمام علي – كرَّم الله وجهه – لخَّص هذه المسألة فقال : « لا شَرَّ في شَرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ في خير بعده النار » .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذي هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّي كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سِنِّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح في الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق – سبحانه وتعالى – فنأكل الثمرة ونستبقي نوعها ببذرتها الصالحة ، أما لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجَتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها في الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلّفك قبل البلوغ لوجدتَ في التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التي لا تعرفها ولا تدركها ، وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربّ وقد جاءتني هذه الغريزة ففعلتْ بي كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز في جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل في المرحلة التي لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه في صِغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبر واستطاع أنْ يُنَظِّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى ، رُشْد فكري معنوي ، رُشْد يستوي فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهْنُ الذي

يختار ويُفَاضل بين البدائل ، فقد يكتمل للمرء رُشْد البُنياني الجسماني دون أنْ يكتملَ عقله وفِكْره ، وفي هذه الحالة لا تُمكِّنه من التصرف حتى تختبره ، لنعلم مدى إحسانه للتصرف فيما يملك ، فإنْ نجح في الاختبار فَلْنُعْطِه المال الذي له ، يتصرف فيه كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى : { وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . . . } [النساء : 6] أي : لا تنتظر حتى يكبر ، ثم تعطيه ماله ، يفعل فيه ما يشاء دون خِبْرة ودون تجربة ، إنما تختبره وتَشْركه في خِضَمِّ الحياة ومعتركها ، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم .

وفي آية أخرى قال تعالى : { وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ . . . } [النساء : 5] لأنهم إن بلغوا الرشْد البدنيّ فلم يبلغوا الرُّشد العقلي ، وإياك أن تقول : هو ماله يتصرف فيه كما يشاء ، فليس للسفيه مال بدليل : { وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ . . . } [النساء : 5] ولم يقُلْ : أموالهم ، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك ، وأنت مسئول عنه أمام الله ، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه .

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشُدّ : { حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ . . . } [الأحقاف : 15] .

والأشُدُّ هو : التسامي في الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سِنِّ البلوغ في الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أَوْلَى به؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق في عنفوانه شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين فما عذره؟

وإذا لم يتلقَّ مبادئ الرُّشْد في صِغَره وفي شبابه ، فلا شَكَّ أنه سيجد في أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ، حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغي أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً في الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون « الرشد السياسي » ويقولون « ترشيد الاستهلاك » ، ما معنى هذه المصطلحات؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد في مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجأتْهم إلى التفكير في ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل في ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشي ، حتى أصبحنا لا نجده؛ لذلك بدأنا في ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصِرْنا نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتبقى يتبقى نظيفاً نأكله في وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه فتجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتي ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرِج منه هذه البابة ، وتجمعها

ثم تُحمِّصها في الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .
وما يقال في « ترشيد الخبز » يقال في « ترشيد الماء » ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى في الوضوء الذي هو قربي إلى الله .
هذا الرُّشْد الذي وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدي إلى قضايا حياته ، ويتصرّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح في الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .
قال تعالى في حَقِّ إبراهيم عليه السلام : { وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ . . . } [الأنبياء : 51] وكأن رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل في النجوم ويبحث عن ربه : { فَلَمَّآ رَأَى القمر بَازِغاً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين * فَلَماَّ رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ ياقوم إِنِّي برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ } [الأنعام : 77–78] .
فكان – عليه السلام – مُؤهّلاً للرسالة منذ صِغَره ، ولما أُرسل ونُبِّيء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقِي في النار ، وجاءه جبريل – عليه السلام – يعرض عليه المساعدة ، فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . وهذه أول بشائر الرشد الفكري والعقدي عند إبراهيم .
وفي حَقِّه قال تعالى : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . } [البقرة : 124] أي : اختبره في أشياء فأتمهُنَّ وأتى بِهِنّ على أكمل وجه ، منها : أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت ، وكان يلفي أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه ، فيفكر ويحتال في أنْ يأتيَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر ، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة ، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه ، فيحتال على هذا الأمر فيحفر في الحجر على قَدْر قدميه حتى يثبت ، وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن في حِجْر إسماعيل .
إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .
وقوله تعالى : { وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } [الأنبياء : 51] هذا واضح في قوله تعالى : { الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . } [الأنعام : 124] . { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ . . . } .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)

أي : اذكر يا محمد ، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه { مَا هذه التماثيل . . . } [الأنبياء : 52] .
والتماثيل : جمع تمثال ، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل ، ومِثْل الشيء يعني : شبيهه ونظيره ، وكانوا يعمدون إلى الأشياء التي لها جِرْم ويُصورّونها على صورة أشياء مخلوقة لله تعالى ، كصورة

الإنسان أو الحيوان ، من الحجر أو الحديد أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً ، ويُقيمونه ليعبدوه .

وكانوا يبالغون في ذلك : فهذا من الحجر ، وهذا من المرمر ، وهذا صغير ، وهذا كبير ، وقد يضعون في عينيه خرزتين ليظهر للرائي أن له نظراً ، وهي ألوان من التفنن في هذه الصناعة .

فإبراهيم – عليه السلام – يقول مستنكراً لأبيه وقومه { مَا هذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } [الأنبياء : 52] .

فالاستفهام هنا على غير حقيقته ، بل هو استفهام إنكاري يحمل لهجة الاستهزاء والسخرية والتقريع ، ولا بد أنه ألقى عليهم هذا السؤال بشكل أدائي يُوحي بالتقريع .

وسبق أنْ تحدّثنا في معنى (أبيه) هنا وقلنا : المراد عَمُّه ، بدليل قوله في موضع آخر : { لأَبِيهِ آزَرَ . . . } [الأنعام : 74] فقد بدأ المسألة بأبيه أو عمه ، وهو أقرَبُ الناس إليه ، يريد أن يطمئنَ الناسُ إلى ما يدعو إليه ، وأنه خير ، وإلا ما بدأ بأبيه .

وأيضاً لأن القوم قد لا يكونُ لهم في نفسه تأثير هَيْبة أو حُبٍّ إنما الهيبة والحب موجود بالنسبة لأبيه أو لعمه ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الهيبة أنْ يُسفِّه كلامهم وأفعالهم الباطلة ، كما جاء في قول الله تعالى : { قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقترفتموها وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [التوبة : 24] .

وقد وقف المفسرون عند اللام في قوله تعالى : { لَهَا عَاكِفُونَ } [الأنبياء : 52] مع أن المعنى : يعكفون على عبادتها ، كما جاء في آية أخرى : { فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ . . . } [الأعراف : 138] وهنا جاءت باللام؛ لذلك قال بعضهم : اللام هنا بمعنى على ، فلماذا عدَل عن علي إلى اللام؟

ولو تنبَّهنا لمعطيات الألفاظ { لَهَا عَاكِفُونَ } [الأنبياء : 52] نقول : الاعتكاف : هو الإقامة . فلان عاكف في المسجد يعني : على الإقامة في المسجد ، فكلمة عاكفون وحدها تعطي معنى (على) أي : لصالح هذه الآلهة . أمّا اللام فلشيء آخر ، اللام هنا لام الملكية والنفعية . وذكروا لها مثالاً آخر في قوله تعالى : { يَوْمَ نَطْوِي السمآء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ . . . } [الأنبياء : 104] .

السِّجل هو : القرطاس والورق الذي نكتب فيه ، ومنه قولهم : نُسجِّل كذا يعني : نكتبه في السِّجل أو الورق لتحفظ ، ومعنى { لِلْكُتُبِ . . . } [الأنبياء : 104] يعني : الشيء المكتوب ، فكأن المعنى : نطوي الورق على ما كُتِب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا . . . } .

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53)

إذن : لا حُجَّة لهم في عبادتهم لهذه التماثيل التي صنعوها وأقاموها بأنفسهم ، إلا أنهم رَأَوْا آباءهم يعبدونها ، فحُجَّتهم التقليد الأعمى ، ولو كان عندهم حجة لذاتية العمل لَقالُوها .
وفي موضع آخر قالوا : { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } [الزخرف : 23] إذن : نعيب عليهم هذا التقليد ونعيب على آبائهم أيضاً ، فكيف يكون رَدُّ إبراهيم إذن؟
وكلمة { عَابِدِينَ } [الأنبياء : 53] هنا تعبير عن أن عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم ، لأن العبادة طاعة عباد لأوامر معبوده ، فبماذا أمرتهم الأصنام؟
ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم أنه قال لقومه : { قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ . . . } .

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54)

أراد أنْ يُرشِّد هذا السِّفَه فقال : أنتم في ضلال؛ لأنكم قلّدتم في الإيمان ، والإيمان لا يكون بالتقليد ، وآباؤكم لأنهم اخترعوا هذه المسألة وسَنُّوهَا لكم .
ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم في هذه المسألة بالذات دون غيرها ، وإلاَّ فَمن الذي يظل على ما كان عليه أبوه ، ونحن نرى كُلَّ جيل يأتي بجديد مِمَّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السابق .
لذلك يقولون : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فلكُل زمن وَضْعه وارتقاءاته ، وأنت تتحكم في ولدك ما دام صغيراً ، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْب ما تحب أنت ، فإذا ما شبَّ وكَبِر صارتْ له شخصيته الخاصة وفِكْره المستقِلّ ، فيختار هو مَأكله ومَلْبسه ، والكلية التي يدخلها ، وربما انتقدكَ في بعض الأمور .
إذن : هؤلاء قلَّدوا آباؤهم في هذه المسألة دون غيرها ، فلماذا مسألة الإيمان بالذات تتمسَّكون فيها بالتقليد؟ ولو أن كُلَّ جيل جاء صورة طِبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة ، ففي هذا دلالة على أن لكل جيل ذاتيته المستقلة وفِكْره الخاص .
لقد قلَّد هؤلاء آباءهم في هذه العبادة دون غيرها من الأمور؛ لأنها عبادة وتديُّن بلا تكليف ، وآلهة بلا منهج ، لا تُضيِّق عليهم في شيء ، ولا تمنعهم شيئاً مما أَلِفُوه من الشهوات ، فهو تديُّن بلا تَبِعة .
لذلك؛ فالحق سبحانه يردُّ عليهم في أسلوبين مختلفين ، فمرة يقول تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [البقرة : 170] .
وفي موضع آخر يقول : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [المائدة : 104] .

ونلحظ أن عَجُزَ الآيتين مختلف ، فمرة : { لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً . . . } [البقرة : 170] ومرة : { لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . } [المائدة : 104] فلماذا؟

قالوا : لأن عَجُزَ كل آية مناسب لصَدْرها ، وصَدْر الآيتين مختلف ، ففي الأولى قالوا : { بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ . . . } [البقرة : 170] فيمكن أن نتبع هذا أو هذا ، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شيء واحد .

وفي الثانية قالوا : { حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ . . . } [المائدة : 104] يعني : يكفينا ، ولا نريد زيادة عليه ، فقَصَروا أنفسهم على ما وجدوا عليه آباؤهم .

لذلك قال في عَجُز الأولى : { لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً . . . } [البقرة : 170] وفي عَجُز الثانية { لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . } [المائدة : 104] لأن العاقل هو الذي يهتدي إلى الأمر بذاته .

أمّا الذي يعلم فيعلم ما عَقِله هو ، وما عَقِله غيره ، إذن : فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل؛ لأن العقل يهتدي للشيء بذاته ، أمَّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين .

فكان ردُّهم : { قالوا أَجِئْتَنَا . . . } .

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55)

يعني : أهذا الكلام يا إبراهيم جدٌّ؟ أم أنك تَهْزِر معنا؟ كأنهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم جِدّاً؛ لأنه بعيد عن مداركهم . { قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات . . . } .

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56)

يردّ إبراهيم : لقد جئتكم بالحق الذي يقول : إن هذه الأصنام لا تُعبد ، بل الذي يستحق العبادة هو الله ربُّ السماوات والأرض : { قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ . . . } [الأنبياء : 56] ف (بل) تُضرب عما قبلها ، وتُثبِت الحكم لما بعدها { الذي فطَرَهُنَّ . . . } [الأنبياء : 56] يعني : خَلق السماوات والأرض والأصنام ، وكل ما في الوجود .

{ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين } [الأنبياء : 56] والشاهد هو الذي اهتدى إلى الحق ، كأنه رأْى العَيْن ، وليس مع العين أيْن ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق ، فقال : أنا شاهد على أن ربكم ربّ السماوات والأرض ومعي الدليل على هذه الحقيقة . { وتالله لأَكِيدَنَّ . . . } .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

بعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام { وتالله . . . } [الأنبياء : 57] والتاء هنا للقسم { لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ . . . } [الأنبياء : 57] وهل الأصنام تُكَاد؟ أم أن المراد : لأكيدنكم في أصنامكم؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله ، وتشكر إبراهيم على هذا العمل .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار في غار حراء وغار ثور ، حيث كانت الحجارة تَغَارُ وتحسد حِراء؛ لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يتعبَّد به قبل البَعْثة ، فحِراء شاهدُ تعبُّد لرسول الله يزهو بهذه الصحبة ، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور؛ لأنه صار في منزلة حراء :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يغزُوك بالأَنْوارِ

فَحِرَاءُ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بِهِمَا تشفع لدولةِ الأَحْجَارِ

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ ... لله مِنَ القَائِمينَ بالأَسْحَارِ

تخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دَليلاً ... فَغدَوْنا لَهُمْ وقُودَ النَّارِ

لأن الله قال : { وَقُودُهَا الناس والحجارة . . . } [البقرة : 24] .

قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ ... تجَنَّوْهُ على ابْنِ مرْيَمَ والحَوارِي

لِلْمُغَالِي جَزَاؤُهُ والمغالَي فِيهِ ... تُنجيهِ رَحْمَةُ الغَفَّار

إذن : فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام ، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع ، وكأن إبراهيم – عليه السلام – يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، الدليل العملي الذي لا يُدْفَع وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال : حين أُكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُوني وليردّوا الفأسَ من يدي ، وإنْ كنتُ على حق تركوني وما أفعل .

وقوله تعالى : { بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ } [الأنبياء : 57] أي : بعد أنْ تنصرفوا عنها . يعني : على حين غَفْلة منهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً . . . } .

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

ونلحظ هنا أن السياق القرآني يحذف ما يُفهم من الكلام ، كما في قصة سليمان – عليه السلام – والهدهد : { اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ } [النمل : 28] وحَذْف ما كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس ، وإلقائه الكتابَ إليها ، وأنها أخذتْه وعرضتْه على مستشاريها : { قَالَتْ ياأيها الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل : 29] .

ومعنى { جُذَاذاً . . . } [الأنبياء : 58] أي : قطعاً متناثرة وحطاماً ، بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة { إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ . . } [الأنبياء : 58] أي : أنه تركه فلم يحطمه ، وقد كانوا يضعون

الأصنام على هيئة خاصة و (ديكور) ، بحيث يكون الكبير في الوسط ، وحوله الأصنام الصغيرة يعني : كأن له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم ، وكانوا يضعون في عينه الزبرجد ، حتى يُخيَّل لمَنْ يراه أنه ينظر إليه .

وقوله : { لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } [الأنبياء : 58] فيسألونه عَمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار ، ولماذا لم يدافع عنهم خاصةً وقد وجدوا الفأس على كتفه؟ { قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا . . . } .

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)

أي : لما ذهبوا إلى المعبد الذي يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا : { مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين } [الأنبياء : 59] لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها .

إذن : هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضر ، وكان عليهم أنْ يتنبّهوا إلى هذه المسألة ، كيف يقبَلُون عبادتها ، ولو أوقعت الريحُ أحدهم لكسرته ، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلِح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه في مكانه ، فأيُّ ألوهية هذه التي يدافعون عن حقوقها؟!

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60)

أي : تطوع بعضهم وقالوا هذا ، وكان للقوم يوم مُحدّد يذهبون فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم ، ويأخذون طعامهم وشرابهم ، ويبدو أنه كان يَوْمَ عيد عندهم ، وقد استعدّ آزر لهذا اليوم ، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدي وينصرف عَمَّا هو فيه .

لكن إبراهيم عليه السلام ادّعى أنه مريض ، لا يستطيع الخروج معهم ، فقال { إِنِّي سَقِيمٌ } [الصافات : 89] وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال : { وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ } [الأنبياء : 57] سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره .

{ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ . . . } [الأنبياء : 60] والذكْر هنا يعني بالشر بالنسبة لهم ، { يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ } [الأنبياء : 60] يعني : اسمه إبراهيم ، أو حين نناديه نقول : يا إبراهيم .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ . . . } .

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

ومعنى { على أَعْيُنِ الناس . . . } [الأنبياء : 61] يعني : على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم { لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } [الأنبياء : 61] أي : يشهدون ما نُوقِعه به من العذاب حتى لا يجترئ أحد آخر أنْ يفعل هذه الفِعْلة ، ويكون عبرةً لغيره . { قالوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ . . . } .

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62)

هنا أيضاً كلام محذوف : فأتَوْا به ، ثم سألوه هذا السؤال ، والاستفهام { أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا } [الأنبياء : 62] استفهام عن الفاعل؛ لأن الفعلَ وضاح لا يحتاج إلى استفهام؛ لذلك لم يقُلْ : أفعلتَ هذا يا إبراهيم ، بل اهتم بالفاعل : { أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا . . } [الأنبياء : 62] كما تقول : أبنيتَ الدار التي كنت تنوي بناءها؟ فهذا استفهام عن الفِعْل ، إنما أأنت بنيت الدار ، فالمراد الفاعل . { قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ . . . } .

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63)

وكأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً ، فيُواجههم : فلماذا – إذن – تعبدونهم؟

وقَوْل إبراهيم { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا . . . } [الأنبياء : 63] فيه توبيخ وتبكيت لهم ، حيث رَدَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتّى منه ، وقد ضرب الزمخشري – رحمه الله – مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ ، وآخر لا يُحسِن الكتابة ، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة ، فيقول للأول : أأنت كاتب هذه اللوحة؟ فيقول : لا بل أنت الذي كتبتَها!! تبكيتاً له وتوبيخاً .

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد : { فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ } [الأنبياء : 63] وهم لن يسألوهم؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم . { فرجعوا إلى أَنفُسِهِمْ . . . } .

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64)

أي : تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم ، ونطقوا بالحق : { إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون } [الأنبياء : 64] يعني : بعبادتكم هذه الأصنام ، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ ، ولا ترى ولا تتكلم .

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه العبادة ، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم ، وخسارتهم بها ستكون كبيرة ، هذه الصحوة ستُفقِدهم السُّلْطة الزمنية التي يعيشون في ظلها ، وينتفعون من ورائها بما يُهدَي للأصنام؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة . { ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ . . . } .

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65)

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحق { نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ . . . } [الأنبياء : 65] والنكسة : أن الأعلى يأتي في الأسفل ، وأنتم تعلمونها طبعاً!! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم : { لَقَدْ

عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ } [الأنبياء : 65] وهذا هو التغفيل بعينه .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ . . . } .

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66)

يعني : لا ينفعكم بشيء إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشيء إنْ تركتم عبادته . { أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ . . . } .

أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)

أفٍّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ، فليس اسماً ، ولا فعلاً ، ولا حرفاً ، إنما (أف) اسمٌ مدلوله فعل ، ففيه من الاسمية ، وفيه من الفعلية؛ لذلك يسمونها « الخالفة » لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف ، مثل هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ . فإبراهيم – عليه السلام – يعبِّر بهذه الكلمة (أُفٍّ) عن ضيقه وتضجُّره ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله . { قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا . . . } .

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68)

ونلحظ قولهم { حَرِّقُوهُ . . } [الأنبياء : 68] بالتضعيف الدالّ على المبالغة ، ولم يقولوا مثلاً : احْرِقوه ، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار ، ومكثوا أربعين يوماً يسجرونها بكل ما يمكن أن يشتعل ، وبذلك اشتدت حرارة النار ، حتى إن الطير الذي يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرها .
والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها ، فصنعوا له مِنجنيقاً لِيُلْقُوه به في النار من بعيد .
وقولهم : { وانصروا آلِهَتَكُمْ . . . } [الأنبياء : 68] حسب اعتقادهم كأن المعركة بين إبراهيم والآلهة ، والحقيقة أن الآلهة التي يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده ، فالمعركة – إذن – بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام .
وقولهم : { إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 68] يعني : إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فحرّقوه .
ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم – عليه السلام – من هذه المَحْرقَة : { قُلْنَا يانار كُونِي . . . } .

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69)

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه؛ ليخرق بالمعجزة نواميس الكون السائدة ، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس ، كما قلنا في قصة موسى عليه السلام : الماء قانونه السيولة والاستطراق ، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرْقاناً – كما قلنا – كلُّ فِرْق كالطَّوْد العظيم ، فلا يُعطِّل قانون الأشياء إلا خالقها؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها ، بل مخلوقة تُؤدِّي مهمة ، والذي خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها .

وفَرْق بين فِعْل العبد وفِعْل الحق سبحانه : فلو أنَّ في يدك مسدساً ، وأنت تُحسِن التصويب ، وأمامك الهدف ، ثم أطلقتَ تجاه الهدف رصاصة ، أَلَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك؟ أيمكن أنْ تأمرها أن تميلَ يميناً أو شمالاً؟

لكن الحق سبحانه يتحكّم فيها ، ويُسيِّرها كيف يشاء ، فالحق سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصية الإحراق ، وهو وحده القادر على سَلْب هذه الخاصية منها ، فتكون ناراً بلا إحراق ، فليس للنار قيومية بذاتها .

لذلك يقول البعض : بمجرد أنْ صدر الأمر : { يانار كُونِي بَرْداً وسلاما . . . } [الأنبياء : 69] انطفأت كل نار في الدنيا ، فلما قال : { على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها ، فاشتعلت نيران عدا هذه النار . ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام؛ لأن البرد المطلق يؤذي .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً . . . } .

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق ، ومعنى الكيد : تدبير خفيّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له ، فيحتاط للأمر ، والكيد يكون لصالح الشيء ، ويكون ضده ، ففي قوله تعالى : { كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ . . . } [يوسف : 76] .

أي : لصالحه فلم يقُلْ : كِدْنا يوسف إنما كِدْنا له ، وقالوا في الكيد : إنه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة ، فالذي يُدبِّر لغيره ، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلاّ لعدم قدرته على مواجهته .

لذلك يقولون : أعوذ بالله من قبضة الضعيف ، فإنِّي قويٌّ على قبضة القوى . فإذا ما تمكّن الضعيف من الفرصة لا يدعها؛ لأنه لا يضمنها في كل وقت ، أما القوى فواثق من قوته يستطيع أن ينال خَصْمه في أيّ وقت ، ومن هنا قال الشاعر :

وَضَعِيفَةً فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً ... قتلتْ كَذلِكَ قُدْرَةُ الضّعفَاءِ

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28] وما دام

أن كيدهن عظيم ، فضعفُهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .
ثم قول تعالى : { فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين } [الأنبياء : 70] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل؛ ليدل على المبالغة في الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم في مسألة حَرْق إبراهيم من عِدَّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصِبْه سوء رغم إلقائه في النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيجازون على فِعْلهم ، هذا في الآخرة ، فأيُّ خُسْران بعد هذا؟
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى . . . } .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)

{ وَنَجَّيْنَاهُ . . . } [الأنبياء : 71] يعني : كان هناك شرٌّ يصيبه ، وأذىً يلحق به ، فنجّاه الله منه ، وهذه النجاة مستمرة ، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً مِمَّا تعرَّض له من أَذَاهم .
{ وَلُوطاً . . . } [الأنبياء : 71] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم { إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 71] أي : قلنا لإبراهيم : اترك هذه الأرض - وهي أرض بابل من العراق - واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام ، وخُذْ معك ابن أخيك ، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما في هذا المكان ، بل اختار لهما هذا المكان المقدس .
والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أيضاً مُحدَّدة مخصوصة ، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال ، فمثلاً لما قال أخو يوسف : { فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتى يَأْذَنَ لي أبي . . . } [يوسف : 80] فالسياق يُوضِّح لنا أنها أرض مصر .
لكن قوله : { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . } [الإسراء : 104] فلم تُعيَّن ، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة ، اسكنوا كُلَّ الأرض ، يعني : تبعثروا فيها ، ليس لكم فيها وطن مستقل ، كما قال في آية أخرى : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . . } [الأعراف : 168] .
فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة . . . } [الإسراء : 104] أي : المرة التي سينتصرون فيها { جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } [الإسراء : 104] وهكذا يتجمَّعون في مكان واحد ، فيسْهُلُ القضاء عليهم .
ومعنى { بَارَكْنَا فِيهَا . . . } [الأنبياء : 71] البركة قد تكون مادية أو معنوية ، وهي الزروع والثمار والأنهار والخيرات ، أو بركة معنوية ، وهي بركة القِيَم في الأرض المقدسة ، وهي أرض الأنبياء ، ومعالم النبوة والرسالات .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ . . . } .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عَمّا نحن بصدده من الحديث عنه ، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال : { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين } [الصافات : 100] مع أنه كان عنده إسماعيل ، لكن إسماعيل من هاجر ، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة ، ووجدت في نفسها ما تجده النساء في مسألة الولد ، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التي زوَّجتها له دون أن يكون لها مِثْله .

لذلك ألَحّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقِّق له له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد في ملحظ عقدي يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم في الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : { يابني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى . . . } [الصافات : 102] .

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه في هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غِرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبني عليها ، بل نراه يقول : { ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ } [الصافات : 102] ولم يقُلْ : أفعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به { ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين } [الصافات : 102] .

{ فَلَمَّا أَسْلَمَا . . . } [الصافات : 103] أي : هما معاً إبراهيم وإسماعيل { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . . . } [الصافات : 103] يقال : تله يعني جعل رأسه على التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و { لِلْجَبِينِ } [الصافات : 103] يعني : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

{ وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ . . . } [الصافات : 104-105] وما دُمْتَ صدّقْتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى في تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلِّم بقضائه ، وصدق القائل :

سَلِّم لربِّكَ حُكْمَهُ فلحكمةٍ يَقْضِي ... هـ حتى تستريح وتنْعماً

واذْكُرْ خليلَ اللهِ في ذَبْحِ ابنهِ ... إذ قال خالقه فلما أسلمَا

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضِيَ به ، فلا أحدَ يجبر الله على شيء ، وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثَل الأعلى - بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه ، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة ، تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد

عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمّا لو عارض الولد وتبجّح في وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعِف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم { وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : 107] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ . . . } [الصافات : 112] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هي مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .
هنا يقول تعالى : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً . . } [الأنبياء : 72] والنافلة : الزيادة ، وقط طلب من ربه ولداً من الصالحين ، فبشَّره الله بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء؛ لذلك قال { نَافِلَةً . . . } [الأنبياء : 72] يعني : أمر زائد عما طلبتَ؛ فإجابة الدعاء بإسحق ، والزيادة بيعقوب ، وسرور الإنسان بولده كبير ، وبولد ولده أكبر ، كما يقولون : « أعز من الوِلْد وِلْد الولد » والإنسان يضمن بقاء ذِكْره في ولده ، فإن جاء ولد الولد ضَمِن ذِكْره لجيل آخر .
والهبة جاءت من الله؛ لأن المرأة لم تكُنْ صالحة للإنجاب ، بدليل قوله تعالى : { فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ } [الذاريات : 29] فردَّ عليها : { قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله . . . } [هود : 73] أي : أنه سبحانه قادر على كل شيء .
ويقولالحق سبحانه : { وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ } [الأنبياء : 72] فالحفيد نافلة وزيادة في عطاء الذرية ، ومبالغة في الإكرام ، ثم يمتن الله على الجميع بأن يجعلهم صالحين ، ويجعلهم أنبياء ، كما قال في آية أخرى : { وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً } [مريم : 49] . { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . . } .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله { يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . } [الأنبياء : 73] فهم لا يصدرون في شيء إلا على هُدًى من الله .
وقوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات . . . } [الأنبياء : 73] أي : يفتح لهم أبواب الخير ويُيسِّر لهم ظروفه؛ لأن الموفّق الذي يتوفر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويُعينه عليه .
{ وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة . . } [الأنبياء : 73] وإقامة الصلاة هي : عَيْن الخيرات كلها؛ لأن الخيرات نعمة ، لكن إقامة الصلاة حضرة في جانب المنعم سبحانه ، فالصلاة هي خَيْر الخَيْر .

ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة ، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت . . الخ وكلها أعذار واهية ، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء : بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتاً أم لا؟ يقول : أجد الوقت ، فلماذا - إذن - تحتال في هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم ، ولا تحتال في وقت الصلاة؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة وقد رأينا الحق سبحانه يُسخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة .

ففي إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئاً من الدين الإسلامي في المدارس ، بل يُدرِّسون لهم الدين المسيحي ، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم ، وتكلمنا معه في هذا الأمر ، وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين في بلادكم لحاجتكم إليهم ، وإسهامهم في حركة حياتكم ، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم ، وأنتم أوّلُ المستفيدين من تدريس الدين الإسلامي لأولاد المسلمين .

وفعلاً في اليوم التالي أصدروا قراراً بتدريس الدين الإسلامي في مدارسهم لأولاد المسلمين؛ ذلك لأن الإسلام دين مثمر ، ودين إيجابي تضمنه وتأمنه .

فلأهمية الصلاة ذكرها الحق سبحانه في أول أفعال الخيرات ، وفي مقدمتها ، فقمّة الخيرات أنْ تتواجد مع الإله الذي يهبُكَ هذه الخيرات .

{ وَإِيتَآءَ الزكاة . . . } [الأنبياء : 73] والزكاة تطبيق عمليٌّ للاستجابة لله حين تُخرج جزءاً من مالك لله ، والصلاة دائماً ما تُقرَن بالزكاة ، فالعلاقة بينهما قوية ، فالزكاة تضحية بجزء من المال ، والمال في الحقيقة نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، أما الصلاة فهي تضحية بالوقت ذاته .

وقوله تعالى : { وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء : 73] أي : مطيعين لأوامرنا ، مجتنبين لنواهينا ، فالعبادة طاعة عباد لمعبوده .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً . . . } .

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74)

{ وَلُوطاً . . . } [الأنبياء : 74] جاءتْ منصوبة؛ لأنها معطوفة على قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ . . . } [الأنبياء : 51] وأيضاً : آتينا لوطاً رشده . والحُكْم : يعني الحكمة ، وأصله من الحكمة التي تُوضَع في حنك الفَرَس؛ لأن الفَرس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه؛ لذلك يوضع في حنكه اللجام أو الحَكمة ، وهي قطعة من الحديد لها

طرفان ، يتم توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً .
ومن ذلك الحِكْمة ، وهي وَضْع الشيء في موضعه ، ومنه الحُكْمْ ، وهو : وضع الحقَ في مَوْضعه من الشاكي أو المشكو أي : الخصمين .
{ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً . . } [الأنبياء : 74] وفرْقٌ بين العلْم والحكم : العلم أن تُحقِّق وتعرف ، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلم ، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق .
ثم يقول تعالى : { وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القرية التي كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث . . . } [الأنبياء : 74] فقد نجَّى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وكذلك نجَّى لوطاً من أهل القرية التي كانت تعمل الخبائث ، والخبائث في قوم لوط معروفة .
لذلك يقول بعدها : { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ } [الأنبياء : 74] ورجل السَّوءْ هو الذي يسوء كل مَنْ يخالطه ، لا يسوء البعض دون البعض ، فكل مَنْ يخالطه أو يحتكّ به يسؤوه .
والفسْق : الخروج عن أوامر التكليف ، وهذا التعبير ككُلِّ التعابير القرآنية مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب ، فأصل الفِسْق من فَسقَتِ الرُّطبة عن قشرتها حين تستوي البلحة فتنفصل عنها القشرة حتى تظهر منها الرُّطبة ، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدي مهمة ، وهي حِفْظ الثمرة ، كذلك نقول في الفسق عن المنهج الديني الذي جاء ليؤدي مهمة في حياتنا ، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ . . . } .

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

كيف؟ ألسنا جميعاً في رحمة الله؟ قالوا : لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق تشمل حتى الكافر ، وهناك رحمة خاصة تعدي الرحمة منه إلى الغير ، وهذه يعنُون بها النبوة ، بدليل قول الله تعالى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] فردَّ الله عليهم : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . . } [الزخرف : 32] أي : النبوة : { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا . . } [الزخرف : 32] .
فكيف يقسمون رحمة الله التي هي النبوة ، وهي قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم في الدنيا؟
فمعنى { وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ . . . } [الأنبياء : 75] أي : في رَكْب النبوة { إِنَّهُ مِنَ الصالحين } [الأنبياء : 75] أي : للنبوة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، لكن قمة هذه الرحمة جاءت في النبي الخاتم والرسول الذي لا يُستدرك عليه برسول بعده؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 107] .
فالرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا رحمة لأممهم ، أمّا محمد فرحمة لجميع العالمين .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن رسول آخر من أولى العزم من الرسل : { وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ . . . } .

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76)

قوله تعالى : { وَنُوحاً . . . } [الأنبياء : 76] مثلما ثلنا في { وَلُوطاً . . . } [الأنبياء : 74] أي : آتيناه هو أيضاً رُشْده { إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ . . . } [الأنبياء : 76]

والنداء في حقيقته : طلبُ إقبال ، فإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء ، وإنْ كان من مُسَأوٍ لك فهو التماس ، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء ، فحين تقول يا رب : الياء هنا ليست للنداء بل للدعاء .

وحين تمتحن تلميذاً تقول له : أعرب : رَبِّ اغفر لي ، فلو كان نبيهاً يقول : ربّ مدعو .

والتقدير يا رب ، ومن قال : منادى نسامحه لأنه صحيح أيضاً ، فالياء في أصلها للنداء ، لكنه غير دقيق في الأداء . كذلك في : اغفر لي ، إنْ قال فِعْل أمر نعطيه نصف الدرجة ، أما إن قال دعاء فَلَهُ الدرجة الكاملة .

فماذا قال نوح عليه السلام في ندائه؟ المراد قوله : { رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً } [نوح : 26] فاستجاب الله لنبيه نوح عليه السلام : { فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم } [الأنبياء : 76] والمراد بالكرب ما لبثه نوح في دعوة قومه من عمر امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما تحمَّله في سبيل دعوته من عَنَتٍ ومشقّة قال الله فيها : { وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِني أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً } [نوح : 7-9] .

ثم لما أمره الله بصناعة الفُلك أخذوا يسخرون منه : { وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ . . } [هود : 38]

إذن : استجاب الله دُعَاءه ونداءه { فاستجبنا لَهُ . . . } [الأنبياء : 76] وفي موضع آخر : { وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبون } [الصافات : 75] فوصف الحق سبحانه إجابته لنوح ب (نِعْم) الدالة على المدح .

فهل يعني ذلك أن هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب؟ قالوا : نعم إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شَرٌّ لك ، أمَّا الحق سبحانه فهو نِعْم المجيب؛ لأنه لا يُجيبك إلا بما هو صالح ونافع لك ، فإنْ كان في دعائك شَرٌّ ردَّه لعلمه سبحانه أنه لن ينفعك .

وكأن الحق الأعلى سبحانه يقول لك : أنا لستُ موظفاً عندك ، أجيبك إلى كُلِّ ما تطلب ، إنما أنا قيُّوم عليك ، وقد تدعو بما تظنّه خيراً لك ، وأعلم بأزلية عِلْمي أن ذلك شر لا خيرَ فيه ، فيكون الخير لك أَلاَّ أجيبك؛ لأنني نِعْمَ المجيب .

وهَبْ أن الله تعالى يجيب كُلاً منّا إلى ما يريد ، فكيف حال الأم التي تغضب مثلاً من وحيدها ، وفي لحظة الغضب والثورة تدعو عليه فتقول مثلاً : (إلهي أشرب نارك) ؟ فالحق – تبارك وتعالى – حين يردُّ مِثْل هذا الدعاء هو نِعْم المجيب؛ لأنه نِعْم المانع .
لذلك يقول تعالى : { وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } [الإسراء : 11] أي : يدعو ويُلِحُّ في الدعاء بما يظنُّه خَيْراً ، وهو ليس كذلك . { وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم . . . } .

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

مازالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من رَكْب النبوات ، ونحن في سورة الأنبياء ، وحينما نتأمل هذه الآية نجد أن الله تعالى يُعذِّب بالماء كما يُعذِّب بالنار ، مع أنهما ضِدَّانِ لا يلتقيان ، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .
وقصة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثَا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا الماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ، ذلك لعلمهم بخطر الطوفان ، وأنه لا يُصَدُّ ولا يردُّه عنهم شيء .
ثم يحدثنا الحق سبحانه عن نبيين من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى : { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ . . . } .

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78)

يحكمان تعني أن هناك خصومة بين طرفين ، والحرْث : إثارة الأرض وتقليب التربة؛ لتكون صالحة للزراعة ، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً في قوله تعالى : { وَيُهْلِكَ الحرث والنسل . . . } [البقرة : 205] .
والحرْث ذاته لا يهلك ، إنما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار ، فسمَّى الزرع حَرْثاً؛ لأنه ناشيء عنه ، كما في قوله تعالى أيضاً : { كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . . . } [آل عمران : 117] .
لكن ، لماذا سَمَّي الحرْث زَرْعاً ، مع أن الحَرْث مجرد إعداد الأرض للزراعة؟ قالوا : لُيبيّن أنه لا يمكن الزرع إلا بحرْث؛ لأن الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض ، وهذه العملية تساعد على إدخال الهواء للتربة وتجفيفها من الماء الزائد؛ لأن الأرض بعد عملية الريّ المتكررة يتكوَّن عليها طبقة زَبَدية تسدُّ مسَام التُّربة ، وتمنع تبخُّر المياه الجوفية التي تُسبِّب عطباً في جذور النبات .
لذلك ، ليس من جَوْدة التربة أن تكون طينية خالصة ، أو رملية خالصة ، فالأرض الطينية تُمسك

الماء ، والرملية يتسرَّب منها الماء ، وكلاهما غير مناسب للنبات ، أما التربة الجيدة ، فهي التي تجمع بين هذه وهذه ، فتمسح للنبات بالتهوية اللازمة ، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته .

لذلك سُمّي الزرْع حَرْثاً؛ لأنه سببُ نمائه وزيادته وجَوْدته ، وليُلفت أنظارنا أنه لا زَرْع بدون حَرْث ،كما جاء في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون } [الواقعة : 63-64] .

ففي هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله في الكون ، هي أنك لا بُدَّ أن تعمل لتنال ، فربُّك وخالقك قدَّم لك العطاء حتى قبل أنْ تُوجد ، وقبل أن يُكلِّفك بشيء ، ومكثت إلى سنّ البلوغ ، تأخذ من عطاء الله دون أنْ تُحاسبَ على شيء من تصرفاتَك .

وكذلك الأمر في الآخرة سيعطيك عطاءً لا ينتهي ، دون أن تتعب في طلبه ، هذا كُلُّه نظير أنْ تطيعه في الأمور الاختيارية في سِنّ التكليف .

إذن : لقد نِلْتَ قبل أن تعمل ، وستنال في الآخرة كذلك بدون أنْ تعمل ، فلا بُدَّ لك من العمل بين بدايتك ونهايتك لتنال الثمرة .

لذلك ، في الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : « أَعْطُوا الأجير أجره قبل أنْ يجفَّ عَرَقُه » ما دام قد عمل فقد استحق الأجر ، والأمر كذلك في مسألة الحرث .

ثم يقول تعالى : { إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم . . . } [الأنبياء : 78] هذه خصومة بين طرفين ، احتكما فيها لداود عليه السلام : رجل عنده زرع ، وآخر عنده غنم ، فالغنم شردتْ في غفلة من صاحبها فأكلتْ الزرع ، فاشتكى صاحبُ الزرع صاحبَ الغنم لداود ، فحكم في هذه القضية بأن يأخذَ صاحبُ الزرع الغنَم ، وربما وجد سيدنا داود أن الزرع الذي أتلفتْه الغنم يساوي ثمنها .

فحينما خرج الخَصْمان لقيهما سليمان – عليه السلام – وكان في الحادية عشرة من عمره ، وعرف منهما حكومة أبيه في هذه القضية ، فقال : (غير هذا أرفق بالفريقين) فسمَّي حُكْم أبيه رِفْقاً ، ولم يتهمه بالجَوْر مثلاً ، لكن عنده ما هو أرفق .

فلما بلغت مقالته لأبيه سأله : ما الرِّفق بالفريقين؟ قال سليمان : نعطي الغنم لصاحب الزرع يستفيد من لبنها وأصوافها ، ونعطي الأرض لصاحب الغنم يُصلحها حتى تعود كما كانت ، ساعتها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زَرْعه .

ومعنى { نَفَشَتْ . . . } [الأنبياء : 78] نقول : نفش الشيء أي : أخذ حَجْماً فوق حَجْمه ،كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبز أو البقسماط ووضعتَها في لبن أو ماء ، تلاحظ أنها تنتفش ويزداد حجمها نقول : انتفشت ،كما نقول لمن يأخذ حجماً أكثر من حجمه : « أنت نافش ريشك » .

وقوله تعالى : { وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } [الأنبياء : 78] أي مراقبين .
يقول الحق سبحانه : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا . . . } .

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)

فداود وسليمان – عليهما السلام – نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما في هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح في عِلْم داود ، ولا يطعن في حُكْمه .
وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء درجة أولى أنها تطعن فيها .
فهذا مثل قوله تعالى : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . . } [الأنبياء : 79] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه؛ لذلك فالقاضي الابتدائي قد يحكم في قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضي استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتي حُكْمه غير الأول .
ثم يقول تعالى : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير . . . } [الأنبياء : 79] حينما جمع السياق القرآني بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيّن لنا طَرفاً مِمَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . . } [الأنبياء : 79] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن مَيْزَةً لداود عليه السلام : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير . . . } [الأنبياء : 79] .
والتسخير : قَهْر المسَخّرل على فعل لا يستطيع أنْ ينفكَّ عنه ، وليس مختاراً فيه ، ونلحظ هنا الارتقاء من الأَدْنى إلى الأعلى : أولاً : سخّر الجبال وهي جماد ، ثم الطير وهي أرْقَى من الجماد ، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير؛ لأنه حَيٌّ ، وله روح ، وله حركة وصوت مُعبّر ، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء؟
بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير ، لا بُعمْق ونظر في لُبِّ الأشياء ، فالجبال يروْنها جامدة ، ليس لها صوت مُعبّر كما للطير؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبّح ، فكيف لها ذلك وهي جمادات؟
لكن؛ ما العجب في ذلك ، وأنت لو قُمْتَ بَمسْح شامل لأجناس الناس الأرض ، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التي يعيشون فيها ، فالناس مختلفون في مثل هذه الأمور متفقون فقط في الغرائز ، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس ، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار .
ألم تَرَ إلى قوله تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى } [النجم : 43] فما دام أنه سبحانه الذي

يُضحِك ، والذي يُبكِي ، فلن نختلف في هذه الأمور .
فالكلام – إذن – من الأشياء التي يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس في صوت الحروف ، فالحروف هي هي ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن – إذن – متحدون في الحروف ، لكن نختلف في معاني الأشياء .
وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها ، فغيْر العربي لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما في العربية فعندنا فَرْق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاي والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك نجد غير العربي يقول في (على) : ألي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكلِّم .

فإذا كنا – نحن البشر – لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض ، فهذا عربي ، وهذا إنجليزي ، وهذا فرنسي . . إلخ فإذا لم تتعلم هذه اللغة لا تفهمها .
ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذي لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزي في بيئة عربية لنطق بالعربية . . وهكذا .
فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهي أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعني عدم فَهْمِنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها .
إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأَدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورة من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .
وقد حكة الحق سبحانه وتعالى عنه : { يأيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ . . . } [النمل : 16] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما عَلِمها .
وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير ، ولم يجد الهدهد فتوعَّده : { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } [النمل : 22] .
ونلحظ هنا دِقَّة سليمان – عليه السلام – في استعراض مملكته ، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد ، ونلحظ أدبه في قوله : { مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين } [النمل : 20] فقد اتهم نظره وشَكَّ أولاً ، فربما الهدهد يكون موجوداً ، ولم يَرَهُ سليمان .
وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك : { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ . . . } [النمل : 22] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد : { وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله . . . } [النمل : 24] .
ويعترض الهدهد على هذا الشرك ، ويردُّ عليه بشيء خاص به ، وبظاهر تُهمه : { أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ

الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض . . . } [النمل : 25] .
فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبْء؛ لأن منه طعامه ، فلا يأكل من ظاهر الأرض ، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض ، ويُخرِج خبأها ليأكله .
وكذلك النمل ، وهو أقلُّ من الهدهد ، فقد كان للنملة مع سليمان لغة ، وكلام ، وفَهْم عنها : { حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل قَالَتْ نَمْلَةٌ يأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا . . . } [النمل : 19] .
إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَهمه سليمان؛ لذلك قال : { رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ . . . } [النمل : 19] .
ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .
ومع هذا حينما وقف العلماء أمام هذه الآية { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ . . . } [الأنبياء : 79] قالوا : يعني تسبيح دلالة ، فهي بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ، وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأَوْلى بهم أنْ يعترفوا لها بالتسبيح؛ لكنه تسبيح لا نفهمه نحن ، كما قال تعالى :

{ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .
والآن نرى في طموحات العلماء السَّعْي لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات ، ولا نستبعد في المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتقاءات العلم في المستقبل؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .
والمزيّة التي أعطاها الله تعالى لنبيه داود – عليه السلام – ليستْ في تسبيح الجبال؛ لأن الجبال تُسبّح معه ومع غيره ، إنما الميزة في أنها تُردِّد معه ، وتوافقه التسبيح ، وتجاوبه ، فحين يقول داود : سبحان الله تردد وراءه الجبال : سبحان الله ، وكأنهم جميعاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .
وليس معنى الجماد أنه جامد لا حياةَ فيه ، فهو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأمَلتَ المحاجر في طبقات الأرض لوجدت بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركةً منذ ملايين السنين ، ونتيجة هذه الحركة يتغير لَوْنُ الحجر وتتغير طبيعته ، وهذا دليل الحياة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحجرة لَوْناً معيناً تراه يتغير مع مرور الزمن ، إذن : في هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .
وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولون في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم أنه سبَّح الحصى في يده . أن هذه المقولة غير دقيقة تحتاج إلى تنقيح عقلي ، فالحجر مُسبّح في يد رسول الله ، وفي يد أبي جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هي أن رسول الله سمع تسبيح الحصى في يده .
فما من شيء في كون الله إلا وله حياة تناسبه ، وله لغة يُسبّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها؛ لأن الكلام فرع وجود حياة ، وكل شيء في الوجود له حياة ، فعلبة الكبريت هذه التي نستعملها

يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعلات تكفي لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سبحانه وتعالى : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88] .

فكلُّ ما يقال له شيء – إلا وَجْه الله – هالك ، والهلاك يعني أن فيه حياةً؛ لأن الهلاك ضد الحياة ، كما جاء في قوله تعالى : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . } [الأنفال : 42] .

فكُلُّ شيء في الوجود له حياة بقانونه ، وليس من الضروري أن تسمع الكلام حتى تعترف بوجوده ، فهناك مثلاً لغة الإشارة ، وهي لغة مفهومة ومُعبِّرة ، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً .

البحارة لهم إشارات يتعارفون عليها ويتفاهمون بها . جهاز التلغراف لَوْن من ألوان الأداء ووسيلة من وسائل التفاهم ، إذن : الأداء والبيان ليس من الضروري أنْ يتمّ بالكلام المسموع ، إنما تتفاهم الأجناس ويُكلِّم بعضها بعضاً كلّ بلغته ، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به فقدت غيرك من الأجناس .

لذلك يقول تعالى : {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . } [النور : 41] والتنوين هنا دالٌّ على التعميم ، فلكل شيء صلاته التي تناسبه ، وتسبيحه الذي يناسب طبيعته .

والحق – سبحانه وتعالى – حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهْر من المخلوقات جميعاً لله يأتي الكلام عاماً في كل الأجناس بلا استثناء ، إلا في الكلام عن الإنسان ، فإن التسبيح والخضوع خاصٌّ ببعض الناس .

اقرأ قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب . . . } [الحج : 18] هكذا بلا استثناء ، أمّا في الإنسان ، فقال : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } [الحج : 18] .

ثم يقول تعالى : { وَكُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 79] نعم ، الحق سبحانه خالق كل شيء ، وفاعل كل شيء ، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا نتعجب من تسبيح الطير والجماد ، فالله هو الفاعل ، وهو المانح والمحرك .

ثم يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام : { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ . . . } .

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80)

{ وَعَلَّمْنَاهُ . . . } [الأنبياء : 80] العِلْم نقل قضية مفيدة في الوجود من عالم بها إلى جاهل بها ، والإنسان دائماً في حجة إلى معرفة وتعلُّم ، لأنه خليفة الله في الأرض ، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس ، هذه الحركة تحتاج إلى فَهْم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات ، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير لَيّناً قابلاً للتشكيل ، الماء لا بُدَّ أنْ نغليَه لكذا وكذا . . إلخ .

وقضايا العلم التي تحتاجها حركة الإنسان في الأرض نوعان : نوع لم يأمن الله فيه الخَلْق على أنفسهم ، فجاء من الله بالوحي ، حتى لا يكون للعقل مجال فيه ، ولا تختلف حوله الأهواء والرغبات ، وهذا هو المنهج الذي نزل يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لكن الأمور التي لا تختلف فيها الأهواء ، بل تحاول أن تلتقي عليها وتتسابق إليها ، وربما يسرق بعضهم من بعض ، هذه الأمور تركها الحق – سبحانه – لعمل العقول وطموحاتها ، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم ، ولو من الأدنى كما تعلَّم ابن آدم (قابيل) من الغراب ، كيف يواري سوأة أخيه ، فقال سبحانه : { فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . . . } [المائدة : 31] .

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات في الكون حين نُعمِل فيها العقل ، ونُرتِّب بعض الظواهر على بعض ، نتوصل منها إلى حقائق علمية ، وقد تأتي القضية العلمية بالتجربة ، أو بالخاطر يقذفه الله في قَلْب الإنسان .

فقوله تعالى : { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ . . . } [الأنبياء : 80] يصح أن نقول : كان هذا التعليم بالوحي ، أو بالتجربة أو الإلقاء في الرَّوْع ، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام .

واللَّبوس : أبلغ وأحكم من اللباس ، فاللباس من نفس مادة (لبس) هي الملابس التي تستر عورة الإنسان ، وتقيه الحر والبرد ، كما جاء في قوله تعالى : { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر . . . } [النحل : 81] .

أما في الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التي نجدها في اللباس ، في الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس ، ويحمينا من ضربات العدو في الأماكن القاتلة؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة في الجسم البشري ، وتتمثل هذه في الرأس والصدر ، ففي الرأس المخ ، وفي الصدر القلب ، فإن سِلَمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداوته وجَبْره .

إذن : اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ، وكانت قبل داود مَلْساء يتزحلق السيف عليها ، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف؛ لذلك قال تعالى بعدها : { لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ . . . } [الأنبياء : 80] أي :

تحميكم في حَرْبكم مع عدوكم ، وتمنعكم وتحوطكم .
إذن : ألهمنا داود عليه السلام ، فأخذ يُفكِّر ويبتكر ، وكل تفكير في ارتقاء صَنْعه إنما ينشأ من ملاحظة عيب في صَنْعة سابقة ، فيحاول اللاحق تلافي أخطاء السابق ، وهكذا حتى نصلَ إلى شيء لا عَيْبَ فيه ، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقة؛ لذلك يُسمُّونه (آخر موديل) .

ثم يقول تعالى : { فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ } [الأنبياء : 80] شاكرون على نعمة الله الذي يرعاكم ويحفظم في المآزق والمواقف الصعبة ، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر ، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّتْ المواجهة .
وفي آية أخرى يقول سبحانه : { وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد : 25] .
فليست مهمة الحديد في الحياة أنه ينفع الناس فحسْب ، إنما له مهمة قتالية أيضاً؛ لذلك قال : { وَأَنزَلْنَا الحديد . . . } [الحديد : 25] كما قال : { نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرآن . . . } [الإنسان : 23] فإنْ كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية ، حيث نضرب به على أيدي الكافرين العاصين ، ونحمي به صدور المؤمنين المصدِّقين؛ لذلك قال { وَأَنزَلْنَا . . . } [الحديد : 25] أي : من أعلى مع أنه خارج من الأرض .
إذن : مسألأة الحديد في الأرض نعمة كبيرة من نِعَم الله علينا ، بها نحفظ أنفسنا من العدو ، فالحق – سبحانه وتعالى – خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره ، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته ، وهذا يستحقّ مِنّا الشكر الدائم الذي لا ينقطع .
ثم ينتقل السياق من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان عليهما السلام ، فيقول الحق سبحانه : { وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً . . . } .

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)

لا شكّ أن سليمان – عليه السلام – قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود ، وأخذ من نعمة الله على أبيه ، وهنا يزيده ربه – تبارك وتعالى – أموراً يتميز بها ، منها الريح العاصفة أي : القوية الشديدة { تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا . . . } [الأنبياء : 81] وكأنها مواصلات داخلية في مملكته من العراق إلى فلسطين .
وفي موضع آخر قال : { وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي إِنَّكَ أَنتَ الوهاب * فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ } [ص : 35-36] .
رُخَاء : أي : هيّنة ليّنة ناعمة ، وهنا قال { عَاصِفَةً . . . } [الأنبياء : 81] فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة في (عاصفة) وصفة الراحة في (رخاء) ، وهاتان صفتان لا يقدر

على الجمع بينهما إلا الله ، فنحن حين تُسْرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صِفَة الراحة والاطمئنان ، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة .

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده ، وهي في الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثِّر في تكوينات جسمه ، ولا تُحدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان ، فمَنْ يقدر على الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط ، الذي يقبض الزمن في حق قوم ويبسطه في حق آخرين .

ومعنى : { بَارَكْنَا فِيهَا . . . } [الأنبياء : 81] أي : بركة حِسِّية بما فيها من الزروع والثمار والخِصْب والخيرات ، وبركة معنوية حيث جعل فيها مهابط الوحي والنبوات وآثار الأنبياء .

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً ، كما رأينا في (السينما) بساط الريح الذي نراه يحمل شيئاً ويسير به في الهواء ، أو : أنها كانت تُسيِّر المراكب في البحار ، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده ، وتأتمر بأمره ، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً ، فهي لا تهُبُّ على مرادات الطبيعة التي خلقها الله عليها ، ولكن على مراده هو .

وإنْ كانت هذه الريح الرُّخَاء تحمله في رحلة داخلية في مملكته ، فهناك من الرياح ما يحمله في رحلات وأسفار خارجية ، كالتي قال الله تعالى عنها : { وَلِسُلَيْمَانَ الريح غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ . . . } [سبأ : 12] فيجوب بها في الكون كيف يشاء { حَيْثُ أَصَابَ } [ص : 36] .

ثم يقول تعالى : { وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ } [الأنبياء : 81] أي عندنا علْم نُرتِّب به الأمور على وَفْق مرادنا ، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فَنُسيِّر الريح كما نحب ، لا كما تقتضيه الطبيعة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ . . . } .

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)

فبعد أنْ سخَّر الله له الريح سخَّر له الشياطين { يَغُوصُونَ لَهُ . . . } [الأنبياء : 82]

والغَوْصُ : النزول إلى أعماق البحر؛ ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه التي ادخرها الله فيه { وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك . . . } [الأنبياء : 82] أي : مما يُكلِّفهم به سليمان من أعمال شاقة لا يقدر عليها الإنسان ، وقد شرحت هذه الآية في موضع آخر : { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجواب وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ . . . } [سبأ : 13] فأدخل مرادات العمل في مشيئته .

والمحاريب جمع محراب ، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلاً ، والجِفَان : جمع جَفْنة ، وهي القَصْعة الكبيرة الواسعة التي تكفي لعدد كبير ، والقدور الراسيات أي : الثابتة التي لا تنقل من مكان

لآخر وهي مبنية .
وقد رأينا شيئاً من هذا في الرياض أيام الملك عبد العزيز رحمه الله ، وكان هذا القدْر من الاتساع والارتفاع بحيث إذا وقف الإنسان ماداً ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها ، وفي الجاهلية أشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان ، وعند مطعم بن عدي .
أما التماثيل فهي معروفة ، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهي عن عبادتها ، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً ، ثم فُتِن الناس فيها ، فعبدوها من دون الله فَحرِّمت ، إذن : كيف نخرج من هذا الموقف؟ وكيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهي مُحرَّمة؟
نقول : كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة ، إنما على هيئة الإهانة والتحقير ، كأن يجعلوها على هيئة رجل جبار ، أو أسد أضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفه من شرفاته ، أو يُصوِّروها تحمل مائدة الطعام . . الخ . أي أنها ليست على سبيل التقديس .
ثم يقول تعالى : { وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } [الأنبياء : 82] حافظين للناس المعاصرين لهذه الأعمال يروْنَ البشر ، والبشر لا يروْنهم ، كما قال تعالى : { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . } [الأعراف : 27] .
أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ ويراقبهم وهم يعملون له ، وفي قصته : { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الموت مَا دَلَّهُمْ على مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأرض تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ . . . } [سبأ : 14] .
وفي هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب؛ لذلك قال تعالى : { فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجن أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الغيب مَا لَبِثُواْ فِي العذاب المهين } [سبأ : 14] .
ويُقال : إن سليمان – عليه السلام – بعد أنْ امتنَّ الله عليه ، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم في القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره .
هذه مجرد لقطة من قصة سليمان ، ينتقل السياق منها إلى أيوب عليه السلام : { وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ . . . } .

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83)

(نَأديَ) : قلنا النداء لمثلك طلب إقبال ، أما بالنسبة لله تعالى فهو بمعنى الدعاء ، فمعنى { إِذْ نادى رَبَّهُ . . . } [الأنبياء : 83] أي : دعاه وناداه بمطلوب هو : { أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين . . . } [الأنبياء : 83] والضُّر : ابتلاء من الله في جسده بمرض أو غيره .
أما الضرَّ بفتح الضاد ، فهو إيذاء وابتلاء في أي شيء آخر غير الجسد ، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر .
لكن ، كيف ينادي أيوب عليه السلام ربه ويتوجع { أَنِّي مَسَّنِيَ الضر . . . } [الأنبياء : 83]

أليس في علم الله أن أيوبَ مسَّه الضرُّ؟ وهل يليق بالنبي أنْ يتوجّع من ابتلاء الله؟
نعم ، يجوز له التوجُّع؛ لأن العبد لا يَشْجعُ على ربه؛ لذلك فإن الإمام علياً رضي الله عنه لما دخل عليه رجل يعوده وهو يتألم من مرضه ويتوجع ، فقال له : أتتوجَّع وأنت أبو الحسن؟ فقال : أنا لا أشجع على الله يعني : أنا لست فتوة أمام الله .
ألا ترى أنه من الأدب مع مَنْ يريد أن يُثبِت لك قوته فيمسك بيدك مثلاً ، ويضغط عليها لتضجّ وتتألم ، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول : آه وتُظهِر له ولو مجاملة أنه أقوى منك؟
ومعنى : { وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين } [الأنبياء : 83] ساعةَ أنْ ترى جَمْعاً في صفة من الصفات يُدخِل الله فيه نفسه مع خَلْقه ، كما في : { أَرْحَمُ الراحمين } [الأنبياء : 83] و { أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] و { خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54] فاعلم أن الله تعالى يُثبِت نفس الصفة لعباده ، ولا يبخسهم حقهم .
فالرحمة من صفات البشر ، كما جاء في الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن » .
وفي « ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء » .
فالرحمة تخلُّق بأخلاق الحق سبحانه ، « والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : » تخلَّقوا بأخلاق الله « » .
إذن : للخَلْق صفة الرحمة ، لكن الله هو أرحم الراحمين جميعاً؛ لأن رحمته تعالى وسعَتْ كل شيء .كما قلنا في صفة الخَلْق : فيمكنك مثلاً أن تصنع من الرمل كوباً ، وتُخرِجه إلى الوجود ، وتنتفع به ، لكن أخَلْقك للكوب كخَلْق الله؟
ثم يقول الحق سبحانه : { فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا . . . } .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)

استجاب الله لأيوب فيما دعا به من كَشْف الضُّر الذي أصابه ، وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بها ، حيث كان في قِلَّة من الأهل ، وليس له عِزْوة .
{ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذكرى لِلْعَابِدِينَ . . . } [الأنبياء : 84] ليعلم كلُّ عابد أخلص عبادته لله تعالى ، أنه إذا مسَّه ضُرٌّ أو كَرْب ولجأ إلى الله أجابه الله إلى ما يريد ، وأعطاه فوق الإجابة نافلة أخرى ، وكأن ما حدث لنبي الله أيوب نموذج يجب أن يُحْتَذَى . { وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ . . . } .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85)

قلنا : إن سورة الأنبياء لا تذكر قصَصاً كاملاً للأنبياء ، إنما تعطينا طَرَفاً منها ، وهنا تذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط .
ثم يقول تعالى : {كُلٌّ مِّنَ الصابرين } [الأنبياء : 85] كأن الصبر في حَدِّ ذاته حيثية يُرسل الله من أجلها الرسول ، ولنتأمل الصبر عند إسماعيل ، وكيف أنه صبر على أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها ، فأيُّ صبر أعظم من هذا؟
ثم يعيش في صِغَره – وحتى كبر – في وَادٍ غير ذي زرع ، ويتحمل مشاق هذه البيئة الجافة المجْدِبة ، ويخضع لقول الله تعالى : { رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة . . } [إبراهيم : 37] .
وكأن في خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النعيم والزروع والثمار تأبّياً على إقامة الصلاة؛ لذلك نراه يُفضّل البقاء في هذا المكان ، ويزهد في نعيم الدنيا الذي يتمتع به غيره امتثالاً لأمر الله .
وتكون النتيجة أنْ أعطاه الله ما هو خَيْر من الزروع والثمار ، أعطاه عطاءً يفخر به بين جميع الأنبياء ، هو أنه جعل من نسله النبي الخاتم محمد بن عبد الله ، وأيُّ ثمرة أحسن من هذه؟
وإدريس : وهو من الجيل الخامس من أولاد آدم عليه السلام ، وبعض العلماء يقولون هو « أوزوريس » ، ونحن لا نقول إلا ما قاله القرآن (إدريس) وأهل السير يقولون : إن نبي الله إدريس أول مَنْ علّمه الله غزل الصوف وخياطة الملابس ، وكانوا قبلها يسترون عوراتهم بقطع الجلود .
وهو أول مَن استخدم النجوم لمعرفة الاتجاهات والأحوال ، وأول مَنْ خط بالقلم ، هذه يُسمُّونها أوليات إدريس .
وذا الكفل : الكِفْل هو الحظ والنصيب ، فلماذا سُمِّي « ذو الكفل »؟ ذو الكفل ابن أيوب عليه السلام ، ويظهر أن أولاد أيوب كانوا كثيرين ، إنما اختص الله ذا الكفل بالرسالة ، وكان هذا حظه دون غيره من أبناء أيوب؛ لذلك سُمِّي « ذو الكفل » .
وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً في قوله الحق سبحانه وتعالى : { يأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ . . . } [الحديد : 28] .
جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى – عليه السلام – والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى – عليه السلام – آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أي : نصيبان وحظَّان من رحمة الله ، نصيبٌ لإيمانكم بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم .
ثم يقول تعالى في وصفهم {كُلٌّ مِّنَ الصابرين } [الأنبياء : 85] فوصف كلّ الأنبياء بالصبر؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال في سبيل دعوتهم ، وصبروا على هذا كله . { وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا . . . } .

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86)

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهي أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحمّلوا في سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ في ذلك : { وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ . . . } .

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)

« ذو النون » : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان؛ لذلك سُمِّيَ به ، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوَيَ) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعداس : « أنت من بلد النبي الصالح : يونس ابن متّى » .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشيء آخر ، كما في (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : { إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً . . . } [الأنبياء : 87] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . نقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطي معنى آخر؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن في أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية في أحدهما ، والمفعُولية في الآخر ، كما نقول : شارك زيدٌ عَمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلُّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة؛ فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء في قَوْل الشاعر العربي الذي يصف السير في أرض معقربة ، والتي إذا سِرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا ... الأفْعُوانَ والشُّجاعَ القَشْعَمَا

أي : أنه سَالَمَ الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتي بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : الأُفْعَوانَ والشجاعَ القشعمَا؛ لأنه لاحظ في جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَمِمَّ غضب ذو النون؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذِّبوه ، وأن يتجرَّأوا عليه ، فخرج من

بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .
وفي آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف : { فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ } [يونس : 98] .
أي : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هي قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .
إذن : خرج يونس مُغاضِباً لا غاضباً؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث في مسألة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم هاجر من مكة لكنه لم يهْجرهَا ، فسُمِّيَتْ هجرة؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته وألجئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف في الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال صلى الله عليه وسلم مخاطباً مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إليَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ ما خرجْتُ » .
وقد أخذ المتنبي هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :
إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُمْ فالراحِلُون هُمُ
وقوله تعالى : { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ . . . } [الأنبياء : 87] البعض ينظر في الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه؟ وهذا الفَهْم ناشيء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشيء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة في القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما في قوله تعالى : { لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . . } [الطلاق : 7] معنى قُدِر عليه رزقه يعني : ضُيِّق عليه .
ومنها قوله تعالى : { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ . . . } [الإسراء : 30]
وقوله سبحانه تعالى : { فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ } [الفجر : 15-16] .
إذن : فقوله : { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ . . . } [الأنبياء : 87] أي : أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها { فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .
فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس؟
إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسلْمه ، ولن يخذله ،

ولن يتركه في هذا الكرب .

وقد وُجدَتْ شبهة في قصة يونس – عليه السلام – في قوله تعالى : { فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الصافات : 143-144] .

فكيف يلبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتي أجَل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس في بطنه؟

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء في المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر في كوب ماء ، فسوف تحتوي جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوي الأقل ، فقالب السكر لا يحتوي الماء ، إنما الماء يحتوي السكر .

فلو مات الحوت ، ومات في بطنه يونس – عليه السلام – وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو في بطنه رغم تناثر ذراتهما . { فاستجبنا لَهُ . . . } .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

استجاب الله نداء يونس – عليه السلام – ونجَّاه من الكرب { وكذلك نُنجِي المؤمنين } [الأنبياء : 88] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء { وكذلك . . . } [الأنبياء : 88] أي : مثل هذا الإنجاء نُنْجي المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : { لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] فيُذهِب الله غَمَّه ، ويُفرِّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه : « ثوِّروا القرآن » يعني : أثيروه ونقِّبوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرِج من آياته الدواء لكل داء ، ويكون كما نقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق في الصدر لا يردي سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعتري الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى مِمّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان في هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مع المرْءِ حَاجَاتُه ... وتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها ، وهم في ذلك مُخْطِئون؛ لأن تمام الشيء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قيلَ تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غِنيً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سِمَة البشر ، وسبحان مَنْ لا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمةَ ، وأنت ابنُ أغيار؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شيء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً؟ وهم لا يدرون أن هذا النقص هو الذي يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحترامهم ، غير أن بها شخصاً شريراً سِّيئاً ، يعيب الأسرة ، فهذا الشخص هو الذي يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدهم .

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى ، وعبَّر عنه في مدحه لسيف الدولة ، فقال :

شَخَصَ الأنَامُ إلَى كَمَالِكَ فَاستْعِذ ... مِنْ شَرِّ أعيُنهم بِعَيْبٍ وَاحِدٍ

نعود إلى (روشته) سيدنا جعفر الصادق التي استخلصها لنا من كتاب الله ، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : { حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } [آل عمران : 173] فإنِّي سمعت الله بعقبها يقول : { فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء . . } [آل عمران : 174] .

وعجبتُ لِمَنْ اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : { لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] فإنِّي سمعت الله بعقبها يقول : { فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين } [الأنبياء : 88] .

وعجبتُ لمن مُكِرَ به ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : { وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله } [غافر : 44] فإني سمعت الله بعقبها يقول : { فَوقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ . . . } [غافر : 45] .

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : { مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله . . . } [الكهف : 39] فإنِّ سمعت الله بعقبها يقول : { فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ . . . } [الكهف : 40] .

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئناً واثقاً من معيّة الله ، ويضع كما نقول (في بطنه بطيخة صيفي) ؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب في كل حال من هذه الأحوال ، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع ، وتعزو كل نعمة في ذاتك أو في أهلك أو في مالك وتنسبها إلى الله ، وتعترف

بالمنعِم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نبي آخر من أنبيائه ، فيقول تعالى : { وَزَكَرِيّآ إِذْ نادى رَبَّهُ . . . } .

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89)

لقد بلغ زكريا – عليه السلام – من الكبر عتياً ، ولم يرزقه الله الولد ، فتوجه إلى الله : { قَالَ رَبِّ إِنِّيَ وَهَنَ العظم مِنِّي واشتعل الرأس شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً } [مريم : 4–5] .

فلما بشَّره الله بالولد تعجَّب؛ لأنه نظر إلى مُعْطيات الأسباب ، كيف يرزقه الله الولد ، وقد بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر ، فأراد أن يُؤكّد هذه البُشْرى : { قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً * قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [مريم : 8–9] .

يُطمئنُ الله تعالى نبيَّه زكريا : اطرح الأسباب الكونية للخَلْق؛ لأن الذي يُبشِّرك هو الخالق .

وقد تعلَّم زكريا من كفالته لمريم أن الله يُعطي بالأسباب ، ويعطي إن عزَّتْ الأسباب ، وقد تباري أهل مريم في كفالتها ، وتسابقوا في القيام بهذه الخدمة؛ لأنهم يعلمون شرفها ومكانتها؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها فأتوا بالأقلام ورموْها في البحر فخرج قلم زكريا ، ففاز بكفالة مريم : { ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران : 44] .

وإجراء القرعة لأهمية هذه المسألة ، وعِظَم شأنها ، والقرعة إجراء للمسائل على القَدَر ، حتى لا تتدخّل فيها الأهواء .

فلما كفَل زكريا مريم كان يُوفِّر لها ما تحتاج إليه ، ويرعى شئونها ، وفي أحد الأيام دخل عليها ، فوجد عندها طعاماً لم يأْتِ به : { قَالَ يامريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وهنا مَلْحظ وإشارة إلى ضرورة متابعة ربِّ الأسرة لأسرته ، فإذا ما رأى في البيت شيئاً لم يأْتِ به فليسأل عن مصدره ، فربما امتدت يد الأولاد إلى ما ليس لهم ، إنه أصل لقانون « من أين لك هذا؟ » الذي نحتاج إلى تطبيقه حين نشكّ .

التقط زكريا إجابة مريم التي جاءتْ سريعة واثقة ، تدل على الحق الواضح الذي لا يتلجلج : { قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

نعم ، هذه مسألة يعرفها زكريا ، لكنها لم تكُنْ في بُؤْرة شعوره ، فقد ذكَّرته بها مريم : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدعآء } [آل عمران : 38] .

أي : ما دام الأمر كذلك ، فَهَبْ لي ولداً يرثُ النوبة من بعدي . ثم يذكر حيثيات ضَعْفه وكِبَر

سِنَّه ، وكوْنَ امرأته عاقراً ، وهي حيثيات المنع لا حيثيات الإنجاب؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب .

وهكذا ، استفاد زكريا من هذه الكلمة ، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد ، وحينما جاءها الحَمْل في المسيح بدون الأسباب الكونية .

وهنا يدعو زكريا ربه ، فيقول : { رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين } [الأنبياء : **89**] أي : لا أطلب الولد ليرث مُلْكي من بعدي ، فأنت خير الوارثين ترِثُ الأرضَ والسماء ، ولك كل شيء . { فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا . . . } .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)

فلم تكُنْ استجابة الله لزكريا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً ، إنما أيضاً سماه ، ولله تعالى سِرٌّ في هذه التسمية؛ لأن الناس أحرار في وَضْع الأسماء للمُسمّيات كما قلنا فلا مانع أن نسمي فتاة زنجية (قمر) ؛ لأن الاسم يخرج عن معناه الأصلي ، ليصير عَلَماً على هذا المسمى . إذن : هناك فَرْق بين الاسم وبين المسمَّى .

وقد نُسمِّي الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك ، كالذي سمَّي ولده يحيى ، ويظهر أنه كان يعاني من موت الأولاد؛ لذلك قال :

فَسمَّيْتُه يَحيى ليحيى فَلَم يكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فيه سَبيلُ

أي : سمَّيْته يحي أملاً في أن يحيا ، لكن هذا لم يردّ عنه قضاء الله .

وكذلك لما سمَّي عبد المطلب محمداً قال : سمَّيته محمداً لُيحمد في الأرض وفي السماء .

لكن ، حين يُسمِّي يحيى مَنْ يملك الحياة ويملك الموت ، فلا بُدَّ أن يكون اسماً على مُسمَّى ، ولا بُدَّ له أن يحيا ، حتى إنْ مات يموت شهيداً ، لتتحقق له الحياة حتى بعد الموت .

ومعنى : { وَوَهَبْنَا . . } [الأنبياء : **90**] أي : أعطيناه بدون قانون التكوين الإنساني ، وبدون أسباب .

ثم يقول سبحانه : { وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ . . . } [الأنبياء : **90**] فبعَد أنْ كانت عاقراً لا تلد أجرينا لها عملية ربانية أعادتْ لها مسألة الإنجاب؛لأن المرأة تلد طالما فيها البويضات التي تكوِّن الجنين ، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات قد أصبحت عقيماً ، وهذه البويضات في عنقود ، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض في الدجاجة؛ لذلك يسمون آخر الأولاد « آخر العنقود » .

إذن : وُجِد يحيى من غير الأسباب الكونية للميلاد؛ لأن المكوِّن سبحانه أراد ذلك .

لكن ، لماذا لم يقُلْ لزكريا أصلحناك؟ قالوا : لأن الرجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العملية الجنسية ، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة المستقبِلة ، فهي التي يحدث منها التوقُّف .

وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ، فنرى الزوجين صحيحين ، أجهزتُهما صالحة للإنجاب ، ومع ذلك لا ينجبان ، فإذا ما تزوج كل منهما بزوج آخر ينجب؛ لأن المسألة ليست (آليّة) ، بيل وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله ومشيئته .

لذلك يقول تعالى : { لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً . . . } [الشورى : 49 – 50] .

ثم تُوضّح الآيات سبب وعِلّة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا – عليه السلام : { إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ } [الأنبياء : 90]

هذه صفات ثلاث أهّلَتْ زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهي ، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهي أيضاً ليستْ خاصة به إنما بكل مؤمن يُقدّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعاني من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ به أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا – عليه السلام – وأهله { إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ } [الأنبياء : 90] خذوها (روشتة) ربانية ، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات : { إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . } [الأنبياء : 90] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون بُخَلاء مُمْسِكين ، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق ، فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع في الخيرات بشتى أنواعها ، فقد تحدَّى الطبيعة وسار ضدها في هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا في الخيرات ، ثم توجَّهوا إلى الله بالدعاء رَغَباً ورَهَباً ، فإن الله تعالى وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : { وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ } [الأنبياء : 90] يعني : راضين بقدرنا فيهم ، راضين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغي للمؤمن أنْ يتمرَّد على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق في الناس .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91)

ولك أن تسأل : لماذا يأتي ذِكْر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبي من دون خَلْق الله ، وكوْنه يصطفي مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع

من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر ، أمّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر في غيرها أبداً .

وقوله تعالى : { والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا . . } [الأنبياء : 91] يعني : عَفَّتْ وحفظتْ فَرْجها ، فلم تمكِّن منها أحداً .

ومعنى : { فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا . . } [الأنبياء : 91] يعني : مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر ذكورة أو انتقاء ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . } [الحجر : 29] .

ثم يقول تعالى : { وَجَعَلْنَاهَا وابنهآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 91] يعني : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة ، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه بعد سَرْد لقطات من موكب الأنبياء :

{ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . . } .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)

الأمة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو مُلك مَلِك أو دين ، كما جاء في قوله تعالى : { وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ . . } [الزخرف : 22] يعني : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةٌ حال كَوْنها أمةً واحدة ، لا اختلافَ فيها والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ وُضِعت هذه اللبنة؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

والمعنى أن به صلى الله عليه وسلم تتم النبوة وتختم .

وتُطلَق الأمة على الرجل الذي يجمع خصال الخير كلها؛ لأن الله تعالى بعثر خصال الخير في الخَلْق ، فليس هناك مَنْ هو مُجْمع مواهب وفضائل ، إنما في كل منا ميزةٌ وفضيلةٌ في جانب من الجوانب؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إمَّا بحاجات تطوُّعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرجوا في الجامعة فَمنْ للمِهَن والحِرَف الأخرى؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضي مثل هذه الأمور؟ لو تعطلتْ مجاري الصرف الصحي ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوُّع .

أمّا المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما

خرجَ عامل الصرف الصحي في الصباح إلى هذا العمل الشاقّ المنفّر ، لكن كيف وفي رقبته مسئولية أُسْرة وأولاد ونفقات؟

وسبق أنْ قُلْنا : ينبغي ألاَّ يغترَّ المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هي الرابطة في المجتمع ، ولو كانَ التطوّع والتفضّل فلن نحقق شيئاً ، فلو قلنا للعامل : تفضل بكنس الشارع لوجدَ ألْفَ عذر يعتذر به ، أما إنْ كان أولاده سيموتون جوعاً إن لم يعمل فلا شكَّ أنه سيُسرع ويُبادر .

فالحقيقة أن كل فرد في المجتمع لا يخدم إلا نفسه ، فكما تنفع الآخرين تنتفع بهم؛ لذلك إياك أنْ تحسد صاحب التفوق على تفوّقه في أمر من الأمور؛ لأن تفوقه في النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل في أمور الدنيا نقولها في أمور الآخرة ، حين نرى صاحب التديُّن ، وصاحب الخُلق والالتزام لا نهزأ به ولا نسخر منه ، كما يحلو للبعض؛ لأن صلاحه سيعود عليك ، وسوف تنتفع بتديُّنه واستقامته ولعلنا نُرزَق بسبب هؤلاء .

وقد يكون في البيت الواحد فُتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم مُعوَّق أو مجنون أو مجذوب ، فترى الجميع يحتقرونه ، ويُهوِّنون من شأنه ، أو تراه منبوذاً بين هؤلاء مُبْعَداً ، لا يشرُف بمعرفته أحد ، وربما يعيشون جميعاً في ظِلِّه ويُرزَقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فيه عيب أو إعاقة ، ووالله لو رضيتَ به وتقبلْتَ قضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهؤلاء خُلِقوا هكذا لحكمة ، حتى لا نتمرد على صَنْعة الله في كَوْنه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل عليهم ، ولنعلم أن الله تعالى لا يسلب شيئاً من عبده إلاّ وقد أعطاه عِوَضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثلاً أحوال الناس المجاذيب الذين تراهم في أيِّ مكان مُهملين يستقلهم الناس ، وينفرون من هيئتهم الرثّة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجاه والسلطان إذا نزلتْ بهم ضائقة وأعيَتْهم الأسباب يلجئون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتمسون منهم البركة والدعاء ، وهذا في حَدِّ ذاته أسمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسموعةً وأمرهم مُطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتمحك فيه ، ويدعوه إلى طعامه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحتضنه ، لأنه جرَّب وعلم أن لديه فيضاً من فيض الله وكرامة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن لله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإنْ كان العقل هو أعزّ ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذي فقد العقل ، وحُرِم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق؟ هل رأيتم مجنوناً يزني؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر؟
إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً؛ لأن خالقه عز وجل وإنْ سلبه العقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كما تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقى بنفسه مثلاً أمام القطار؟
إذن : علينا ألاَّ نُحقِّر هؤلاء ، وألاَّ نستقل بهم فقد عوَّضهم الله عما سلبه منهم ، ومنّا مَنْ يسعى ليصل إلى ما وصلوا هم إليه ولا يستطيع ، ومَنْ مِنّا لا يتمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذي يتمسَّح الناس فيه ، ويطلبون منه البركة والدعاء؟ وأيُّ عظمة يطلبها الإنسان فوق هذا؟ ويكفي هذا أنه لا يُسأَلُ عَمّا يفعل في الدنيا ، ولا يُسْأَل كذلك في الآخرة .
نعود إلى قول الله تعالى : { إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . . } [الأنبياء : 92] فمن معاني أمة : الرجل الذي جمع خصال الخير كلها؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . } [النحل : 120] .
يعني : جمع من خصال الخير مَا لا يوجد إلا في أمة كاملة .
والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجي عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كُلُّ إله بما خلق ، ولعلاَ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال .

إذن : كما قال سبحانه : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . } [المؤمنون : 71] .
فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتتتْ .
وكأن الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ، ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .
ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوي تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويُطوِّعها ، ولو أنكم أمة مثقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضاً أُمِّي
إذن : فلا بُدَّ أن يكون المنهج الذي جاء به ليسلب هذه الحضارات عِزَّها ومجدَها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .
ثم يقول تعالى : { وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون } [الأنبياء : 92] أي : التزموا بمنهجي لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقُلْ : إلهكم؛ لأن الرب هو الذي خلق ورزق وربى ، أمّا الإله فهو الذي يطلب التكاليف .

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذي خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عُدْم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق حتى العاصي والكافر بي ، فأنا أوْلَى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيري ، هذا منطق العقل السليم ، وكما يقولون (اللي يأكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ومن العبادة أن تطيع الله في أمره ونَهْيه؛ لأن ثمرة هذه الطاعة عائدة عليك بالنفع ، فلله تعالى صفات الكمال الأزليّ قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً في مُلْك الله ، ومعصيتك لن تنتقص منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثيبك على فعل هو في الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة واحدة كهذه الأمة التي أدخلتْ الدنيا في رحاب الإسلام في نصف قرن؟ هذه الأمة التي ما زلنا نرى أثرها في البلاد التي تمردتْ على العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى حضاراتهم ، إن الدين الذي يصنع هذا ، والأمة الواحدة التي تحمَّلتْ هذه المسئولية ما كان ينبغي أن نتخلى عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة؟ تجيب الآيات : { وتقطعوا أَمْرَهُمْ . . } .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93)

أي : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : { إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . } [الأنعام : 159] .

لماذا ، لست منهم في شيء؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفتْ ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددتْ مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أمَّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قِطَعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكأن آلهتهم متعددة ، فهل سيُتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا في النهاية؟

{ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } [الأنبياء : 93] إذن : أنتم أمة واحدة في الخَلْق من البداية ، وأمة واحدة في المرجع وفي النهاية ، فلماذا تختلفون في وسط الطريق؟

إذن : الاختلاف ناشيء من اختلاف المنهج ، وكان ينبغي أن يكون واضع المنهج واحداً . وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم خَاتَماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التي تتطلبها العصور التي تلي بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع المانع الشامل ، الذي لا يمكن أن

يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر في تكليفاهّا عن إله واحد ، فلا يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التي تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أيِّ جماعة منكم؟! لأن الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } [الأنعام : **159**] .

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذي يأتي على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذي يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يَعُدْ يجمعهم إلا قَوْلُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السيء ، ثم يعودون في النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حَلَّ إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حَلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حَلٌّ للتعددية التي أضعفتْ المسلمين وقوَّضَتْ أُخوَّهم التي قال الله فيها : { واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً . . } [آل عمران : **103**] .

ووالله ، لو عُدْنا إلى حبل الله الواحد فتمسَّكنا به ، ولم تلعب بنا الأهواء لَعُدْنا إلى الأمة الواحدة التي سادتْ الدنيا كلها .

إذن : { إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } [الأنبياء : **93**] أي : في الآخرة للحساب ، وأنا أقول يا رب . . لعل هذا الرجوع يكون في الدنيا بأنْ تعضّنا قوانين البشر ، فنفزع إلى الله ونعود إليه من جديد ، فيعود لنا مجدنا ، ويصْدُق فينا قَوْل الرسول صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء » .

ويُعزّز هذا الفهم ويُقوّي هذا الرجاء قول الله تعالى بعدها : { فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ . . } .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94)

الحق –سبحانه وتعالى– يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تَشهد أن أيَّ مبدأ باطل ، أو شعار زائف زائل يُزخرفون به أهواءهم لا يلبث أنْ ينهار ولو بَعْد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعدلون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعي الذي ساد روسيا منذ عام **1917** وانتهكت في سبيله الحرمات ،

وسفكتْ الدماء ، وهدمتْ البيوت ، وأخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة تصدر الغذاء لدول العالم أصبحت الآن تتسول من دول العالم ، وهم أول مَنْ ضَجَّ من هذا الفكر وعانى من هذه القوانين .

وقوله تعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ . . } [الأنبياء : 94] ربط العمل الصالح بالإيمان ، لأنه مُنطلَق المؤمن في كُلِّ ما يأتي وفي كُلِّ ما يدع؛ لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أمّا مَنْ يعمل الصالح لذات الصلاح ومن منطلق الإنسانية والمروءة ، ولا يخلو هذا كله في النهاية عن أهواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه في الدنيا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيادة والسُّمْعة ، وليس له نصيب في ثواب الآخرة؛ لأنه فَعَل الخير وليس في باله الله .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لذلك في قوله تعالى : { الذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ . . } [النور : 39] .

يعني : فوجئ بوجود إله يحاسبه ويجازيه ، وهذه مسألة لم تكُنْ على باله ، فيقول له : عملتَ ليقال وقد قيل . وانتهت المسألة؛ لذلك يقول تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ . . } [الشورى : 20] أي : نعطيه أجره في عالم آخر لا نهاية له { وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

لأنه عَمِلَ للناس ، فليأخذ أجره منهم ، يُخلِّدون ذكراه ، ويُقيمون له المعارض والتماثيل . . الخ .

وقوله تعالى : { فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ . . } [الأنبياء : 94] يعني : لا نبخسه حَقَّه ولا نجحد سَعْيه أبداً { وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } [الأنبياء : 94] نسجِّل له أعماله ونحفظها ، والمفروض أن الإنسان هو الذي يُسجِّل لنفسه ، فإنْ سجَّل لك عملَك ربُّك الذي يُثيبك عليه ، وسجَّله على نفسه ، فلا شكَّ أنه تسجيل دقيق لا يبخسك مثقال ذرة من عملك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ . . } .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95)

{ حَرَامٌ . . } [الأنبياء : 95] يعني : ممتنع : لا يجب أن يكون ، والقرية : أي قرية أهلكناها؛ لأنها كذَّبَتْ الرسل ، ووقفتْ منهم موقف اللَّدَد والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بذنوبها في الدنيا ، أيُعقَلُ بعد هذا أن نتركها في الآخرة من غير أنْ نأخذها بذنوبها؟

لا بُدَّ - إذن - أن ترجع إلينا في الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم الخالد ، فلا نكتفي بحساب الدنيا المنتهي .

ثم يقول الحق سبحانه : { حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . } .

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96)

وردتْ قصة يأجوج ومأجوج في آخر سورة الكهف ، حينما سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل الجوَّال الذي طاف الأرض ، فنزلت : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً } [الكهف : 83] .

وقد تكلم العلماء في ذي القرنين ، منهم مَنْ قال : هو قورش ومنهم مَنْ قال هو : الإسكندر الأكبر . والقرآن لا يعنيه الشخص وإلاَّ لَذكره باسمه ، فالقرآن لا يُؤرِّخ له ، لا يقيم له تمثالاً ، إنما يريد التركيز على الأوصاف التي تعني الحق وتعني الخَلْق .

فيكفي أن نعلم أنه إنسان مكَّنَه الله في الأرض . يعني : أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة ، وأعطاه من كُلِّ مُقوِّمات القوة : أعطاه المال والعلم والجيوش ، فلم يكتف بذلك كله ، بل { فَأَتْبَعَ سَبَباً } [الكهف : 85] يعني : أخذ بالأسباب التي تؤدِّي إلى الخير .

وسبق أنْ تحدثنا عن تشخيص البطل في قصص القرآن؛ لأن القرآن لا يُؤرِّخ للشخصية ، ولا يُعطى لها خصوصية ، وإنما يريدها عامة لتكون مثلاً يُحتذَى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدِث الأثر المراد من القصة .

فما يعنينا في قصة ذي القرنين أنه رجل مُكِّن في الأرض ، وكان من صفاته كذا وكذا ، وما يعنينا من أهل الكهف أنهم فتية آمنوا بربهم وتمسَّكوا بدينهم وعقيدتهم وضَحَّوْا في سبيلها ، لا يهمنا الأشخاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك؛ أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأيّ فتية ، في أيّ زمان ، وفي أيّ مكان ، وبأيّ أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيماني ، ولو شخَّصناهم وعيَّناهم لَقالَ الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسْوة تسير في الزمان كله .

كذلك ، لما أراد القرآن أنْ يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يُعيِّنهما ، وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هي ، فالغرض من ضَرْب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حريةَ العقيدة واستقلاليةَ الرأي ، فليست هي تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكَّن كل منهما من هداية امرأته .

وفرعون الكافر الذى ادَّعَى الألوهية ، لم يستطع أن يمنع زوجته من الإيمان ، وهي قالت : { رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين } [التحريم : 11] .

إذن : ما يعنينا في قصة « ذي القرنين » أن الله مكَّن له في الأرض وأعطاه كُلَّ أسباب القوة والسيطرة؛ لذلك ائتمنه أنْ يكونَ ميزاناً للخير وللحق ، وفوَّضَهُ أن يقضي في الخَلْق بما يراه من الحق والعدل . { حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا

ياذا القرنين إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً } [الكهف : 86] .
لأننا مكَّنَّاه وفوَّضناه ، فاستعمل التمكين في موضعه ، وأخذ الأمانة بحقِّها ، فقال :

{ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً } [الكهف : 87] أي : نُعذِّبه على قَدْر مقدرتنا ، ثم يُرَدُّ إلى ربه فيُعذِّبه على قَدْر قدرته تعالى . { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } [الكهف : 88]
وهكذا يكون دستور الحياة من الحاكم الممكَّن في الخَلْق ، دستور الثواب والعقاب الذي تستقيم به أمور البلاد والعباد ، فحين يرى تقصيراً لا بُدَّ أنْ يأخذ على يد صاحبه مهما تكُنْ منزلته ، لا يخافه ولا ينافقه ولا يخشى في الله لومة لائم ، وإنْ رأى المحسن المجتهد يُثيبه ويكافئه .
وهذا القانون نراه في مجتمعنا يكاد يكون مُعطّلاً بين العاملين ، فاختلط الحابل بالنابل ، وتدهورتْ الأمور ، ودخلت بيننا مقاييس أخرى للثواب وللعقاب ما أنزل الله بها من سلطان ، فانقلبتْ الموازين ، حيث تبجح الكسالى ، وأُحْبِط المجدُّون المحسنون . { حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً } [الكهف : 90] .
هذا كُلُّ ما أخبر الله به ، ويبدو أنه وصل في تجواله العام إلى بلاد تظل الشمس بها مشرقة ثلاثة أو ستةَ أشهر لا تغرب؛ لذلك لم يجد لهم من دون الشمس ستْراً يسترها أيْ ظلمة { حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً } [الكهف : 93] .
ومع ذلك احتال أن يفهم منهم ، ويخاطبهم؛ لحرصه على نفعهم وما يصلحهم ، وهذه صفة الحاكم المؤمن حين يُمكَّن في الأرض ، وتُعطَى له أسباب القيادة ، ويُفوَّض في خَلْق الله ، ولو لم يكُنْ حريصاً على نفعهم لوجد العذر في كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه .
فلما توصلوا إلى لغة مشتركة ، ربما هي لغة الإشارة التي نتفاهم بها مع الأخرس مثلاً : { قَالُواْ ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً } [الكهف : 94] .
ثم أمرهم أن يأتوا بقطَع الحديد ، فأشعل فيها النار حتى احمرَّت فقال { آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً } [الكهف : 96] وهكذا صنع لهم السدَّ الذي يحميهم من هؤلاء القوم ، فلم يَقصُر نفعه لهم على هذه القضية ذاتها ، إنما نفعهم نَفْعاً يعطيهم الخير والقوة في ألاَّ يتعرضوا لمثلها بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التي تقول : لا تعطني سمكة ، ولكن علمني كيف أصطاد .
ذلك لأنه أشركهم في العمل؛ ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيانته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .
هذا هو النموذج الذي تُقدِّمه قصة « ذي القرنين » وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل المكان ولكل حاكم مكَّنه الله في الأرض ، وألقى بين يديه أزِمّة الأمور ، وفي حديث أفضل العمل يقول

صلى الله عليه وسلم : « تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق » .
وقد تضاربتْ الأقوال حول : مَنْ هم يأجوج ومأجوج ، فمنْ قائل : هم التتار .

وآخر قال : المغول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قبائل الهُونْ .
ولو كان في تحديدهم فائدة لعيَّنهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قوْمٌ مفسدون في الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم الممكَّن في الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد في غيرهم ، وعلينا نحن ألاَّ نُفسِد الصالح كهؤلاء ، إنما نترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً .
وفي بناء ذي القرنين للسد دروس يجب أنْ يعيها أولو الأمر الذين يتوَّلْون مصالح الخَلْق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم في بناء سدٍّ يمنع عنهم أذى عدوهم ، إنما اجتهد وترقَّى بالمسألة إلى ما هو أفضل لهم ، فالسدُّ الأصمّ المتماسك كقطعة واحدة يسهل هَدْمه أو النفاذ منه؛ لذلك قال : { فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً } [الكهف : 95] .
لقد طلبوا سداً وهو يقول : رَدْماً ، لقد رقَّى لهم الفكرة ، وأراد أن يصنع لهم سداً على هيئة خاصة تمتصّ الصدمات ، ولا تؤثر في بنائه؛ لأنه جعل بين الجانبين رَدْماً كأنه سوسته تُعطِي السدّ نوعاً من المرونة . وهكذا يجب أن يكون المؤمن عند تحمُّل مسئولية الخَلْق .
ولما عرضوا عليه المال نظير عمله أبى ، وقال : { مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ . . } [الكهف : 95] أي : عندي المال الكثير من عطاء الله لكن أعينوني بما لديكم من قوة . إذن : زكاة القوة أنْ تمنع الفساد من الغير .
نعود إلى قوله تعالى : { حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . } [الأنبياء : 96] فلها علاقة بقوله تعالى : { وتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ . . } [الأنبياء : 93] فتقطّع أهل الخير وتفرُّقهم يُجرِّئ عليهم أصحاب الفساد ، وأقل ما يقولونه في حقِّهم أنهم لو كانوا على خير لنفعوا أنفسهم ، فدعُوكم من كلامهم ، وهكذا يفُتُّ أهل الباطل في عَضُدِ أهل الحق ، ويصرفون الناس عنهم .
{ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . } [الأنبياء : 96] يعني : جاءت عناصر الفساد والفتنة في الكون ، وعناصر الفساد والفتنة لا تتمكن ولا تجد الفرصة والسلطة الزمنية إلا إذا غفل أهل الحق وتفرقوا فلم يردوهم ، ويأخذوا على أيديهم .
ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد في كل زمان ومكان ، فجنكيزخان الذي هدم أول ولاية إسلامية في خوارزم ، وكان عليها الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذي دخل بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخربّها وقتل أهلها حتى سالتْ الدماء ، وألقى بالكتب الإسلامية في النهر حتى كانت قنطرة يعبرون عليها . هؤلاء الذين نُسمِّيهم التتار .
إذن : فالقرآن قَصَّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج أيام ذي القرنين ، ثم رأيناهم في

حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم ويصدُّوا هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ، وهما مثالان للممكَّنين في الأرض ، مع أنهما من المماليك .

هذه الهجمات التترية للمفسدين في الأرض كانت هجمات همجية وحشية ، وقد تجمَّع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث في هجمات مدنية تغزونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا أمام وحدة المسلمين بقيادة صلاح الدين .

وهكذا على مرِّ التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهزَم إذا تفرّقنا وتقطّعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثبِت صِدْق القرآن فيما وجَّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : { وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ } [الأنبياء : 96] .

الحدب : المكان المرتفع ، نقول : فلان أحدب الظهر يعني : في ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أتوْا من أماكن مرتفعة في هضبة شمال الصين . ومعنى { يَنسِلُونَ } [الأنبياء : 96] يعني : يسرعون ، ومنه نقول : انسلَّ القماش؛ لأن القماش مُكوَّن من سُدى ولُحمة ، يعني خيوط طولية وخيوط عرضية ، تتداخل فتكوِّن القماش ، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتفكّ تداخلها مع خيوط الطول ، ولا تُنزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحكَمة بثَنْي السُّدَى على اللحمة .

ثم يقول الحق سبحانه : { واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ . . } .

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)

فكوْنُ أهل الفساد يأتون مُسْرِعين من كل حَدب وصَوْب إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : { اقتربت الساعة وانشق القمر } [القمر : 1] .

وقال : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . } [النحل : 1] .

وهذا تنبيه للغافل ، وتحذير للباغي من أهل الفساد ، وتطمين ورجاء للمظلومين المستضعفين المعتدَى عليهم : اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء .

{ واقترب الوعد الحق . . } [الأنبياء : 97] والوعد الحق أي : الصادق الذي يملك صاحبه أن يُنفّذه ، فقد تَعِد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وَعْد ، لكنه وَعْد باطل ، فالوعد يختلف حَسْب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكتَ من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكِّنك الظروف والأحوال من التنفيذ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد حقق ما وعد به ،

فالوعد الحق – إذن – هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه : { واقترب الوعد الحق . . } [الأنبياء : 97] فتنبه ولا تَقِسْ الدنيا بعمرها الأساسي ، إنما قِسْ الدنيا بعمرك فيها ، فهذه هي الدنيا بالنسبة لك ، ولا دَخْلَ لك بدنيا غيرك ، فإذا كنتَ لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شَكَّ أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكْثِك في قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليكِ كساعة من نهار ، كما قال سبحانه : {كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار . . } [يونس : 45] .

ولو تنَّبه كل مِنّا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن في هذا الإخفاء أعظمَ البيان ، فحين أخفاه ترقبناه في كل طَرْفة عَيْن ، وتنفُّس نَفَسٍ؛ لذلك يقولون : « مَنْ مات قامت قيامته » ، لأن القيامة تعنى الحساب والجزاء على الأعمال ، ومَنْ مات انقطع عمله ، وطُويَتْ صحيفته .

وقوله تعالى : { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ . . } [الأنبياء : 97] وَعْد الله هنا هو القيامة ، وهي تفاجئنا وتأتينا بغتة؛ لذلك نقول في (فَإِذَا) أنها الفجائية ، كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعني : فوجئت به ، وهكذا ساعةَ تقوم الساعة سوف تُفَاجِئ الجميع ، لا يدري أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه : { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ . . } [الأنبياء : 97]

وشخوص البصر يأتي حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتنظر مُنْدهِشاً يجمد جفنُك الأعلى الذي يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أنْ ترمش أو تطرف .

وفي آية أخرى يقول تعالى : { إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار } [إبراهيم : 42] .

وإذا أردتَ أن ترى شُخوص البصر فانظر إلى شخص يُفَاجأ بشئ لم يكُنْ في باله ، فتراه – بلا شعور وبغريزته التكوينية – شاخصَ البصر ، لا ينزل جفنه .

ثم يقولون : { ياويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا . . } [الأنبياء : 97] فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان : { ياويلنا } وهذا نداء للويل أي : جاء وقتُك فلم يَعُدْ أمامهم إلا أنْ يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاكَ ، ويدعو به لنفسه؟ نقول : نعم ، حين يفعل الإنسان الفعلَ ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق . . أنا أستاهل الضرب . . ؟ إنه لَوْم النفس وتأنيبها على ما كان منها ، فهي التي أوقعتْه في هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] . فلماذا لا يُؤنِّب نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهي التي أردتْه في التهلكة ، ففي هذا الموقف

تنقلب موازينهم التي اعتادوها في الدنيا ، فالأصدقاء في الشر وفي المعصية هم الآن الأعداء .
{ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا . . } [الأنبياء : 97] لم يكن هذا الموقف في بالنا ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة : أنْ تدرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .
لكن ، أيّ غفلة هذه والله – عز وجل – يُذكِّرنا بهذا الموقف في كل وقت من ليل أو نهار ، ألاَ ترى أنه سبحانه سَمَّى القرآن ذِكْراً ليزيح عنّا هذه الغفلة ، فكلما غفلتَ ذكّرك ، وهزَّ مواجدك ، وأثار عواطفك .
إذن : المسألة ليست غفلة؛ لذلك نراهم يستدركون على كلامهم ، فيقولون : { بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 97] لأنهم تذكَّروا أن الله تعالى طالما هَزَّ عواطفهم ، وحرَّك مواجيدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .
لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره في مثل هذا الموقف ، فلم يعُدْ الكذب مُجْدِياً ، ولعلّهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات .
وكأن الحق سبحانه يحكي عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها ، فتشخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم { ياويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا . . } [الأنبياء : 97] فيردّ عليهم إخوانهم : أيّ غفلة هذه ، وقد كان الله يُذكِّرنا بالقيامة وبهذا الموقف في كل وقت { بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 97] .
و (بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للكلام اللاحق ، وهكذا يُراجِعون أنفسهم ، ويُواجِه بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله . . } .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98)

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لنقطع عليكم أيَّ أمل في النجاة؛ لأنهم حين يروْنَ العذاب ربما تذكّروا هؤلاء ، وفكَّروا في اللجوء إليهم والاستنجاد بهم ، لعلّهم يُخرِجونهم من هذا المأزق ، وقد سبق أنْ قالوا عنهم : { هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله . . } [يونس : 18] وقالوا : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . } [الزمر : 3] .
لذلك ، يجمعهم الله جميعاً في جهنم ليقطع عنهم الآمال ، ويبدو خجل المعبود وخيبة العابد؛ لأنه جاء النارَ فوجد معبوده قد سبقه إليها . . لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفارُ الأصنامَ ، ومنهم مَنْ عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم مَنْ عبدوا عُزَيْراً ، ومنهم مَنْ عبدوا الملائكة ، فهل سيُجمع هؤلاء أيضاً مع عابديهم في النار؟
لو قُلْنا بهذا الرأي فدخولهم النار مثلما دخلها إبراهيم ، فجمع الله له النار والسلامة في وقت

واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أنْ يراهم عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم .
ومعنى { حَصَبُ جَهَنَّمَ . . } [الأنبياء : 98] الحصب مثل : الحطب ، وهو كل ما تُوقَد به النار أياً كان خشباً أو قَشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وفي آية أخرى : { وَقُودُهَا الناس والحجارة . . } [التحريم : 6] لذلك فإن النار نفسها تشتاق للكفار ، وتنتظرهم ، وتتلهّف عليهم كما يقول تعالى : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } [ق : 30] وقوله تعالى : { إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغيظ . . } [الملك : 7 – 8]
وقوله تعالى : { أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } [الأنبياء : 98] الورود هنا بمعنى : الدخول والمباشرة ، لا كالورود في الآية الأخرى : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا . . } [مريم : 71] .
ثم يقول الحق سبحانه : { لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا . . } .

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99)

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم؛ لينْقطِع أملهم في شفاعتهم التي يظنونها ، كما قال تعالى في شأن فرعون : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار . . } [هود : 98] فرئيسهم وفُتوتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكُنْ أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المأزق . ولو كان هؤلاء آلهة – كما تدَّعون – ما وردوا النار .
ومعنى : { وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ } [الأنبياء : 99] لأن المعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ، ثم تنتهي ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجَتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار مُتوقِّدة لا تنطفئ . ومعنى { كُلٌّ . . } [الأنبياء : 99] أي : العابد والمعبود .

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100)

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ في الشهيق الأكسجين ، ويُخرِج في الزفير ثاني أكسيد الكربون ، فنلحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق؛ لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس في النار هواء للشهيق ، فكأنه لا شهيقَ لهم ، أعاذنا الله من العذاب .
{ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ } [الأنبياء : 100] .
وهذه من الآيات التي توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آياتٍ أخرى تُثبت لهم في النار سَمْعاً وكلاماً . كما في قوله سبحانه : { ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين } [الأعراف : 44]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يَسُرُّ ، إنما يسمعون تبكيتاً وتأنيباً ، كما في قوله تعالى : { ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين } [الأعراف : 50] .

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101)

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين في النار ذكر المقابل ، وذِكْر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 13 – 14] .
ويقول : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً . . } [التوبة : 82] لذلك تظل المقارنة حيَّة في الذِّهْن .
ومعنى : { سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى . . } [الأنبياء : 101] الحُسْنَى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حَسَن ، وهذه حسنة ، فإنْ أردتَ المبالغة تقول : هذا أحسن ، وهذه حُسْنى . مثل : أكبر وكُبْرى . ومعنى : { سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى . . } [الأنبياء : 101] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حُكْم الله لهم ، وقد أخذ الله تعالى جزءاً من خَلْقه وقال : « هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي » .
ولا تقُلْ : ما ذنب هؤلاء؟ لأنه سبحانه حكم بسابق عِلْمه بطاعة هؤلاء ، ومعصية هؤلاء .
وقوله : { أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ } [الأنبياء : 101] أي : مبعدون عن النار .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشتهت . . } .

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102)

حسيس النار : أزيزها ، وما ينبعث منها من أصوات أول ما تشتعل { وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ } [الأنبياء : 102] فلم يقُلْ مثلاً : وهم بما اشتهتْ أنفسهم ، إنما { فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ . . } [الأنبياء : 102] كأنهم غارقون في النعيم ممَّا اشتهتْ أنفسهم ، كأن شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يُشوِّق أهل الخير والصلاح للجنة ونعيمها ، حتى نعمل لها ، ونُعِد العُدَّة لهذا النعيم .
وسبق أن قلنا : إن الإنسان يتعب في أول حياته ، ويتعلم صنعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح في مستقبل حياته ، وعلى قَدْر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا بُدَّ لها من حَرْث ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً .
وكنا نرى بعض الفلاحين يقضي يومه في حقله ، مهملَ الثياب ، رثَّ الهيئة ، لا يشغله إلا العمل في زرعه ، وآخر تراه مُهنْدماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يتندر على

صاحبه الذي يُشقِى نفسه في العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

إذن : ربك – عز وجل – أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة ، وفي الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلِّب في أرضه ويُثير تربتها دون أنْ يزرعها لَعوَّضه الله وأثمر تعبه ، ولو أن يجد شيئاً في الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وترف الإنسان وراحته بحسب تَعبه في بداية حياته ، فالذي يتعب ويعرق مثلاً عَشْر سنين يرتاح طوال عمره ، فإنْ تعب عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنْ تعِب ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترَف المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا عُلْيا ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة في مجتمعه .

لكن مهما أعدَّ الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترفها فإنه نعيم بقَدْر إمكانياته وطاقاته؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل – رحمه الله – كان ينزل فيه ، فأردنا أنْ نتجوّل فيه ، وفعلاً أخذنا بما فيه مظاهر الترف والأُبهة وروعة الهندسة ، وكان معي ناس من عِلْية القوم فقلتُ لهم : هذا ما أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدَّه رب العباد للعباد؟

فإذا ما رأيتَ أهل النعيم والترف في الدنيا فلا تحقد عليهم؛ لأن نعيمهم يُذكِّرك ويُشوّقك لنعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر . . . } .

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103)

ذلك لأنهم في نعيم دائم لا ينقطع ، وعطاء غير مجذوذ ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت؛ لذلك : { لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر . . . } [الأنبياء : 103] وأيُّ فزع مع هذه النعمة الباقية؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : { وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء : 103] فقد صَدَقكم الله وَعْده ، وأنجزَ لكم ما وعدكم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَ نَطْوِي السمآء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ . . . } .

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)

أي : ما يحدث من عذاب الكفار وتنعيم المؤمنين سيكون { يَوْمَ نَطْوِي السمآء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ . . } [الأنبياء : 104] و (يَوْمَ) : زمن وظَرْف للأحداث ، فكأن ما يحدث للكافرين من العذاب والتنكيل ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود في النعيم يتم في هذا اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذي نكتب فيه يُسمَّى سجلاً؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أي : نكتبه في ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى : { والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . . } [الزمر : 67] يطويها بقدرته؛ لأن اليمين عندنا هي الفاعلة في الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطي أنه الطي المعروف ، بل نأخذه في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . } [الشورى : 11] .

وقوله تعالى : { كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ . . } [الأنبياء : 104] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخَلْق الأول و { نُّعِيدُهُ . . } تدل على وجود خَلْق ثَان .

إذن : فقوله تعالى في موضع آخر : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ } [إبراهيم : 48] دليل على أن الخَلْق الأول خَلْق فيه الأسباب وفيه المسبّب ، فالحق سبحانه أعطاك في الدنيا مُقوِّمات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء . . . . الخ ، وهذه أمور لا دَخْل لك فيها ، وكل ما عليك أنْ تستخدمَ عقلك الذي خلقه الله في الترقي بهذه الأشياء والترف بها .

أما في الخلق الثاني فأنت فقط تستقبل النعيم من الله دون أَخْذ بالأسباب التي تعرفها في الدنيا؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسباب إنما بالمسبِّب سبحانه ، وحين ترى في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر تعلم أن فِعْل ربك لك أعظم من فِعْلك لنفسك .

ومهما ارتقتْ أسباب الترف في الدنيا ، ومهما تفنَّن الخَلْق في أسباب الراحة والخدمة الراقية ، فقصارى ما عندهم أن تضغط على زِرٍّ يفتح لك الباب ، أو يُحضِر لك الطعام أو القهوة ، لكن أتحدَّى العالم بما لدية من تقدُّم وتكنولوجيا أنْ يُقدم لي ما يخطر ببالي من طعام أو شراب ، فأراه أمامي دون أنْ أتكلم؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : { كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ . . } [الأنبياء : 103] فالمعنى ليستْ مجرد إعادته كما كان ، إنما نعيده على أَرْقى وأفضل مما كان بحيث يصل بك النعيم أنْ يخطرَ الشئ ببالك فتجده بين يديك ، بل إنَّ المؤمن في الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلْتُ مثل هذا من قبل فيُقَال له : ليس كذلك بل هو أفضل مما أكلْتَ ، وأهنأ مما تذوقتَ . فلو تناولتَ مثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لنوعية التُّرْبة والماء والجو المحيط به والمبيدات التي لا يستغني عنها الزرع هذه الأيام . . . إلخ . أمّا تفاح الآخرة فهو شيء آخر تماماً ، إنه صَنْعة ربانية وإعداد إلهيّ .

وكأن الحق سبحانه يلفت عباده إلى أن عنايته بهم أفضل من عنايتهم بأنفسهم؛ لأنه سبحانه أَوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكي نعلم الفرق بين الشيء في أيدينا والشيء في يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : { وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 104] أي : لا يُخرجنا شيء عمَّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ . . } .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزليٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : { كَتَبْنَا فِي الزبور . . } [الأنبياء : 105] الزبور : الكتاب الذي أُنزِل على نبي الله داود ، ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : { مِن بَعْدِ الذكر . . } [الأنبياء : 105] الذِّكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزَّبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذِكْر الذِّكْر ، وفيه كل شيء .

فمعنى : { كَتَبْنَا فِي الزبور . . } [الأنبياء : 105] أي : في الكتب التي أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه في اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه في الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : { مِن بَعْدِ الذكر . . } [الأنبياء : 105] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس في الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا { مِن بَعْدِ الذكر . . } [الأنبياء : 105] بعدية ذِكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذي كتبه الله لداود في الزبور؟ كتب له { أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون } [الأنبياء : 105] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين . كما في : { الأرض المُقَدَّسَةَ . . } [المائدة : 21] .

وفي : { فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض . . } [يوسف : 80] أي : التي كان بها .

وهنا يقول تعالى : { أَنَّ الأرض . . } [الأنبياء : 105] أي : الأرض عموماً { يَرِثُهَا . . } أي : تكون حقاً رسمياً لعبادي الصالحين . فأيُّ أرض هذه؟ أهي الأرض التي نحن عليها الآن؟ أم الأرض المبدلة؟

ما دُمْنا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة في الآخرة ، والتي يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما في قوله تعالى : { تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [الأعراف : 43] .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنة لِتسعَ كلَّ بني آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بني آدم إنْ كفروا ، فليس في المسألة زحام على أيّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، ودخل أهلُ النارِ النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار في الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التي حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذي يَعْمُرها ولو كان كافراً؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ }

[الشورى : 20] .

لكن عمارة الكفار للأرض وتمكينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففي السويد – مثلاً – وهي من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هي المعيشة الضَّنْك التي تحدَّث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى } **[طه : 124]**

فالضَّنْك لا يعني فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ في حُسبانك كُلَّ النواحي الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحي المادية الدنيوية أخذها وترف بها في الدينا ، أمّا الصلاح الديني والخُلقي والقِيَمي فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : { يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون } **[الأنبياء : 105]** الصلاح المادي الدنيوي ، والصلاح المعنوي الأخروي ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ . يقول تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } **[الفجر : 6 – 10]** .

إنها حضارات راقية دُفِنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوي ، الصلاح المنهجي من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذي يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذي يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم يُشرف ويُراقِب ، يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل ، ويضع الرجل المناسب في مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح في المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهي : اللجام الذي يكبح الفَرس ويُوجِّهها .

لذلك جاء في الحديث الشريف : « مَنْ ولَّى أحداً على جماعة ، وفي الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة » .

لماذا؟ لأن ذلك يُشيع الفساد في الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر ، وتُستبعد أنت .

أما حين تعتدِل كِفَة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ مِنّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعِدُّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مهمته ، ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولي) ومهمة الخولي الإشراف والمراقبة .

وفي يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها في صُحْبة الخولي ، وفي أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولي قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسَدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله؛ لأنه عمل بيده في حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

لكن لماذا هذه النظرة في إدارة الأعمال؟ قالوا : لإنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرِف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص في الأعمال .

وعلى الحاكم ووليّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أي فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاءَ في قوله تعالى في قصة القرنين : { قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } [الكهف : 87 – 88] .

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدي المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامي .

لذلك يقول تعالى : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله

وَعَدُوَّكُمْ } [الأنفال : 60] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذي يَردعه إنِ اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث إن السهم الذي يُرمى في سبيل الله ، لكل مَنْ شارك في إعداده ورمية جزء من الثواب ، فالذي قطعه من الشجرة والذي براه ، والذي وضعه في القوس ورمى به؛ لأن في ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هي مسئولية كل فرد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء في الحديث : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهي مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » .

وعلى العامل ألاّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء في الحديث القدسي

« » إن كنتم تعتقدون أَنِيّ لا أراكم فالخَلل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أَنِيّ أراكم فَلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم؟ « .

والمتأمل في حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا . . . ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هي عملك الذي تتقنه ، والباقي حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك في تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين هذا؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحي أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشيء الذي يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التي يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التي نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ . . } [الحجرات : 13

. [

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا في إتقان العمل ، فقيمة كل امرئ ما يُحسِنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسي كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالي الوزير أنك كنت في يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم . . لكني كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك في شيء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيّز به عنك غيرُك؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابي أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز في سعادته مع أهله أو في أمانته وثقة الناس به ، أو في رضاه بما قسم له أو في مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُمَيَّز الواحد مِنَّا بالولد الصالح الذي يكون مِطْواعاً لأبيه ، وقُرة عَيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدّرة محسوبة؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحِقْد والغلّ ، وهكذا يتوازن المجتمع ، ولا يكون التميز مثار حقدٍ؛ لأن تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق – سبحانه وتعالى – يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان في الدنيا ، فأظلهم الله في الآخرة .

كما جاء في الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق في المساجد ، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ في الكون ، فاستحقوا مظلَّة الله في الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذي نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه في الحديث القدسي : « » أحب ثلاثة وحُبِّي لثلاثة أشدُّ – فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين – أحب الفقير المتواضع ، وحُبِّي للغني المتواضع أشد – لأن عنده أسبابَ الكبر ومع ذلك يتواضع – وأحب الغنيّ الكريم وحُبِّي للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبي للشاب الطائع أشدُّ «

. » وأكره ثلاثة وكُرْهي لثلاثة أشد : أكره الغني المتكبر ، وكُرْهي للفقير المتكبر أشدّ ، وأكره الفقير البخيل ، وكُرْهي للغني البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصي وكرهي للشيخ العاصي أشد . «

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة في المحبوبية ، وستة في المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى .

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106)

البلاغ : الشيء المهم الذي يجب أن يعلمه الناس؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى : { إِنَّ فِي هذا لَبَلاَغاً . . } [الأنبياء : 106] أي : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الأعلى الذي لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه في شيء . فهو مُنتهى ما يمكن أنْ أخبركم به .

وهو بلاغ لمن؟ { لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ } [الأنبياء : 106] أي : يتلقفون مُرادَ الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)

وما دام صلى الله عليه وسلم خاتَم الرسل ، وبعثتُه للناس كافة ، وللزمن كله إلى أنْ تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً؛ لذلك لا بُدَّ لها أنْ تتسعَ لك أقضية الحياة التي تعاصرها أنت ، والتي يعاصرها خَلَفُك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رحمةً لهم جميعاً؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل – عليه السلام – كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : { ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ } [التكوير : 20] فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للجماد؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفي الحديث الشريف : « ما من مسلم يزرع زَرْعاً ، أو يغرس غَرْساً فيأكلَ منه طيْرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » .

وحديث المرأة التي دخلتْ النار في هِرَّة حبستْها ، فلا هي أطعمتْها وسقتْها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض .

وحديث الرجل الذي دخل الجنة؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ، فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقي الكلب .

وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففي الدين مبدأ ومنهج يُنظِّم كل شيء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الناس؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 107] يعني أن كل ما يجيء به الإسلام داخل في عناصر الرحمة .

ثم يقول سبحانه : { قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ . . . } .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108)

فالوحدانية هي أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبده وحده لا شريكَ له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهةً متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك؛ فالحق - سبحانه وتعالى - يطلب منا أنْ نعتزّ وأنْ نفخَر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفي هذا يقول الشاعر الإسلامي محمد إقبال :

والسُّجود الذِي تَجْتويِه ... مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فِيهِ نَجَاةُ

فسجودك لله وتعفير وجهك له سبحانه يحميك من السجود لغيره ، ولولا سجودك لله لَسجدت لكل مَنْ هو أقوى منك ، فعليك - إذن - أن تعتز بعبوديتك لله؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من البشر ، وحتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حُرٌّ مثلك .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في هذه المسألة في قوله تعالى : { ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً } [الزمر : 29] فهل يستوي عبد لعدة أسياد يتجاذبونه في وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سَلَمَاً لسيد واحد؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضع لا نخضع إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لي؛ لذلك يقولون « اللي الشرع يقطع صباعه ميخرش دم » لأنه أمر من أعلى ، من السماء ، لا دَخْلَ لأحد فيه .

لذلك؛ فالعبودية تُكره حين تكون عبوديةً للبشر ، لأن عبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير

عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .
والشاعر يقول :
حَسْبُ نفسي عِزاً بأنِيّ عَبْدٌ ... يحتفي بي بلاَ مواعيدَ رَبُّ
هُوَ في قُدْسِه الأعزِّ ولكِنْ ... أنا ألْقَى متى وأيْنَ أُحِبُّ
ولك أنْ تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومقابلة ربك عز وجل . فإنْ أردتَ الدخولَ على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ، ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإنْ قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ، فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .
أما إن أردتَ مقابلة ربك - عز وجل - فما عليك إلا أنْ تتوضأ وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون في معية الله ، وقد اخترتَ أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .
أَلاَ ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله في رحلة « الإسراء والمعراج » بأنْ وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ } [الإسراء : 1] إذن : جاء قوله تعالى : { قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ . . } [الأنبياء : 108] بعد قوله : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 107] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .
ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه في هذه العبودية ، فيقول : { فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ } [الأنبياء : 108] كما تحث ولدك المتكاسل أن يكون مثلَ زميله الذي تفوَّق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألا تذاكر وتجتهد حتى تكون مثله؟
وهكذا في { فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ } [الأنبياء : 108] أي : مسلمون لله؛ لأن مصلحتكم في الإسلام وعزّكم في عبوديتكم لله .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109)

{ فَإِن تَوَلَّوْاْ } [الأنبياء : 109] يعني : أعرضوا وانصرفوا { فَقُلْ آذَنتُكُمْ . . } [الأنبياء : 109] مادة : أذن ومنها الأذان تعني الإعلام بالشيء ، والأصل في الإعلام كان في الأُذُن بالكلام ، حيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام ، والسماع بالأذن ، فمعنى : { آذَنتُكُمْ . . } [الأنبياء : 109] أعلمتُكم وأخبرتُكم .
وقوله تعالى : { على سَوَآءٍ . . } [الأنبياء : 109] يعني : جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخصّ أحداً دون الآخر ، فأنتم في الإعلام سواء ، لا يتميز منكم أحد على أحد؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول : « نضَّر الله امْرأً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع » وهكذا يشيع الخيْر ويتداول بين

الجميع .
{ فَقُلْ آذَنتُكُمْ على سَوَآءٍ . . } [الأنبياء : 109] فلم أُعْلِم قوماً دون قوم ، ولم أُسْمِع أُذناً دون أُذن ، وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .
ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : { وَإِنْ أدري أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ } [الأنبياء : 109] فانتبهوا وخُذوا بالكم ، واحتاطوا ، فلا أدري لعلَّ الساعةَ تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم من قبل أنْ أُنهي كلامي معكم .
لذلك؛ لما سألوا أحد الصالحين : فِيمَ أفنيتَ عمرك؟ قال : « أفنيت عمري في أربعة أشياء : علمت أني لا أخلو من نظر الله طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لي رزْقاً لا يتجاوزني قد ضمنه الله لي فقنعتُ به ، وعلمتُ أن عليَّ دَيْناً لا يؤديه عني غيري فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لي أَجَلاً يبادرني فبادرتُه » .
إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول . . } .

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110)

وما دام ربك – عز وجل – يعلم الجهر ويعلم السرَّ وأخفى ، فإياك أنْ تنافق؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أَوْلى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذي يعلم سِرَّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أنْ يُراقبوا علانيتك . لذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفِّي عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفي عن نظر الله وعلمه؟
وقوله تعالى : { إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } [الأنبياء : 110] يُعلّمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب في الجهر من باب أَوْلَى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غَيْب غير مشهد ، وهَبْ أنك في بيتك تعلم كل شيء فيه؛ لأنه مشهد لك ، أمّا ما كان خارج البيت فهو غَيْب عنك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غَيْب يعلم كل مَشْهد وكل غيب .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ . . } .

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111)

أي : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم فتنةٌ واختبار ، يا ترى أتُوفَّقون وتفوزون في هذا الاختبار ، كما قال سبحانه في موضع آخر : { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 55] .

وقال تعالى : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ } [آل عمران : 178] .

وقوله تعالى : { وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ } [الأنبياء : 111] أي : لن يدوم هذا النعيم وهذا المتاع؛ لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه في ختام سورة الأنبياء : { قَالَ رَبِّ احكم بالحق وَرَبُّنَا الرحمن . . } .

قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112)

قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ احكم بالحق . . } [الأنبياء : 112] كما دعا بذلك الرسل السابقون : { رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين } [الأعراف : 89] .

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق؟ قالوا : الحق سبحانه يُبيّن لنا؛ لأننا عِشْنا في الدنيا ورأينا كثيراً من الباطل ، فكأننا لأول مرة نسمع الحكم بالحق .

ثم يقول سبحانه : { وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ } [الأنبياء : 112] أي : المستعان على تُجرمون فيه من نسبتنا إلى الجنون ، أو إلى السحر . . الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه في آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَيِّ السماء كطيّ السجل للكتب ، ثم قال : { لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ . . } [الأنبياء : 111] { وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ } [الأنبياء : 111] ، ثم قال : { رَبِّ احكم بالحق . . } [الأنبياء : 112] هذا كله ليُقرِّب لنا مسألة الساعة وقيامها ، ويُعِدُّنا لاستقبال « سورة الحج » .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادةً ما يأتي الخطاب الذي يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعي يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : { ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ . . } [الحج : 1] يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة { اتقوا رَبَّكُمْ . . } [الحج : 1] التقوى : أنْ تجعل بينك وبين ما أحذِّرك عنه وقايةً ، أي : شيئاً يقيك العذاب الذي لا طاقةَ لك به .

ونلحظ أن الله تعالى يقول مرة : { واتقوا الله . . } [البقرة : 194] ومرة يقول : { فاتقوا النار . . } [البقرة : 24] نعم ، لأن المعنى ينتهي إلى شيء واحد . معنى : { فاتقوا النار . . } [البقرة : 24] أي : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفِعْل الأمر وتَرْك النهي .

وقوله : { واتقوا الله . . } [البقرة : 194] لأن الله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ،

صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط ، والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه .

فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقايةً ، فليستْ بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قَهْره . فكما نقول : اتقِ الله نقول : اتقِ النار .

واختار في هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : { اتقوا رَبَّكُمْ . . } [الحج : 1] ولم يقُلْ : اتقوا الله؛ لأن الرب هو المتوِلّي للرعاية وللتربية ، فالذي يُحذّرك هو الذي يُحبك ويُعطيك ، وهو الذي خلقك وربَّاك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم ، فأوْلى بك أن تتقيه ، لأنه قدَّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعني التكاليف والعبادة بافْعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نَهَى .

ثم يقول تعالى : { إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ } [الحج : 1] الزلزلة : هي الحركة العنيفة الشديدة التي تُخرِج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزْه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً في الأرض يخرج منه ، إنما لو حاولت جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقة في خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب في خلع الضِّرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التي تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال : { إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً * وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً } [الواقعة : 4 – 6]

ويقول : { إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 1 – 5] .

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذي نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدْق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير في الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث في الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا في الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال « أغادير » لاحظوا أن الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، فأيُّ إعلام هذا؟ وأيُّ استشعار لديها وهي بهائم في نظرنا لا تفهم ولا تعي؟

إن في ذلك إشارة للإنسان الذي يعتبر نفسه سيد هذا الكون : تنّبه ، فلولا أن الله سَيَّدَك لوكزتْكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحي من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

لذلك وُصِف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : { إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ } [الحج : 1]

فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أن تتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افتُتِحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال : { واقترب الوعد الحق . . } [الأنبياء : 97] فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ .

وكذلك في قوله تعالى : { وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا } [الزلزلة : 2] .

فَمَا نراه من البراكين ومن الثروات في باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية؛ لذلك قال تعالى : { لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى } [طه : 6] .

ما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثَّرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثروات وأشياءَ نفيسة ، ونحن الآن نُخرِج معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب . . إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق - سبحانه وتعالى - بعثَر الخيرات في كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : { وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا . . } .

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء الذي نعلمه إما : علمَ اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين . علم اليقين : أنْ يخبر مَنْ تثق به بشيء ، كما تواترت الأخبارعن الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا « عين اليقين » فإذا نزلتَ بها وتجولتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك؛ حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً في النار فهذا الإخبار صادق من الله فعِلْمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها فهذا « عين اليقين » كما قال سبحانه : { ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين } [التكاثر : 7]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرّها ولظاها – وهذا مقصور على أهل النار – فقد علموها حَقَّ اليقين ، لذلك يقول تعالى : { وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم } [الواقعة : **90 – 96**]

ومعنى : { تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ . . } [الحج : 2] الذهول : هو انصراف حاجة عن مهمتها الحقيقية لهَوْلٍ رأته فتنشغل بما رأته عن تأدية وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول – إذن – سلوك لا إرادي قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

العاطفة كالأم التي تذهَلُ عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففي مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط في مشيتها ، وفي حركاتها ، خوفاً على الجنين في بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها في قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرض لما يؤذيه أو يُودِي بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى ، فحسب الحاجة يعطي الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهي كذلك في مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأيُّ هول هذا الذي يشغلها ، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ويُعطِّل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى في قوله تعالى : { يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ } [عبس : **34 – 36**] .

ومن عظمة الأسلوب القرآني أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا : لأن الوالدين قد يُوجدان في وقت لا يرى أنهما في حاجة إليه ، ولا هو في حاجة إليهما لأنه كبر ، أَمَّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة .

وقوله تعالى : { كُلُّ مُرْضِعَةٍ . . } [الحج : 2]

والمرضعة تأتي بفتح الضاد وكَسْرها : مُرضَعة بالفتح هي التي من شأنها أن ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهي التي تُرضع فعلاً ، وتضع الآن ثديها في فَم ولدها ، فهي مرضِعة فانظر – إذن – إلى مدى الذهول والانشغال في مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : { وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا . . } [الحج : 2] بعد أنْ تكلَّم عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى في تكوينها الجسماني ، فالرحم بمجرد أنْ تصل إليه البويضة المخصبة ينغلق عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : { وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . } [الحج : 5] .

فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه – إذن – مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن : وَضْع هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحَمْل نوعان : ثقَل تحمله وهو غيرك ، وثقل تحمله في ذاتك ، ومنه قوله تعالى : { وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً } [طه : 101] والحِمْل (بكسر الحاء) : هو الشيء الثقيل الذي لا يُطيقه ظهرك ، أمّا الحَمْل بالفتح فهو : الشيء اليسير تحمله في نفسك . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أطَاقَ الظَّهْرُ ... مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْر

أي : أن الشيء الذي تطيق حَمْله ويَقْوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهمّ الذي يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : { وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ } [الحج : 2] سكارى : أي يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحهم) يميناً وشمالاً ، وتُلقِي بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً!!

وهكذا سيكون الحال في موقف القيامة لا من سُكْرٍ ولكن من خوف وهَوْل وفزع { وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ } [الحج : 2] .

لكن ، من أين يأتي اضطراب الحركة هذا؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق في كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون في الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حِفْظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسان بالدُّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر في البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً في الغُدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون ، كمن اغتالتْه الخمر .

وقوله تعالى : { ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ } [الحج : 2] إنهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد ، إنما مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم؛ لأن الذي يَصْدُق في أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصْدُق في أن بعدها عذاباً في جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول سبحانه : { وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله . . . }

.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3)

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأْيَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أي : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها في بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة في منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدِلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل في الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول انْ يُقوِّي رأيه وحجته؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : { وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله . . } [الحج : 3] فكيف يكون الجدل في الله تعالى؟

يكون الجدل في الله وجوداً ، كالملحد الذي لا يعترف بوجود إله ، أو يكون الجدل في الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل في إعلام الله بشيء غيبي ، كأمر الساعة الذي ينكره البعض ولا يُصدِّقون به ، هذا كله جدل في الله .

وقوله : { بِغَيْرِ عِلْمٍ . . } [الحج : 3] إذن : فالجدل في ذاته مُبَاح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء في قوله تعالى : { وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [النحل : 125] .

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرِج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : { ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة . . } [النحل : 125] .

وقال سبحانه : { وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [العنكبوت : 46] .

لذلك؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم لَوْناً من الجدل في قوله تعالى : { قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] .

فانظر إلى هذا الجدَل الراقي والأسلوب العالي : ففي خطابهم يقول : { قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا . . } [سبأ : 25] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : { وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفي هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ، فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من هذا؟ وما هو الخُلق؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتم على محمد خلاف هذا؟

لذلك يقول تعالى في الرد عليهم : { قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . } [سبأ : 46] .

وكيف يكون صاحب هذا الخُلق القويم والسلوك المنضبط في الخير مجنوناً؟
ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن :

{ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [يونس : 16] .

لقد أتته الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأيُّ عبقرية هذه التي تتفجَّر بعد الأربعين ، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن عِلْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

لذلك؛ لما ذهب الشَّعْبي لملك الروم قال له الملك : عندكم في الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبيّ : ما الذي في الإسلام يخالف العقل؟ قال : تقولون إن في الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل في هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبي : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شيء؟ هذا – إذن – جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل في الجنة كُلَّ ما نشتهي دون أوْ نتغوّط أو تكون لنا فضلات؟ نقول : أرأيتم الجنين في بطن الأم : أينمو أم لا؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط في مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً على قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شيء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء؟

ومن الجدل الذي جاء عن عِلْم ودراية ما حدث من الإمام علي رضي الله عنه ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة في صفوف معاوية وتذكَّروا « قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمار : » تقتله الفئة الباغية « » وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشَتْ في الجيش فاشية ، إنْ هي استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هي؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبي صلى الله عليه وسلم قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فاحتار معاوية ثم قال : قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال – يعني : علي بن أبي طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب؟ أي : إن كان الأمر كما تقولون فالنبي صلى الله عليه وسلم هو قاتل حمزة؛ لأنه هو الذي أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذي تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحي من الله لا دَخْلَ لأحد فيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتي الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيِّز لا يسع اثنين؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بالمكان شيء إلا إذا خرج ما فيه أولاً؟

هذه أمور لم نعلمها إلا في دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شيء علمي في الكون مبنيٌّ على البدهيات التي لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون هي كل ما علاك فأظَّلك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالي فأنْ تستدل بشيء على شيء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً في (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم؟ ومثل الرجل العربي حين سار في الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما عِلْم الوحي فيأتي من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهي سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : { وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ . . } [الحج : 3] في النضر

بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم في الوجود ، وفي الوحدانية ، وفي البعث . . إلخ .
والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فِعْله ، ولَفَّ لَفَّه من الجدل .
ثم يقول تعالى : { وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } [الحج : 3] أي : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .
إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ، إما من النفس التي لا تنتهي عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذي يُلِحُّ عليك إلى أنْ يوقِع بك في شِرَاكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذي يوسوس بالشر ، فمَنِ الذي وسوس له أولاً؟ وكما قال الشاعر :
إبْلِيسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه؟ ... وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، أمّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك في هذا الشيء بالذات .
وهذا بخلاف الشيطان إذا تأبيْتَ عليه ولم تُطِعْهُ في معصية صرفكَ إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصي ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .
ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أأنا من أهل الدنيا أمْ من أهل الآخرة؟ قال : هذه مسألة ليستْ عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف؟ قال : انظر في نفسك ، فإنْ كان الذي يأخذ منك الصدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .
ذلك لأن الإنسان يحب من عمَّر له ما يحب ، فالذي يعطيك يعمر لك الدنيا التي تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذي يأخذ منك يعمر لك الآخرة التي تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دَخْل للشيطان فيها .
وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ } [لقمان : 20] فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التي تحدثنا عنها : فالعلم يُرَاد به البدهيات ، والهدى أي : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وَحيْاً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتي هي أحسن .
ومعنى : { مَّرِيدٍ } [الحج : 3] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر ، والمرود : العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلى أعلى منك .

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4)

أي : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حُكماً ظاهراً ، هكذا (عيني عينك) كما يقال { أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ . . . } [الحج : 4] أي : تابعه وسار خلفه { فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير } [الحج : 4] يضله ويهديه ضِدّان ، فكيف نجمع بينهما؟

المراد : يُضِلُّه عن طريق الحق والخير ، ويهديه أي : للشر؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطْلقاً ، فإن دللْتَ على خير فهي هداية ، وإن دللتَ على شر فهي أيضاً هداية .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى : { احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم } [الصافات : 22 - 23] .

أي : دُلُّوهم وخُذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى في آية أخرى : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ . . } [النساء : 168 - 169] .

والسَّعير : هي النار المتوهّجة التي لا تخمد ولا تنطفئ .

ثم يقول الحق سبحانه : { ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ . . } .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

قوله : { ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث . . } [الحج : 5] .

الريب : الشك . فالمعنى : إنْ كنتم شاكّين في مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صِدْقه { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ . . } [الحج : 5] أي : الخَلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلِقوا من (نطفة) حية من إنسان حي .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة في خَلْق الإنسان : { مِّن تُرَابٍ . . } [الحج : 5] ، ومرة { مِن مَّآءٍ . . } [الطارق : 6] ، و { مِّن طِينٍ . . } [الأنعام : 2] ، و { مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . . } [الحجر : 26] ، و { مِن صَلْصَالٍ كالفخار . . } [الرحمن : 14] وهذه التي دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أيِّ هذه الأشياء خُلِقْتم؟

وهذا الاعتراض ناشيء من عدم فَهْم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحمأ والمسنون

والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشيء الواحد ، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً ، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر ، ويتداخل بعضه في بعض حتى لا تستطيع أنْ تُميِّز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق اللهُ الإنسان وصوَّره ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشيء الواحد ، ومرور الشيء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثاني بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : { مِن نُّطْفَةٍ . . } [الحج : 5] والنطفة في الأصل هي قطرة الماء العَذْب ، كما جاء في قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودَعَ الغيمُ صَفْوَهَا ... مُثَقَّلَةُ الأرجَاء زُرْقُ الجَوانبِ

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شيء ، وكذلك النطفة هي خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية الاحتراق ، وعملية الأيض أي : الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم : فالبول ، والغائط ، والعرق ، والدموع ، وصَمْغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منِيُّ الإنسان الذي تؤخذ منه النطفة ، فهو – إذن – خلاصة الخلاصة في الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكَّون الجنين ، وكأن الخالق – عز وجل – قد صَفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء؛ لأنها ستكون أصْلاً لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان . وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا في عملية الجماع ، وهي ألذُّ متعة في وجود الإنسان الحيِّ ، لماذا؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذَّوْق ، أو الشم ، أو الملمس ، فهي لذَّاتٌ معروفة محددة بحاسَّة معينة من حواس الإنسان ، أمّا هذه اللذة المصاحبة لنزول المنِيّ أثناء هذه العملية الجنسية فهي لذة شاملة يهتز لها الجسم كله ، ولا تستطيع أنْ تُحدِّد فيها منطقة الإحساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها .

لذلك أمرنا ربنا – عز وجل – أن نغتسل بعد هذه العملية؛ لأنها شغلتْ كل ذرة من ذرات تكوينك ، وربما – عند العارفين بالله – لا تغفل عن الله تعالى إلا في هذه اللحظة؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها ، هو قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفيوضات فيقولون : إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التي وضعها في حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأن في كل واحد منا ذرة من أبيه آدم؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك في النطفة التي تلقيها ويأتي منها ولدك ، وهي أصْفى شيء فيك؛ لأنها الذرة التي شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قرّبنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعته في قارورة ماء ، ثم أخذتَ ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيتَ القارورة في برميل . . الخ .

إذن : فكل إنسان مِنّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم ، وشهدتْ العهد الأول الذي أخذه الله على عباده في قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . } [الأعراف : **172**] .

لذلك؛ يُسمِّي الله تعالى إرسال الرسل بَعْثاً فيقول : { بَعَثَ الله رَسُولاً } [الفرقان : **41**] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أَصْل في رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عبادة ، وهم في ظَهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : { فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ } [الغاشية : **21**] أي : مُذكِّر بالعهد القديم الذي أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ . . } [الأعراف : **172**] .

هذا في مرحلة الذّرِّ قبل أنْ يأتي الهوى في النفوس { أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون } [الأعراف : **172 - 173**]

إذن : بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ . . } [الحج : **5**] سمِّيت النطفة علقة؛ لأنها تعلَقُ بالرحم ، يقول تعالى في آية أخرى : { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى } [القيامة : **37 - 38**] .

فالمنِيُّ هو السائل الذي يحمل النطفة ، وهي الخلاصة التي يتكوَّن منها الجنين ، والعَلَقة هنا هي البُوَيْضَة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوي (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا في تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها ، يُسمُّونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقة إذ كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة { ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ . . } [الحج : **5**] والمضغة : هي قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عِدَّة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكّون من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة { مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . } [الحج : 5] معنى مخلقة يعني : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعني تخلَّقتْ على هيئة الأنسان .

أما غير المخلَّقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التي تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهي بمثابة (احتياطي) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً في حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أنْ يتركَ أثراً .

نرى هذا في أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تتركَ أثراً على الإطلاق؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخَّلنا في الجُرْح بمواد كيماوية إو خياطة أو خلافه فلا بُدَّ أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرتْ ، ويميل الإنسان إلى حَكِّها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخَّلْنا في الطبيعة التي خلقها الله .

إذن : فمعنى { وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . } [الحج : 5] هي الصيدلية التي تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : { لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . } [الحج : 5]

أي : نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة { وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ . . } [الحج : 5]

وهي المضْغة التي قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد؛ لذلك قال : { إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . } [الحج : 5] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فإنْ قلتَ : وما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سِنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين في بطن أمه ، ففي أيِّ وقت ينتهي الأجل .

وقوله تعالى : { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . } [الحج : 5] قال : { نُخْرِجُكُمْ . . } [الحج : 5] بصيغة الجمع ولم يقُلْ : أطفالاً إنما { طِفْلاً . . } [الحج : 5] بصيغة المفرد ، لماذا؟ قالوا : في اللغة ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردتْ أطفال في موضع آخر في قوله سبحانه :

{ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم . . } [النور : 59] .

وكما تقول هذا رجل عَدْل ، ورجال عَدْل . وفي قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يتكلم

عن الأصنام فيقول : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي . . } [الشعراء : 77] ولم يقُلْ : أعداء . وحينما تكلم عن ضَيْفه قال : { هَؤُلآءِ ضَيْفِي . . } [الحجر : 68] ولم يقل : ضيوفي ، إذن : المفرد هنا يُؤدِّي معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : { ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ . . } [الحج : 5] وهكذا ، وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْد : رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشْد العقل حين يصبح قادراً على التصرّف السليم ، ويُحسن الاختيار بين البدائل .

ثم تأتي مرحلة الأشد : { حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ . . } [الأحقاف : 15] يعني : نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً .

ثم يقول تعالى : { وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر . . } [الحج : 5] وأرذل العمر يعني رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف { لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً . . } [الحج : 5] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لِمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشي ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذي يتعلم الكلام . . وهكذا في جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك في طفولة شيخوختك ، ولم يقُلْ : ولداً؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد ، يقولون : لحق والده يعني سنُّهما متقارب . لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت .

ثم يقول تعالى : { وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5]

أي : كما كان خَلْق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أَشُدَّهُ ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر ، كذلك الحال في الأرض : { وَتَرَى الأرض هَامِدَةً . . } [الحج : 5] .

هامدة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهمد { فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت . . } [الحج : 5] أي : تحركتْ ذراتُها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً في الواقع؛ لأن لكل كائن حركة في ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديْك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدلِّك القضيب

الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط في اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس في اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإن اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : في الحديد – رمز الصلابة والجمود – حركة وحياة تناسبه ، وإنْ خُيِّل إليك أنه أصمُّ جامد في ظاهرة .
لذلك نقول { هَامِدَةً . . } [الحج : 5] يعني : ساكنة في رَأْي العلم ، حيث لا نباتَ فيها ثم { اهتزت . . } [الحج : 5] يعني : زادتْ وربَتْ وتحركتْ لإخراج النبات ، إنما هي في الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها .
ومعنى : { وَرَبَتْ . . } [الحج : 5] أي : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع في الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك في جميع البقول ، وهذه الزيادة في حجم الحبة هي التي تفلقها إلى فلقتين في عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذي يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذي يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى تقوى ، وتستطيع أنْ تمتصَّ غذاءها من التربة ، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمتهما في تغذية النبتة تحوَّلتَا إلى ورقتين ، وهما أول ورقتين في تكوين النبتة .
كذلك ، نلاحظ في تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلَّ غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما **90** بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكَر بالنسبة لحجم النبات الذي خرج منها .
وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية في الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .
{ وَرَبَتْ . . } [الحج : 5] أي : زادت وانتفشتْ ، كما يحدث في العجين حين تضع فيه الخميرة { وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5] .
هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً : الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركةَ فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرتْ وتحركتْ ذراتها وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعي ، كما نرى في عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعي فيخضرُّ الوادي ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتي نراها في أوروبا .
والمطر لا يحتاج أنْ تُسوَّى له الأرض؛ لأنه يسْقِي المرتفع والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التي تسقيها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور؟ وكيف لم يُصِبْها العطب ، وهي في الأرض طوال هذه الفترات؟ الأرض هي التي تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات الذي يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه (عِذْى) .

أما عن نَقْل هذه البذور في الصحراء وفي الوديان ، فهي تنتقل بواسطة الريح ، أو في رَوَث الحيوانات .

ومعنى : { مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5] الزوج : البعض يظن الزوج يعني الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مِثْله من جنسه ، ففي قوله تعالى : { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى } [النجم : 45] فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج أحذية يعني فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توأم يعني مولود معه مثله فكل واحد منهما يسمى (توأم) وهما معاً (توأمان) ولا نقول : هما توأم .

وهنا مظهر من مظاهر دِقَّة الأداء القرآني : {كُلِّ زَوْجٍ . . } [الحج : 5] لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو حيواناً ، لا بُدَّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها : { وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ . . } [الذاريات : 49] حتى في الجماد الذي نظنه جماداً لا حركةَ فيه ، يتكَّون من زوجين : سالب وموجب في الكهرباء ، وفي الذرة ، وفي المغناطيس ، فكلُّ شيء يعطي أعلى منه ، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : { سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] .

فقوله سبحانه : { وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] رصيد عالٍ لما سيأتي به العلم من اكتشافات تثبت صِدْق القرآن على مَرِّ الأيام ، ففي الماضي عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفي الماضي القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفي الماضي القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .

إذن : خُذْها قضية عامة : كل شيء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ ان فيه زوجية .

فقوله تعالى : { وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح في لقاح الذكر والأنثى ، هذا اللقاح قد يكون في الذكر وحده ، أو في الأنثى وحدها كما في النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً في النبات الواحد كما في سنبلة القمح أو كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدتَ له في أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ،

وفي منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الأنوثة ، فإذا هبَّتْ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها؛ لذلك نرى الحبة التي لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : { بَهِيجٍ } [الحج : 5] من البهجة ، فالمراد : الشيء حسن المنظر والجميل الذي يجذب الأنظار إليه ، وبهجة النظر إلى النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر ببستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها .

وفي النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال ، ولو لم تكُنْ تمتلكه .

لذلك الحق – سبحانه وتعالى – ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى : { انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . . } [الأنعام : 99] أي : أن النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ، تمتَّعوا بما خلق الله ، ففي النفس ملكَات أخرى غير الطعام .

واقرأ أيضاً قوله تعالى في الخيل : { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل : 6] فليست الخيل لحمل الأثقال وفقط ، وإنما فيها جمال وأُبَّهة ، تُرضِي شيئاً في نفوسكم ، وتُشْبع ملكَة من ملكاتها .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق . . }

.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

أي : أن ما حدث في خَلْق الإنسان تكويناً ، وما حدث في إنبات الزرع تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى { هُوَ الحق . . } [الحج : 6] فلماذا أتى بالحق ولم يقُلْ الخالق؟ قالوا : لأن الخالق قد يخلق شيئاً ثم يتخلى عنه ، أمّا الله – سبحانه وتعالى – فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق أي : الثابت الذي لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه خالقاً يعطيك كل يوم؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينفد .

وإذا نظرتَ إلى الوجود كله لوجدته دروة مكررة ، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، فمثلاً كمية الماء التي خلقها الله في الكون هي هي لم تَزِدْ ولم تنقص؛ لأن للماء دورة في الحياة ، فالماء الذي تشربه طوال حياتك لا يُنقص في كمية الماء الموجود؛ لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود في دورة الماء في الكون من جديد .

وهكذا في الطعام الذي تأكله ، وفي الوردة الجميلة الطرية التي نقطفها ، كل ما في الوجود له

دورة يدور فيها ، وهذا معنى : { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . } [فصلت : 10]
فمعنى : { الحق . . } [الحج : 6] هنا الثابت الذي لا يتغير في الخَلْق وفي العطاء . فلا تظن أن عطاء الله لك شيء جديد ، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .
ثم يقول تعالى : { وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى . . } [الحج : 6] كما قُلْنا في الآية السابقة : { وَتَرَى الأرض هَامِدَةً . . } [الحج : 5] أي : ساكنة لا حياةَ فيها ، والله وحده القادر على إحيائها؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض التي نصلحها للزراعة (إحياء الموات) فالله تعالى هو القادر وحده على إحياء كل ميت؛ لذلك يقول بعدها : { وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الحج : 6]
وما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تشاهدون آية إحياء الموات في الأرض المتية فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت . فيقول تعالى : { وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا . . } .

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت وقالوا : { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الأولون } [الصافات : 16 – 17] .
فيردُّ عليهم الحق سبحانه : نعم ، سنعيدكم بعد الموت ، والذي خلقكم من لا شيءَ قادرٌ على إعادتكم من باب أَوْلَى؛ لذلك يقول تعالى : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ . . } [الروم : 27] والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا؛ لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق – عز وجل – فليس هناك سَهْل وأسهل ، ولا هَيِّن وأهْون .
فقوله تعالى : { وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا . . } [الحج : 7] كأن عملية إحياء الموتى ليست مُنْتهى قدرة الله ، إنما في قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب ، ومعنى : { لاَّ رَيْبَ فِيهَا . . } [الحج : 7] أي : لا شَكَّ فيها . والساعة : أي : زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفَصْل بين الناس ، فلا بُدَّ من بَعْثهم من القبور؛ لذلك يقول بعدها : { وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور } [الحج : 7] .
فكُلُّ ما تقدم ناشيء من أنه سبحانه هو الحق؛ ولأنه سبحانه الحق؛ فهو يُحيي الموتي ، وهو على كل شيء قدير ، والساعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وهو سبحانه يبعث مَنْ في القبور .
ثم يقول الحق سبحانه : { ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله . . }

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8)

تكلمنا في أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة وقلنا : العلم إما علم بَدْهي أو علم استدلالي عقليّ ، أو علم بالوحي من الله سبحانه ، أما هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير علم بدهي { وَلاَ هُدًى . . } [الحج : 8] يعني : علم استدلالي عقلي ، { وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ } [الحج : 8] يعني : وحي من الله ، فهؤلاء أهل سفسطة وجدل عقيم لا فائدة منه ، وعلى العاقل حين يصادف مثل هذا النوع من الجدال أن لا يجاريه في سفسطته؛ لأنه لن يصل معه إلى مفيد ، إنما عليه أنْ ينقله إلى مجال لا يحتمل السفسطة .

ولنا في هذه المسألة مثَلٌ وقُدْوة بسيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما جادل النمرود ، اقرأ قول الله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . } [البقرة : 258]

لقد اتبع النمرودُ أسلوب السَّفْسَطة حين قال { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . . } [البقرة : 258] لأنه ما فعل حقيقةَ الموت ، ولا حقيقة الحياة ، فأراد إبراهيم أن يُلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه؛ لينهي هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللدد والتهريج ، فقال : { فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب . . } [البقرة : 258] وكانت النتيجة أنْ حَارَ عدو الله جواباً { فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . } [البقرة : 258] أي : دُهِش وتحيَّر

.

ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9)

{ ثَانِيَ . . } [الحج : 9] ثَنَى الشيء يعني : لَواه ، وعِطْفه : يعني جَنْبه ، والإنسان في تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظَهْر ، وهذه الأعضاء تُؤدِّي دَوْراً في حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذي يجادل في الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْنِي عنك جانبه ، ويَلْوِي رأسه؛ لأن الكلام لا يعجبه؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديه الحجة التي يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

لذلك يُسمَّى هذا الجدل « مراءً » ، ومنه قوله تعالى : { أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى } [النجم : 12] يعني : أتجادلون رسول الله في أمر رآه؟ والمراء : هو الجدل العنيف ، مأخوذ من (مَرْى الضرع) يعني : حَلْب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية (قرقر البقرة) يعني : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ في ضرعها شيء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه ، ولو كان عنده علم وحجة لأنهَى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ } [المنافقون : 5] .

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعي للإعراض عن الحق الذي يبدأ بلَيِّ الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبُره وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه : { ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله . . } [الحج : 9] هذه عِلَّة ثَنْي جانبه ، لأنه يريد أنْ يُضل مَنِ اهتدى ، فلو وقف يستمع لخَصْمه وما يلقيه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكّن من إضلال الناس؛ لذلك يَثْني عِطْفه هَرَباً من هذا الموقف الذي لا يَقْدر على مواجهته والتصدي له .

فما جزاء هذا الصنف؟ يقول تعالى : { لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ . . } [الحج : 9] والخِزْي : الهوان والذِّلَّة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ، ألم يحدث للكفار هذا الخزي يوم بدر؟ ألم يُمسِك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقضيب في يده قبل المعركة ويشير به : « هذا مَصرع فلان ، وهذا مصرع فلان » ويسمي صناديد الكفر ورؤوس الضلال في قريش؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصُرِع كلُّ هؤلاء الصناديد في نفس الأماكن التي أشار إليها رسول الله .

ولما قُتِل في هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعي الغنم يعتلي ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل – وكان فيه رَمَق حياة : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْباً يا رُوَيْعِيَّ الغنم ، يعني : ركبتني يا ابن الإيه!! فأيُّ خِزْي بعد هذا؟!

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى موكب النبي يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار في موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفي ما في صدره ، فقال للعباس رضي الله : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان يعني : المسألة ليست مُلْكاً ، إنما هي النبوة المؤيَّدة من الله .

وسيدنا أبو بكر – رضي الله عنه – حينما استأذن عليه القوم في الدخول ، فأذِنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالي ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورِمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر وأغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبي بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا؟ فقال له : إنه الإسلام الذي قدمهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ أنوفكم؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقي سيكون في الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم في هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : { والسابقون السابقون * أولئك المقربون } [الواقعة : 10 – 11] .

ثم يقول تعالى : { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق } [الحج : 9] فهذا الخِزْيُ الذي رَأَوْه في الدنيا لن يُفلتهم من خِزْي وعذاب الآخرة ، ومعنى { عَذَابَ الحريق } [الحج : 9] الحريق : هو الذي يحرق غيره من شِدتّه ، كالنار التي أوقدوها لإبراهيم – عليه السلام – وكانت تشوي الطير الذي يمرُّ بها في السماء فيقع مشوياً . ثم يقول الحق سبحانه : { ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ . . }

.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10)

{ ذلك . . } [الحج : 10] يعني خِزْي الدنيا وعذاب الحريق في الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذي ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النص الذي يُبيّن لكم ويُجرّم هذا الفعل ، وقد أبلغتُكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما في قوله تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .

{ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ . . } [الحج : 10] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق . . إلخ لكن في الغالب ما تُزَاول الذنوب بالأيدي .

ثم يقول تعالى : { وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ } [الحج : 10] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة في الفعل قد تكون في الفعل نفسه أو في تكراره ، فمثلاً قد تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة في الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ في الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة في عدد الوجبات فتأكل في الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى في الإثبات ولها معنى في النفي : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْي المبالغة لا ينفي الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفي أنه آكل . فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : { وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ } [الحج : 10] فهذا يعني أنه سبحانه وتعالى (ظالم)

حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفي الفعل ، كما في قوله تعالى : { وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف : 49] وقوله تعالى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين } [الزخرف : 76] .

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة في تكرار الحدث { بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ } [الحج : 10] ظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم في حقيقته أن يأخذ القويُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول – إذن – ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ . . . }
.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11)

قوله تعالى : { وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ . . } [الحج : 11] العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو في خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شَرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ . . } [الحج : 11]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته في ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له في الخير وفي الشر ، في السراء وفي الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل قادر ، ولا بد أنْ تأخذ ما يجري عليك من أحداث في ضوء هذه الصفات .

فإنْ أثقلتْك الحياة فاعلم أن وراء هذه حكمة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعدك ، فلعلهم إنْ وجدوك في سعة وفي خير طَمِعُوا وفسدوا وطَغَوْا ، ولعل حياة الضيق وقِلَّة الرزق وتعبك لتوفر متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقرأ قوله تعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6 – 7] وقوله تعالى : { وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء : 35] .

لا بُدَّ أنْ تعرف هذه الحقائق ، وأنْ تؤمن بحكمة ربك في كل ما يُجريه عليك ، سواء أكان نعيماً

أو بُؤْساً ، فإنْ أصابك مرض أقعدك في بيتك فَقُلْ : ماذا حدث خارج البيت ، أبعدني الله عنه وعافاني منه؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : { وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . } [البقرة : 216] .

وقد أجرى علماء الإحصاء إحصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة في البيت الواحد ، وفي ظروف بيئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم في المدرس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقيض ، فلمَّا بحثوا في سبب هذه الظاهرة وجدوا أن الولد المستقيم كانت فترة تربيته وطفولته في وقت كان والده مريضاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخذ هذا الولد أكبر قِسْط من الرعاية والتربية ، ولم يجد الفرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفي نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفين وجدوا أن سبب انحرافه أن والده في فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدِق على أسرته ، فتربَّى الولد في سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفي نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفاً واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فمال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فمال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت .

والأمثلة في هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغانم ، ومن ورائها حِكَم؛ لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالقك ، وليست من سَعْيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت في الخير وفي الشر .

ومعنى : { يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ . . } [الحج : 11] والحرف : هو طرف الشيء ، كأن تدخل فتجد الغرفة ممتلئة فتجلس على طرف في آخر الجالسين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعني : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرِجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذي يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء في الخير أو في الشر .

وتأمل قول الله تعالى : { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ . . } [الحج : 11] وكذلك : { وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ . . } [الحج : 11] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخير هو الذي أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك بقدر ما يبحث هو عنك؛ لذلك يقول تعالى : { وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل

لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ . . } [الطلاق : 2 – 3] .
ويقول أهل المعرفة : رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعني يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق في مكان فلا تُرزَق منه بشيء ، وقد ترى الزرع في الحقول زاهياً تأمل فيه المحصول الوفير ، وتبني عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتي عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .
ولنا عبرة ومثَلٌ في ابن أُذَيْنة حين ضاقت به الحال في المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأَذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حالة فقال : في ضيق وفي شدة . وكان في مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل – وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :
لَقَد عَلِمت ومَا الإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي ... أَنَّ الذي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يأْتِينِي؟
وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخَيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت مني ناسياً ، ونبَّهْتَ مني غافلاً ، ثم انصرف .
فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة في الموقف وأنَّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذي قصد خَيْره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلِح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة في مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذينة بيته الأول ، فقال :
أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّيني تطلُّبه ... وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لاَ يُعنِّيني
كذلك نلحظ في هذه الآية : { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ . . } [الحج : 11] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فتْنَة) أي : اختبار وابتلاء؛ لأنه قد ينجح في هذا الاختبار فلا يكون شراً في حَقِّه .
ومعنى : { انقلب على وَجْهِهِ } [الحج : 11] يعني : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصياً { خَسِرَ الدنيا والأخرة . . } [الحج : 11] وخسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شيء؛ لذلك يقول بعدها : { ذلك هُوَ الخسران المبين } [الحج : 11] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين؟
نعم : الخسران هو الخسارة التي تُعوَّض ، أما الخسارة التي لا عِوضَ لها فهذه هي الخسران المبين الذي يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه

أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عِوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أي : المحيط الذي يُطوِّق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التي فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن » .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين في نفس المؤمن ، وهي بداية وعَتَبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذي دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتبارَوْنَ في الوصول إلى هذه المراقي الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة في الرُّقي الإيماني .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد في بلادكم؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما في ذلك؟! إنه حال الكلاب في بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاً الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَريق ، فيحاول أنْ يرتقيَ فيه إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد في عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبة : ألاَ تشتاق إلى الله؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك؟ قال : إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عني حتى أشتاق إليه؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذي يعبد الله على حرف : { يَدْعُو مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ . . } .

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12)

معنى : { مَا لاَ يَضُرُّهُ . . } [الحج : 12] هل الصنم الذي يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذي يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره

الربوبية التي يعاندها والمجازي الذي يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : { يَضُرُّهُ . . } [الحج : 12] هنا؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : { ذلك هُوَ الضلال البعيد } [الحج : 12] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه في أيِّ شيء ، أو يخشى ضره في أيِّ شيء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا في الكتب الدراسية ، واهتمَّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقفَ الولد يفكر مرة وألف مرة في توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

لا بُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا مبادئ الإسلام ، ليعرف الولد منذ صِغَره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه ، ومَنْ هو أَوْلَى بطاعته .

وتلحظ في الآية أن الضر سابق للنفع : { مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ . . } [الحج : 12] لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة؛ لأن المفسدة خروج الشيء عن استقامة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليك ، أما الضر فينقصك ، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإذا وقفتَ أمام أمرين : أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شَكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولاً ، وتشتغل بدَرْءِ المفسدة قبل جَلْب المصلحة .

وضربنا لذلك مثلاً : هَبْ أن إنساناً سيرمي لك بتفاحة ، وآخر سيرميك بحجر في نفس الوقت ، فماذا تفعل؟ تأخذ التفاحة ، أو تتقي أذى الحجر؟ هذا هو معنى « دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » .

يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

الأية السابقة تثبت أنه يدعو مَا لا يضُرُّه ومَا لا ينفعه ، وهذه الآية تُثبت أنه يدعو مَنْ ضَرُّه أقرب من نَفْعه .

صيغة أفعل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر في هذه الصفة ، فلو قُلْتَ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعني أن كلاهما حَسَن ، لكن زاد أحدهما عن الآخر في الحُسْن .

فقوله تعالى : { يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ . . } [الحج : 13]

إذن : هناك نَفْع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية في ظاهرها تُناقِض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة في ضوء قوله تعالى : { وَلَوْ

كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً } [النساء : 82] .
فالأوثان التي كانوا يعبدونها كان لها سَدَنة يتحكَّمون فيها وفي عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسُلْطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها ، هذه الواسطة كانت تُدِرُّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهْدَى للأوثان .
فالأوثان – إذن – سبب في نَفْع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه في الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد بما أخذه ، وإنْ جاء الموت فلا إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ ، وهذا معنى { ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ . . } [الحج : 13] .
لذلك يقول تعالى بعدها : { لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير } [الحج : 13] كلمة (بئس) تُقَال للذم وهي بمعنى : ساء وقَبُح ، والمَوْلَى : الذي يليك ويقرُب منك ، ويُراد به النافع لك؛ لأنك لا تقرِّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته ، وهذا هو الوليُّ .
وإما أنْ تُقرِّبه منك؛ لأنه يُسليك ويجالسك وتأنس به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك ، وهذا هو العشير .
والأصنام التي يعبدونها بئست المولى؛ لأنها لا تنصرهم وقت الشدة ، وبئست العشير؛ لأنها لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها في غير الشدة .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَاتٍ . . } .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14)

بعد أن تكلَّم الحق – سبحانه وتعالى – عن الكفار وأهل النار ومَنْ يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتيَ بالمقابل؛ لأن النفس عندها استعداد للمقارنة والتأمل في أسباب دخول النار ، وفي أسباب دخول الجنة ، وهذا أَجْدى في إيقاع الحجة .
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 13 – 14] وقوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً . . } [التوبة : 82]
فذِكْر النعمة وحدها دون أنْ تقابلها النِّقْمة لا تُؤتِي الأثر المطلوب ، لكن حينما تقابل النعمة بالنقمة وَسَلْب الضّر بإيجاب النفع فإنَّ كلاهما يُظهِر الآخر؛ لذلك يقول تعالى : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . } [آل عمران : 185] فإنْ آمنتَ لا تُزَحْزح عن النار فقط – مع أن هذه في حَدِّ ذاتها نعمة – لكن تُزَحْزح عن النار وتدخل الجنة .
والإيمان : عمل قلبي ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنتَ بالله ،

واطمأنَّ قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق واجب الوجود . . إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان؟ مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق في قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تيأس من بَسْطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنتَ بكل هذه القضايا ، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك ولم يَنْهَكَ من فراغ ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر في كُلِّ أعمالك وفي كُلِّ ما تأتي أو تدع هذه الصفات .

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : { إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَاتٍ . . } [الحج : 14]

وفي سورة العصر : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . } [العصر : 1 – 3] ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : { وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 3] .

فالتواصي بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعي الإيمان وثمرة من ثماره؛ لأن المؤمن سيتعرَّض في رحلة الحياة لِفِتَن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرية واستهزاءً ، وربما تعرَّض لألوان العذاب .

فعليه إذن – أنْ يتمسَّك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأنْ يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد تعرض له فترات ضَعف وخَوَر ، فعلى القوي في وقت الفتنة أنْ ينصحَ الضعيف .

وربما تبدَّل هذا الحال في موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فَمنْ أوصيْتَه اليوم بالصبر ربما يوصيك غداً ، وهكذا يُثمِر في المجتمع الإيماني التواصي بالحق والتواصي بالصبر .

إذن : تواصَوْا؛ لأنكم ستتعرضون لِهزَّات ليست هزَّات شاملة جامعة ، إنما هزَّات يتعرض لها البعض دون الآخر ، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من إخوانك مَنْ يُواسيك : اصبر ، تجلَّد ، احتسب .

وإياك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحق ، أو تخرج عن الصبر ، وهذه عناصر النجاة التي ينبغي للمؤمنين التمسك بها : إيمان ، وعمل صالح ، وتواصٍ بالحق ، وتواصٍ بالصبر .

وقوله سبحانه : { تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهار . . } [الحج : 14] .

الجنات : هي الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتّع : الزرع ، والخضرة ، والنضارة ، والزهور ، والرائحة الطيبة ، وهذه كلها بنت الماء؛ لذلك قال { تَجْري مِن تَحْتِهَا الأنهار . . } [الحج : 14] ومعنى : { مِن تَحْتِهَا . . } [الحج : 14] أن الماء ذاتيٌّ فيها ، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها ، كما جاء في آية أخرى : { تَجْري تَحْتَهَا الأنهار . . } [التوبة : 100] .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . . } [الحج : 14] لأنه سبحانه لا يُعْجِزه شيء ، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشيء الذي يريده الله ويأمر بكونه موجوداً في الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه { يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] فهو – إذن – كائن فعلاً ، وموجود حقيقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره في عالم المشاهدة .

ثم يقول سبحانه : { مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ . . }

.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15)

(يظنُّ) تفيد عِلْماً غير يقيني وغير مُتأكد ، وسبق أنْ تكلّمنا في نسبة القضايا ، فهناك حكم محكوم به ومحكوم عليه ، تقول : زيد مجتهد ، فأنت تعتقد في نِسْبة الاجتهاد لزيد ، فإنْ كان اعتقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدَليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق

.

أما إذا اعتقد هذه القضية ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع الناسَ يقولون : زيد مجتهد . فقال مثلهم ، لكن لا دليلَ عنده على صِدْق هذه المقولة ، كالطفل الذي نُلقّنه { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِم الدليل عليها إلا عندما يكْبر ويستوي تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكِنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهي تقليد ، فإنِ اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليلَ عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإنِ اعتقدتَ قضيةً غير واقعيةٍ ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذي يُتعِب الدنيا كلها ، ويُشقي من حوله ، لأن الجاهل الأميَّ الذي لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك؛ لأنه خالي الذهن ولا يعارضك .

فإنْ تشككْتَ في النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشَّكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما علم تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو تقليد : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو جهل : حين تعتقد شيئاً غير

واقع ، أو شك : حين لا تجزم بالشيء ويستوي عندك النفي والإثبات ، أو ظن : حين تُرجِّح الإثبات ، أو وهم : حين تُرجّح النفي .

فالظن في قوله تعالى : { مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله . . } [الحج : 15] أي : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهم ذلك – ولا يتوهم ذلك إلا الكفار – لأنهم يأملون ذلك في معركة الإيمان والكفر – مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهيَ عنه؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رَأَوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

لذلك؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً في السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل : { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ } [الحج : 15] .

لكن ما الغيظ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأَسَىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به مَا لا يُرضيك .

وهذه المادة (غيظ) موجودة في مواضع أخرى من كتاب الله ، وقد استُعْملَتْ حتى للجمادات التي لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : { تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ . . } [الملك : 8] وقال : { إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً } [الفرقان : 12] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن والكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : { وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ . . } [التوبة : 15] .

أما غيْظ الكفار من نصْر الإيمان فسوف يَبْقى في قلوبهم ، فربُّنا – سبحانه وتعالى – يقول لهم : ثِقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامن أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك فلن يُريحكم ويَشْفي غيظكم إلاَّ أنْ تشنقوا أنفسكم؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه في آية أخرى فقال : { قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ . . } [آل عمران : 119] .

ومعنى : { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء . . } [الحج : 15] { فَلْيَمْدُدْ . . } [الحج : 15] : من مدَّ الشيء يعني : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : { والأرض مَدَدْنَاهَا . . } [الحجر : 19] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً في السماء؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : { إِلَى السمآء . . } [الحج : 15] يعني : سماء البيت وسقفه ، كمَنْ يشنق نفسه في سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أيّ شيء يُوصِّلك إلى السماء ، وأيّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أيّ طريقة تُوصِّلكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر؛ لأن نَصْر محمد يأتي من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم في قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء في الآية ضمير الغائب المفرد في قوله تعالى : { مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله . . } [الحج : 15] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : { يَنصُرَهُ . . } [الحج : 15] ينصر مَنْ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول « سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلي وعمر وأرض وسماء ، والأسماء إما اسم ظاهر مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم .

والضمير مُبْهم لا يُعيّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذي يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمدْة الفهم في الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإن لم يكن متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتي بقرينة التعريف للغائب؟

حين تقول : هو ، هي ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر؟ كيف تُعيّنها؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شيء يدل عليه ، كأن تقول : جاءني رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ؟ أكرمت الرجل الذي تحدثتُ عنه ، جاءتني امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذي يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذِكْر لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذِكْر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال ذلك قوله تعالى : { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ . . } [القدر : 1] .

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره في مقامه .

اقرأ : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قِيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا لله عز وجل .

كذلك في قوله تعالى : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ } [النحل : 61] . على ظَهْر أيّ شيء؟ الذِّهْن لا ينصرف في هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : { فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ } [الحج : 15] الاستفهام هنا مِمَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، لِيقُروا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيظلُّ كما هو ، لا يشفيه شيء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : { قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ . . } [آل عمران : 119] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وكذلك أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . } .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16)

قوله { أَنزَلْنَاهُ . . } [الحج : 16] أي : القرآن؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتعيِّن ، وما دام مرجعه مُتعيناً فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنى العلو ، فإنْ رأيتَ في هذا التشريع الذي جاءك في القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أَعْلى منك ، من الله ، وليس من مُسَاوٍ لك ، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر؟ ولماذا هذا النهي؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فلا بُدَّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أُسْوة في هذا التسليم بسيدنا أبي بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرِي به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصِّديق إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق ، هكذا دون مناقشة ، فالأمر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذت تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك في مسألة لا دَخْلَ لك بها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء في وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة ولله المثل الأعلى ، وصدق القائل :

سُبْحانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وطِبَّهُ ... ويُرِي المريض مَصَارِعَ الآسِينا

إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفي أنْ نعلم الآمر به .

ومعنى { آيَاتٍ . . } [الحج : 16] أي : عجائب { بَيِّنَاتٍ . . } [الحج : 16] واضحات . وسبق أنْ ذكرنا أنْ كلمة الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التي تُثبِت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان في النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل لإثبات صِدْق بلاغهم عن الله ، والآيات التي يتكوَّن منها القرآن ، وتُسمَّى «

حاملة الأحكام » .

فالمعنى هنا { وكذلك أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . } [الحج : 16] تحمل كلمة الآيات كُلَّ هذه المعاني ، فآيات القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهي ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : { وَأَنَّ الله يَهْدِي مَن يُرِيدُ . . } [الحج : 16] وهذه من المسائل التي وقف الناس حولها طويلاً : { يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ . . } [النحل : 93] وأمثالها تمسَّك بها مَنْ ليس لهم حَظٌّ من الهداية ، يقولون : لم يُرِدِ الله لنا الهداية ، فماذا نفعل؟ وما ذنبنا؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة؛ لأن الوَقْفة العقلية تقتضي أنْ تذكر الشيء ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبَّهوا العقل للتناقض في واحدة وتركوا الأخرى ، فهي – إذن – وَقْفة تبريرية ، فالضال الذي يقول : لقد كتب الله عليَّ الضلال ، فما ذنبي؟ لماذا لم يَقُلْ : الطائع الذي كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه؟!

فلماذا تركتم الخير وناقشتم في الشر؟

والمتأمل في الآيات التي تتحدث عن مشيئة الله في الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بيّن مَنْ شاء أنْ يُضلّه ، وبين مَنْ شاء أنْ يهديه ، اقرأ قوله تعالى : { إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [المائدة : 67] إذن : كُفْره سابق لعدم هدايته وقوله : { إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [المنافقون : 6] وقوله : { إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [القصص : 50] .

إنما يهدي مَنْ آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمأنوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحبُّوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى . . } [محمد : 17] .

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أنْ ضربنا لها مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى : هَبْ أنك تسلك طريقاً لا تعرفه ، فتوقفتَ عند جندي المرور وسألته عن وجهتك فدلَّكَ عليها ، ووصف لك الطريق الموصِّل إليها . لكن ، هل دلالته لك تُلزمك أنْ تسلك الطريق الذي وُصِف لك؟

بالطبع أنت حُرٌّ تسير فيه أو في غيره . فإذا ما حفظتَ لرجل المرور جميلَهُ وشكرته عليه ، ولمس هو فيك الخير ، فإنه يُعينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة يخاف عليك منها . هذا معنى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقُوَاهُمْ } [محمد : 17] .

أما لو تعاليتَ على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعُكَ وشأنك ، ويضِنُّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا . . الحق – سبحانه وتعالى – دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير ، المؤمن رضي بالله وقَبِل

أمره ونَهْيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه ، أما الكافر فقد تركه يتخبّط في ظلمات كفره ، ويتردد في متاهات العمى والضلال .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس والذين أَشْرَكُوا . . } .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : { إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة . . } [الحج : 17] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعتَ الآيات التي ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين في البقرة وفي المائدة .

يقول تعالى : { إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والنصارى والصابئين مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة : 62] .

وفي المائدة يُقدِّم الصابئين على النصارى ، وفي هذا الموضع تأتي بالرفع بالواو ، يقول تعالى : { إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [المائدة : 69] .

{ الذين آمَنُواْ . . } [الحج : 17] أي : بمحمد صلى الله عليه وسلم ، { والذين هَادُواْ . . } [الحج : 17] أي : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عَبَدة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، قالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبي ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأتَوْا بعقيدة غير عقيدته ، فهم قلَّة ، لكن سبقوا النصارى في الترتيب الزمني؛ لذلك حين يراعي السَّبْقَ الزمني يقول : { والصابئين والنصارى . . } [الحج : 17] وحين يراعي الكثرة والشهرة ، يقول : { والنصارى والصابئين . . } [البقرة : 62] فكلٌّ من التقديم أو التأخير مُراد لمعنى مُعيَّن .

أما قوله : { والصابئون . . } [المائدة : 69] بالرفع على خلاف القاعدة في العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه في إعرابه ، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكأنه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهي مُؤخَّرة في المعنى ، مُقدَّمة في

اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان؟

ينشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنبي المبلِّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء فيما بينهم ، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السنة ، أو الجبرية والقدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون يُنكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجْبَر في تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف في النبوات ، فأهل الديانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار ، لكن يختلفون في الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً حَقٌّ . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدَّعُون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

نقول : أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدَّعاة ، فهؤلاء كفار ضائعون .

أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بإله فاعل مختار ، ويؤمنون بنبوة صادقة ، فشأنهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الديانات ، فمَنْ كان يهودياً قبل الإسلام ، ومن كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجرى لهم تصفية عقدية هي الإسلام ، فإنْ كانوا مؤمنين الإيمان الأول بالله تعالى فعليهم أنْ يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين .

لذلك قال بعدها : { مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة : 62] .

فبعد ظهور الإسلام بدأت لهؤلاء جميعاً – اليهود والنصارى والمجوس والمشركين – حياة جديدة ، وفُتِحَتْ لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وكأن الإسلام تصفية (وأوكازيون إيماني) يَجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق – سبحانه – حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قال : { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين } [آل عمران : 81] لذلك نبَّه كُلٌّ من موسى وعيسى – عليهما السلام – بوجود محمد صلى الله عليه وسلم وبشَّروا به ، بدليل قول الله تعالى : { فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . } [البقرة : 89] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها في الإسلام الذي زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفية لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

أما إنْ حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التي نحن بصددها : { إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [الحج : 17] والفَصْل أن نعرف مِنَ المحقُّ ومَنِ المبطل ، وهكذا جمعتْ الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحِقٌّ وهذا مُبطِل سيؤدي إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : { إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [الحج : 17] لأن الله تعالى هو الحكَم الذي يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل في الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل شيء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحّايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع في سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شيء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هي محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض . . . } .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18)

قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ . . } [الحج : 18] يعني : ألم تعلم؛ لأن السُجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه في السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه .

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهي أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذي يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان

ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهي هذه الدائرة بأن كل مَا في كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان ، وفي الخبر : « يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُكَ من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له » .

فكان على الإنسان أن يفكر في هذه الميْزة التي منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شيء في الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها ، ودَوْر يقوم به . فأَوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سيد هذا الكون أن يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور في الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التي سخَّرها الله لك ، وإلاَّ صِرْتَ أقلّ منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك ، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغي لك أن تشتغل به ، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هي مَحَلٌّ للبحث العقلي .

وكان على العقل البشري أن يفكر في كل هذه الأجناس التي تخدمه : ألك قدرة عليها؟ لقد خدمتْكَ منذ صِغَرِك قبل أنْ تُوجِّه إليها أمراً ، وقبل أنْ توجدَ عندك القدرة لتأمر أو لتتناول هذه الأشياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التي سخَّرَتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعي لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء في خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتك ، انظر إلى الشمس والقمر وغيرهما : أقالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم؟!

الأرض : هل ضنَّتْ في يوم على زراعها؟ الريح : هل توقفتْ عن الهبوب . وكلها مخلوقات أقوى منك ، ولا قدرةَ لك عليها ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هي في قبضة الله – عز وجل – ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتي منه الفساد ، ويأتي منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سجود دلالة ، لا سجوداً على حقيقته ، لكن هذا القول يعارضه قول الله تعالى : {كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . } [النور : **41**] .

فلكل مخلوق مهما صَغُر صلاة وتسبيح وسجود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال ، وهم نوع واحد ، فسجود الصحيح غير سجود المريض الذي يسجد وهو على الفراش ، أو جالس على مقعد ، وربما يشير بعينه ، أو أصبعه للدلالة على السجود ، فإن لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة في الجنس الواحد حَسْب حالة وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذي يتناسب مع طبيعته؟

وإذا كان هذا حال السجود في الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر؟! ما دام الحق – سبحانه وتعالى – قال إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلي على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد؟ إذن : كيف نطمع في معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات؟

ومن معاني السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعني : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : { ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ } [فصلت : 11] .

إذن : لك أن تفهم السجود على أيِّ هذه المعاني تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

ونحن نتناقل الآن ، ونروي بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فَهِموا عن الله وتذوَّقوا لذَّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقي في القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفي فَمِ أحدهم نُخْمة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال لَه صاحبه : أَلْقِها واسترِح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسبِّح فاستحيْتُ أنْ أُلقيها على مُسبِّح ، فقال الآخر – ويبدو أنه كان في منزلة أعلى منه – وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح في مُسبِّح .

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق – سبحانه وتعالى – حين قال : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض .

. } [الحج : 18] معلوم أن مَنْ في السموات هم الملائكة ولسنْا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل في مدلولة ، فلماذا قال بعدها : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18] .

كلمة : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18] تُبيِّن أن لنا قهريةً وتسخيراً وسجوداً كباقي أجناس الكون ، ولنا أيضاً نطقة اختيار . فالكافر الذي يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصي ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به؟

إذن : الإنسان مُؤتمِر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هي التي نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله – سبحانه وتعالى – الخَلْق جميعاً مُسخَّرين؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أن تكون حُرًّا مختاراً في أنْ تُؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُراً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع .

وضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى – : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك في سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإن ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكون أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق؟ .

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذي حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حَقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره؛ لأن الله سَخَّره للاختيار ، فهو حتى في اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس . . } [الحج : 18] يعني : باختياراهم ، وكان المفروض أن يقول في مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : { حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18] حقَّ : يعني ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوي المؤمن والكافر : { أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين } [القلم : 35] إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضي ذلك .

وقوله سبحانه : { وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } [الحج : 18] لأن أحقيَّة العذاب من مُساوٍ لك . قد يأتي مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتي شافع يشفع له ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يُيئِّسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانته فلن يُكرمه أحد ، لابنُصْرته ولا بالشفاعة له ، فالمعنى : { وَمَن يُهِنِ الله . . } [الحج : 18] أي : بالعذاب الذي حَقَّ عليه وثبت { فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ . . } [الحج : 18] يعني : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعِزه؛ لأن عِزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعني : لا أحد يقول لله : هذا في جواري؛ لذلك ذيَّلَ الآية بقوله تعالى : { الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } [الحج : 18] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ فالذين كَفَرُواْ . . } .

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19)

كلمة خَصْم من الألفاظ التي يستوي فيها المفرد والمثنى والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب } [ص : 21] .

ويقول تعالى : { خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ . . } [ص : 22] .

والمراد بقوله : { خَصْمَانِ . . } [الحج : 19] قوله تعالى : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود { وكفى بالله شَهِيداً . . } [النساء : 79]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . } [فصلت : 21] .

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهي التي فعلت؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقائد الذي يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر في حركة القيام أو العضلات التي تحركتْ لتؤدي هذا العمل ، مع أنها عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل في قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أوْلى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله؟

إذن : العمدة في الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هي مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التي تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس في علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلي : ما الحركة الآلية التي تتم في جسم الإنسان كي يقوم من نومه أو من جِلْسته؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم في هذه المسألة .
أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّي حركات أشبه بحركات الجسم البشري لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصِفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التي تشترك في كل حركة . فَقُلْ لي بالله : ما الزر الذي تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك؟ ما الزر الذي تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله – عز وجل – إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب في الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد لا يستريح منه لا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن : فالنفس هي التي تألم وتتعذَّب لا الجوارح .
والحق سبحانه هو الذي يفصل بين هذيْن الخصميْن ، كما قال سبحانه في آية أخرى { إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة . . } [الحج : 17] .
لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه : أنا أول مَنْ يجثو بين يدي الله يوم القيامة للفصل ومعي عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء في جانب وفي الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .
لماذا؟ لأن بين هؤلاء كانت أول معركة في الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم في معركة بدر أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم في الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع في القتال ، ويعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .
ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية – رضي الله عنهما – في موقعة صِفِّين حيث قال علي لمعاوية : ابرز إليَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتني فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لي ، فقال عمرو بن العاص وكان في صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفي هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين في الجانبين .
فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا إن أبرز له فيقتلني ، ويكون لك الأمر من بعدي ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .
فقام عمرو لمبارزة علي ، لكن أين عمرو من شجاعة علي وقوته؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صَرْف

عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه علي وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَخَيْرَ فِي رَدِّ الرَّدَى بِدَنيَّةٍ ... كَما رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَتِهِ عَمْرُو

ويقول الشريف الرضي – وهو من آل البيت – في القصيدة التي مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرِ ... أَما لِلْهَوَى نَهْيٌ عليْكَ ولاَ أَمْر

بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وعِنْدي لَوْعَةٌ ... وَلكِنْ مِثْلي لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ

وفيها يقول :

وَإِنَّا أُنَاسٌ لاَ تَوسُّطَ بَيْنَنَا ... لَنَا الصَّدْرُ دُون العَالَمينَ أو القَبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أَكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين .

وهذا هو اليوم الذي قال الله فيه : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فاتقوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [آل عمران : 123] .

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْ الخصْمين ، ويبقى فَصْل الآخرة الذي قال فيه الإمام علي : « أنا أول مَنْ يجثو بين يدي الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : { اختصموا فِي رَبِّهِمْ . . } [الحج : 19] أي : بسبب اختلافهم في ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفي عنه هذه الصفات ، يعني : انقسموا بين إيمان وكفر .

ثم يُفصِّل القول : { فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم } [الحج : 19] .

{ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ . . } [الحج : 19] كأن النار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب ، ومبالغةً فيه ، فليس فيها اتساع يمكن أنْ يُقلِّل من شِدَّتها ، وليست فضفاضة عليهم .

ثم { يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم } [الحج : 19] والحميم : الماء الذي بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شِدَّة حَرّه ، ولكَ أنْ تتصور ماءً يَغليه ربنا عز وجل!!

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ

يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .
فالإذاقة ليستْ في اللباس ، إنما بشيء آخر ، واللباس يعطي الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أطراف البدن ، وتحكم عليه مبالغةً في العذاب .

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20)

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها ، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة التي نعرفها ، إنما يُغلِيه ربه الذي لا يُطيق عذابَه أحدٌ . وأنت إذا صببتَ الماء المغلي على جسم إنسان فإنه يشوي جسمه من الخارج ، إنما لا يصل إلى داخله ، أمّا هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم فإنه يصهر ما في بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فاللهم قِنَا عذابك يوم تبعث عبادك .

وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21)

المقامع : هي السياط التي تقمع بها الدابة ، وتَرْدعها لتطاوعك ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على الذِّلَّة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .
ثم يُبيّن الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول : {كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجواْ مِنْهَا . . } .

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22)

الحق – سبحانه وتعالى – يُصوّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس في أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من غَمِّ العذاب جاءتهم هذه السياط فأعادتهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذي يُضْرب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضَرْب بعد ذلك .
وقد أجاد المتنبي في وصف هذا المعنى حين قال :
رَمَانِي الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حتّى ... كَأنِّي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فكنتُ إذا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ ... تكسَّرتْ النِّصَالُ علَى النّصَال
لكن أنَّ يُخفَّف عن أهل النار ، والحق سبحانه وتعالى يقول : {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب . . } [النساء : 56] .
ففي إعادتهم تيئيس لهم بعد أنْ طمِعوا في النجاة ، وما أشدّ اليأس بعد الطمع على النفس؛ لذلك يقولون : لا أفجعَ من يأسٍ مقمع ، بعد أمل مُقْمِع . كما يقول تعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ . . } [الكهف : 29] ساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون ، فيأتيهم اليأس في { بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه . . } [الكهف : 29] .

وقوله تعالى : { وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق } [الحج : 22] الحريق : الشيء الذي يحرق غيره لشدته .

وبعد أن تحدثتْ الآياتُ عن الكافرين ، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل ، عن المؤمنين ليُجري العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك ، فيزداد المؤمن تشبُّثاً بالإيمان ونُفْرةً من الكفر ، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان ، وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعطينا في آيات القرآن وفي المقابلات وسائل النجاة والرحمة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ . . } .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23)

يُبيّن الحق سبحانه وتعالى مَا أعدّه لعباده المؤمنين حيث السكن : { جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . } [الحج : 23] والزينة : { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً . . } [الحج : 23] واللباس : { وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } [الحج : 23] فجمع لهم نعيم السَّكَن والزينة واللباس .

وفي الآخرة يُنعَّم الرجال بالحرير وبالذهب الذي حُرِّم عليهم في الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم في شيء تنعّمنا به في الدنيا وهو الحرير والذهب؟

نعم تتمتعْن بالحرير والذهب في الدنيا ، أمّا في الآخرة فهو نوع آخر ومتعة كاملة لا يُنغِّصها شيء ، فالحلي للمرأة خالصٌ من المكدِّرات ، وباقٍ معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى تغييره أو بيعه؛ لأنه يتجدّد في يدها كل يوم ، فتراه على صياغة جديدة وشكل جديد غير الذي كان عليه . كما قلنا سابقاً في قوله تعالى عن أهل الجنة : { قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ . . } [البقرة : 25] .

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التي أكلوها من قبل ، فيُبيِّن لهم ربهم أنها ليستْ كفاكهة الدنيا { وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً . . } [البقرة : 25] يعني : أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق : { وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول . . } .

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24)

(هُدُوا) هداهم الله ، فالذي دلّهم على وسائل دخول الجنة والتمتّع فيها بالسكن والزينة واللباس كذلك يهديهم الآن في الجنة ويدلّهم على كيفية شُكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : { وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول . . } [الحج : 24] هذا القول الطيب لخَّصته آيات أخرى ،

ومنها قوله تعالى : { الحمد للهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ . . } [الزمر : 74] .
وقوله : { الحمد للَّهِ . . * الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ . . } [فاطر : 34 – 35] .
وقوله : { الحمد للهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن . . } [فاطر : 34]
فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أنْ يقولوا : الحمد لله ، كما يقول الحق سبحانه عنهم : { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للهِ رَبِّ العالمين } [يونس : 10] .
وقالوا : { الطيب مِنَ القول . . } [الحج : 24] هو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هي المعشوقة التي أتتْ بنا إلى الجنة ، والمعنى يسع كل كلام طيب ، كما قال سبحانه : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السمآء } [إبراهيم : 24] .
ثم يقول تعالى : { وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد } [الحج : 24] أي : هداهم الله إلى طريق الجنة ، أو إلى الجنة ذاتها ، كما قال في آية الكافرين : { وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ . . } [النساء : 168 – 169] .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله والمسجد الحرام . . } .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25)

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ . . } [الحج : 25] بصيغة الماضي ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً { وَيَصُدُّونَ . . } [الحج : 25] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصَدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هي عملية آلية؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشيء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .
ومعنى { عَن سَبِيلِ الله . . } [الحج : 25] أي : عن الجهاد { والمسجد الحرام . . } [الحج : 25] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان في قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً في الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذي طالت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ، وصدُّوهم عن دخوله .
{ والمسجد الحرام . . } [الحج : 25] كلمة حرام يُستفاد منها أنه مُحرَّم أنْ تفعل فيه خطأ ، أو تهينه ، أو تعتدي فيه . وكلمة (الحَرَام) وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهي خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام .
وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذي قال الله فيه : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ . . } [الحج : 25]
وحُرْمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه؛ لأنه رَبٌّ رحيم بخَلْقه يريد أن يجعل لهم

فرصة لِسترْ كبريائهم ، والحدّ من غرورهم ، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التي كانت تُذْكي نارها عادات قبلية وسعار الحرب ، حتى أن كِلاَ الفريقين يريد أنْ يُفني الآخر ، وربما استمروا في الحرب وهم كارهون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .
لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف ، ولهذه العزة البغيضة . وكل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فحرَّم الله القتال في الأشهر الحرم ، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعيف من قبضة القوى دون أنْ يجرح كبرياءه ، وربما هَزّ رأسه قائلاً : لولا الشهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا .
فهذه - إذن - رحمة من الله بعباده ، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويَحْقِن دماءهم .
وما أشبه كبرياءَ العرب في هذه المسألة بكبرياء زوجيْن تخاصما على مَضَض ، ويريد كل منهم أنْ يأتي صاحبه ، لكن يمنعه كبرياؤه أن يتنازل ، فجلس الرجل في غرفته ، وأغلق الباب على نفسه ، فنظرتْ الزوجة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أنْ تُصالحه زوجته ، فذهبتْ وتزيَّنَتْ له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكأن أحداً يُجبرها على الدخول - (مُوديَّانِي فين يا أم هاشم)
وكذلك ، جعل في المكان محرماً؛ لأن الزمن الحرام الذي حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ، والسرد هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

فحرَّم أيضاً القتال في هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغِلّ والحِقْد والكبرياء والغرور .
يقول تعالى في تحريم القتال في البيت الحرام : { وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المسجد الحرام حتى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم كَذَلِكَ جَزَآءُ الكافرين } [البقرة : **191**] .
فلعلَّهم حين تأتي شهور التحريم ، أو يأتي مكانه يستريحون من الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعَار الحرب يجُرُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يجُرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .
والمتأمل في هذه الأماكن التي حرَّمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهي مكة ، ثم المشعر الحرام الذي يأخذ جزءاً من الزمن فقط في أيام الحج .
أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذي نراه ، الكعبة هي المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلْتَ في أعماق الأرض أو صعدْتَ في طبقات السماء .
إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ، أَلاَ ترى الناس يُصَلُّون في

الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء بكثير؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا؟ لأن الكعبة ممتدة في الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلي البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكرت على المسجدية ، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذي نتحدث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلي في الشارع فهو في هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد .

نعود إلى « ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه ، فاغتاظ المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً عنهم .

لكن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سِرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على شروطهم ، وعقد معهم صُلْحاً هو » صلح الحديبية « الذي أثار حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله : يا رسول الله ، ألسنا على الحق؟ قال صلى الله عليه وسلم : » بلى « قال : أليسوا هم على باطل؟ قال : فلِمَ نُعْطِي الدنيّة في ديننا؟ » .

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل في صفوف المسلمين يرده محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة – رضوان الله عليها – موقف عظيم في هذه الشدة ، ورَأْي سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة في الإسلام ، ونردّ به على المتشدِّقين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فُسْطاطه مُغْضباً فقال لأم سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا » يعني امرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد مُنِعُوا عن بيت الله وهم على مَرْأىً منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأوْك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عزيمة – يعني لا رجعةَ فيه – وفعلاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هدية وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة .

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة في قبول رسول الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة :

أولاً : في هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب في حَدِّ ذاته .

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه الفترة أعطتْ المسلمين فرصة

كي يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله .
ثالثاً : كان في إمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يدخلهم مكة رَغْماً عن أهلها ، وكان في مقدوره أن يقتلهم جميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميَّز المؤمنون من الكفار أو خرجوا في جانب لأمكن تفاديهم .
اقرأ قوله تعالى : { هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [الفتح : 25] .

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : { الذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ . . } [الحج : 25] أي : جميعاً { سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد . . } [الحج : 25] العاكف فيه يعني : المقيم ، والباد : القادم إليه من خارج مكة ، ومعنى { سَوَآءً . . } [الحج : 25] يعني : هذان النوعان متساويان تماماً .
لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم في بيت الله الحرام خاصة ، وفي بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .
وقد دَعَتْ هذه الآية : { سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد . . } [الحج : 25] البعض لأنْ يقول : لا يجوز تأجير البيوت في مكة ، فمَنْ أراد أن ينزل في بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوي المقيم والغريب .
وهذا الرأي مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُراً يبني فيه من أراد ، أمَّا بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة نقاش بين الحنظلي في مكة والإمام الشافعي ، حيث يرى الحنظلي أنه لا يجوز تأجير البيوت في مكة؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فردَّ عليه الشافعي رضي الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه في المهاجرين : { الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ . . } [الحشر : 8] .
فنسب الديار إليهم . ولَمَا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة : « وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع؟ » وكَوْنُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا ، فهذا دليل على ملكيتهم لها . لذلك رجع الحنظلي إلى رأي الشافعي .
هذا مع أن الآية تعني البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .
ثم يقول تعالى : { وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [الحج : 25] الإلحاد قد

يكون في الحق الأعلى ، وهو الإلحاد في الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : الميْل عن طريق الحقّ ، وقوله : { بِظُلْمٍ . . } [الحج : 25] الظلم في شيء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إنْ حدث في بيت الله فهو أمر عظيم؛ لأنك في بيت ربك (الكعبة) .

وكان يجب عليك أن تستحي من مجرد حديث النفس بمعصية ، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً؛ لأنك في مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته مَيْزة في مضاعفة الحسنات ، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت في رحاب بيته ، فتنبَّه لهذه المسألة .

حتى في أمثال أهل الريف يقولون : (تيجي في بيت العالم وتسكر) يعني : السُّكْر يُتصوَّر في بيت أحد العصاة ، في بيت فاسق ، في خمارة ، لكن في بيت عالم ، فهذا شيء كبير ، وجرأة عظيمة . لماذا؟

فللمكان حُرْمة بحُرمة صاحبة ، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فأنت تعصي ربك في عُقْر داره ، وأيْ جرأة أعظم من الجرأة على الله؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكُلُّ المساجد في أي مكان بيوت الله ، لكن هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد الله؛ لذلك جُعل بيتُ الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القِبْلة التي تتجه إليها كل بيوت الله في الأرض .

فما عاقبة الإلحاد في بيت الله؟ { نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [الحج : 25] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49] .

أي : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلام الحس . إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبْقِ فيه آلة الإحساس بالألم .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26)

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أنْ يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والقآئمين والركع السجود } [الحج : 26] معنى بَوَّأه : أي : جعله مَبَاءةً يعني : يذهب لعمله ومصالحه ، ثم يبوء إليه ويعود ، كالبيت للإنسان يرجع إليه ، ومنه قوله تعالى : { وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ الله . .

} [البقرة : 61] .

وإذ : ظرف زمان لحدث يأتي بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اذكر يا محمد الوقت الذي قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا في كل آيات القرآن تأتي (إذ) في خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحدث وقع في ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المباءة أو المكان المتبوّأ بمسألة البيت؟ قالوا : لأن المكان المتبوّأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان؛ ليرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرتْ فيه كل مُقوِّمات الحياة .

لذلك يقول تعالى في قصة يوسف عليه السلام : { وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ . . } [يوسف : 56]

وقال في شأن بني إسرائيل : { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ . . } [يونس : 93] فمعنى : { بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت . . } [الحج : 26] أي : جعلناه مبَاءة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أنْ أعلمنَاهُ ، ودَلَلْناه على مكانه .

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التي يقع فيه ويحلُّ بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه الأرض يُسمَّى « مكين في هذا المكان » . وعلى هذا فقد دَلَّ الله إبراهيم عليه السلام على المكان الذي سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول مَنْ بنى البيت . ونقول لأصحاب هذا الرأي : الحق – تبارك وتعالى – بوَّأ لإبراهيم مكان البيت ، يعني : بيَّنه له؛ كأن البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول في القصة على لسان إبراهيم : { إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . } [إبراهيم : 37] . وفي قوله تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ . . } [البقرة : 127] ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده في البناء لما شَبَّ ، وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أمّا مسألة السكن فكانت وإسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : { عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . } [إبراهيم : 37] يدل على أن العِنْدية موجودة قبل أنْ يبلغ إسماعيل أنْ يساعد أباه في بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم .

وقد أوضح الحق – سبحانه وتعالى – هذه المسألة في قوله تعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ }

[آل عمران : 96] .

وحتى نتفق على فَهْم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فآدم من الناس ، فلماذا لا يشمله عموم الآية ، فالبيت وُضِع للناس ، وآدم من الناس ،

فلا بُدَّ أن يكون وُضِع لآدم أيضاً .
إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِع حتى قبل آدم؛ لذلك نُصدِّق بالرأي الذي يقول : إن الملائكة هي التي وضعتْ البيت أولاً ، ثم طمسَ الطوفانُ معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحي منه على مكان البيت ، وأمره أنْ يرفعه من جديد في هذا الوادي .
ويُقال : إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سحابة دَلَّته على المكان ، ونطقتْ : يا إبراهيم خُذْ على قدري ، أي : البناء .
ولو تدبرتَ معنى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت . . } [البقرة : 127] الرَّفْع يعني : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكأن القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أنْ يرفعها .
لكن لماذا بوَّأ الله لإبراهيم مكان البيت؟
لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال : { رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة . . } [إبراهيم : 37] كأن المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ، الصلاة للإله الحقِ والربِّ الصِّدْق؛ لذلك أمره أولاً : { أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والقآئمين والركع السجود } [الحج : 26] والمراد : طَهِّر هذا المكان من كل ما يُشعِر بالشرك ، فهذه هي البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .
وهل كان يُعقل أنْ يدخل إبراهيم – عليه السلام – في الشرك؟ بالطبع لا ، وما أبعدَ إبراهيمَ عن الشرك ، لكن حين يُرسِل الله رسولاً ، فإنه أول مَنْ يتلقَّى عن الله الأوامر ليُبلِّغ أمته ، فهو أول مَنْ يتلقى ، وأول مَنْ يُنفذ ليكون قدوةً لقومه فيُصدِّقوه ويثقوا به؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنَجْوة عنه .
ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { يأيها النبي اتق الله . . } [الأحزاب : 1] وهل خرج محمد صلى الله عليه وسلم عن تقوى الله؟ إنما الأمر للأمة في شخص رسولها ، حتى يسهُلَ علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاضةً في هذا الأمر الذي سبقنا إليه رسول الله؛ لأنك تلحظ أن البعض يأنف أن تقول له : يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاماً ، وظن أنها لا تُقال إلا لمَنْ بدر منه ما يخالف التقوى .
وهذا فَهْم خاطئ للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعني أنني أنفي عنك التقوى ، إنما أُذكِّرك أنْ تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .
إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : { أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً . . } [الحج : 26] لا تعني تصوُّر حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال { شَيْئاً . . } [الحج : 26] ليشمل النهيُ كُلَّ ألوان الشرك ، أياً كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .
ويؤكد هذا المعنى بقوله : { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ . . } [الحج : 26] والتطهير يعني : الطهارة المعنوية

بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريكَ له ، وطهارة حِسّية ممّا أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ومعنى { لِلطَّآئِفِينَ . . } [الحج : 26] الذين يطوفون بالبيت : { والقآئمين . . } [الحج : 26] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة { والركع السجود } [الحج : 26] الذين يذهبون إليه في أوقات الصلوات لأداء الصلاة ، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً . . }

.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أنْ رفع القواعد من البيت أنْ يُؤذِّن في الناس بالحج ، لماذا؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمرّ به ، أو يعيش إلى جواره؟

فأراد الحق – سبحانه وتعالى – أنْ يُشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذْهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإنْ كانت المساجد كلها بيوت الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله؛ لذلك جعله قِبْلة لبيوته التي اختارها الخَلْق .

إن من علامات الولاء بين الناس أنْ نزور قصور العظماء وعِلْية القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه في سِجلّ الزيارات ، ويرى في ذلك شرفاً ورِفْعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتصر زيارته ورؤيته على أهله والمجاورين له أو مَنْ قُدِّر لهم المرور به؟

ومعنى { أَذِّن . . } [الحج : 27] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخذ الأذان . أي : الإعلام . ومن هذه المادة قوله تعالى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ . . } [إبراهيم : 7] أي : أعلم؛ لأن الأذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئي الذي نتعلَّم به؛ لذلك قبل أنْ تتكلَّم لا بُدَّ أنْ تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكُن حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته ، فلمَنْ يُؤذّن؟ ومَنْ سيستمع في صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون؟ فناداه ربه : « يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ » .

مهمتك أنْ ترفَع صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس ، في كل الزمان ، وفي كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ، وهم في عالم الذَّرِّ وفي أصلاب آبائهم بقدرة الله تعالى الذي قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى . . } [الأنفال : 17] .

يعني : أَدِّ ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك . فأذَّنَ إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن تقوم الساعة ، فَمنْ أجاب ولَبَّى : لبيك اللهم لبيك كُتِبَتْ له حجة ، ومَنْ لبَّى مرتين كتِبت له حجَّتيْن وهكذا ، لأن معنى لبيك : إجابةً لك بعد إجابة .

فإنْ قُلْتَ : إن مطالب الله وأوامره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات هذه المكانة؟ نقول : أركان الإسلام تبدأ بالشهادتين : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ، لو نظرتَ إلى هذه الأركان لوجدتَ أن الحج هو الركن الوحيد الذي يجتهد المسلم في أدائه وإنْ لم يكُن مستطيعاً له فتراه يوفر ويقتصد حتى من قُوته ، وربما حرمَ نفسه لِيُؤدِّي فريضة الحج ، ولا يحدث هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا في هذه الفريضة ، لماذا؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم في هذه المسألة فقال : أَذِّن - يأتوكَ ، هكذا رَغْماً عنهم ، ودون اختيارهم ، ألاَ ترى الناس ينجذبون لأداء هذه الفريضة ، وكأن قوة خارجة عنهم تجذبهم .

وهذا معنى قوله تعالى : { فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ . . } [إبراهيم : 37] ومعنى تهوي : تأتي دون اختيار من الهُوِيّ أي : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذي يسقط من مكان عالٍ ، فليس له اختيار في ألاَّ يسقط .

وهكذا تحِنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شَوْقاً إليه ، وكأن شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله { يَأْتُوكَ . . } [الحج : 27] أما في الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصي ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنصِّ القرآن .

وبعض أهل الفَهْم يقولون : إن الأمر في : { وَأَذِّن فِي الناس بالحج . . } [الحج : 27] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد صلى الله عليه وسلم - الذي نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت . . } [الحج : 26] يعني : اذكر يا مَنْ أُنْزل عليه كتابي إذْ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية { وَأَذِّن فِي الناس بالحج . . } [الحج : 27] فكأن الأمر هنا لمحمد صلى الله عليه وسلم .

لذلك لا نشاهد هذا النسك في الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى - عليه السلام - حج بيت الله ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام حَجَّ ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « » يُوشك أنْ ينزل ابن مريم ، ويأتي حاجاً ، ويزور قبري ، ويُدفن هناك « .

فقال رسول الله : » ويأتي حاجاً « لأنه لم يمت ، وسوف يدرك عهد التكليف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وسيصلي خلف إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبياء الله ورُسُله .

ومن المسائل التي نحتجُّ بها عليهم قولهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن الذبيح إسحق كما يدَّعون

لكانت مناسك الذبح والفداء ورَمْي الجمار عندكم في الشام ، أمّا هذه المناسك فهي هنا في مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكَّروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس في الأصحاح 23 ، 24 من أن الحق – سبحانه وتعالى – أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله – عز وجل – أنْ جعل في كذب الكاذب مَنْفذاً للحق ، وثغرات نصل منها إلى الحقيقة؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بُدَّ أنْ يترك المجرم قرينة تدلُّ عليه مهما احتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شيء ولو أزرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون . . إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد؛ لأن المجرم سيقع لا محالة في يد مَنْ يقتصُّ منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضي يحاوره إلى أنْ يجد في كلامه ثغرةً أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أنْ يتلجلج صاحبه أو يتردد ، أمّا الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورتَهُ أكثر من مرة لوجدتَ تغييراً وتضارباً في كلامه؛ لذلك العرب يقولون : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً . يعني : تذكَّر ما قُلْته أولاً ، حتى لا تُغيِّره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذي يفضح صاحبه قَوْلُ أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا في مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً!! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر في آخر الشهر؟

وقد يلجأ القاضي إلى بعض الحِيَل ، ولا بُدَّ أنْ يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضي الذي احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها في موضع كذا وكذا ، فلما حاور القاضي المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجَّه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى المكان ، وابحثْ لعلَّك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلّ آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضي المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضي . فخانتْه ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : { يَأْتُوكَ رِجَالاً . . } [الحج : 27] ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذي يسير على رِجْلَيْه { وعلى كُلِّ ضَامِرٍ . . } [الحج : 27] الضامر : الفَرَس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهي { يَأْتُوكَ . . } [الحج : 27] فالجميع حريص على اداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً .

وقوله : { يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } [الحج : 27] أي : من كل طريق واسع { عَمِيقٍ } [الحج : 27] يعني : بعيد .
ثم يقول الحق سبحانه : { لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ . . } .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28)

كلمة { مَنَافِعَ . . } كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أُخروية ، ولا ينبغي أنْ نُضيِّق ما وسَّعه الله ، فكُلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة يُعَد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحلته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .
ما يتم من حركة بيع وشراء في مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذي يبيع لك ، وصاحب البيت الذي يُؤجِّره لك ، وصاحب السيارة التي تنقلك .
إذن : المنافع المادية في الحج كثيرة ومتشابكة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخروية ، فحين تشتري الهَدْي مثلاً تؤدي نُسُكاً وتنفع التاجر الذي با ع لك ، والمربِّي الذي ربَّى هذا الهَدْي ، والجزار الذي ذبحه ، والفقير الذي أكل منه .
إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نَفْع لك وللناس من حيث لا تدري ، ولك أنْ تنظرَ في الهدايا التي يجلبها الحجاج معهم لأهليهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فترى بعضهم ينشغل بجَمْع هذه الأشياء قبل أنْ يُؤدِّي نُسُكه ويقضي معظم وقته في الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحمّلاً بهذه الهدايا .
لذلك يأتي إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا عليَّ دَم مُتْعة وليس معي نقود ، فماذا أفعل؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيُؤدي ما عليه وقد أنفق كُلَّ ما معه؟ فكنت أقول له : اعْطِني حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أُبقي لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .
أليست هذه كلها من المنافع؟
ومن منافع الحج ان الحاجَّ منذ أنْ ينوي أداء هذه الفريضة ويُعِد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أنْ يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهي عَمَّا كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلِح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجري عملية صَقْل خاصة تُحوِّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهْلاً لرؤية بيت الله والطواف به .
ومن الإعداد للحج أنْ يتعلّم الحاجُّ ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرُم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هِنْدامه وملابسه التي يزهو بها ، ومكانته التي يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوِّي بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله ، مع نفسه فلا يُفكّر في معصية ، ولا تمتدّ يده حتى على شعره من شعره ، أو ظُفْر من أظافره ولا يقْربُ طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل في الإحرام يحرص كل الحرص على هذه الأحكام ، وأتحدى أيَّ إنسان ينوي الحج ويأخذ في الإحرام به ، ثم يفكر في معصية؛ لأنه يُعِدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها؟ وفي الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فلا يقطع شجراً .

يتأدب حتى مع الجماد الذي يعتبره أَدْنى أجناس الكون ، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد في الوصول إليه ، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج التزام وانضباط يفوق أيَّ انضباط يعرفه أهل الدنيا في حركة حياتهم ، ففي الحج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كَمْ هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هي طمأنينة النفس البشرية حين تُقبِّل حجراً وهي راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذ لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ . . } [الحج : 28]

يذكروا اسم الله؛ لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبيته ، فَمَا من عمل يُؤَدِّيه الحاجّ إلا ويقول : لبيك اللهم لبيك . وتظل التلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمي جمرة العقبة ، ومعنى « لبيك اللهم لبيك » أن مشاغل الدنيا تطلبني ، وأنت طلبتني لأداء فَرْضِك عليَّ ، فأنا أُلبِّيك أنت أولاً؛ لأنك خالقي وخالق كل ما يشغلني ويأخذني منك .

والأيام المعلومات هي : أيام التشريق .

ومعنى : { على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ . . } [الحج : 28] أي : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتي الذي يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون في أوقات الحج . أو يشكرون الله على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام ، وإنْ لم يحجُّوا ، ففي خَلْق الأنعام – وهي الإبل والبقر والغنم والماعز – وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه ويحمله في حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ . . } [يس : 71 – 72] .

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أَكْلاً ، أو استمتاعاً بها بَيْعاً

أو زينة ، كما قال تعالى : { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل : 6] .
ولولا أن الله تعالى ذَلَّلها لِخدمتك ما استطعْتَ أنت تذليلها والانتفاع بها؛ لذلك من حكمة الله أنْ يترك بعض خَلْقه غير مُسْتأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّله لتظل على ذِكْر لهذه النعمة؛ وتشكر الله عليها .
وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو أَدْنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقضَّ مَضْجعك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة في الجمل الذي يقوده الصبي الصغير ، إذا حرن منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صَالَ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمَنْ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى نَحْره ، فيقف ساكناً مُسْتسلماً لك .
والمتأمل في حال الحيوانات التي أحلها الله لنا يجد امرها عجيباً ، فالحيوان الذي أحلَّه الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهِق روحه ، ماذا يفعل؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان ذَبْحه ، وكأنه يقول لك : أنا في اللحظات الأخيرة فاجتهد في أنْ تنتفع بلحمي ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعني الذبح . أما الحيوان الذي لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكَّس الرأس؛ لأنه لا فائدة منه .
هذا الحيوان الذي نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم . . الخ لو فكرتَ فيه لَتغيَّر رأيُك ، فالحمار الذي نتخذه رَمْزاً للغباء وعدم الفَهْم تسوقه أمامك وتُحمِّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإنْ نظفْته وزيَّنْتَه بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبة وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإنْ غضبتَ عليه واستخدمْته في الأحمال وفي القاذورات تحمَّل راضياً مطيعاً .
.
وانظر إلى هذا الحمار الذي نتخذه مثالاً للغباء ، إذا أردتَ منه ان يقفز قناة أوسع من مقدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربتَه وقسْوتَ عليه لا يُقدِم عليها أبداً؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم مقدرته ، ولا يُقدِم على شيء فوق ما يطيق – وبعد ذلك نقول عنه : حمار!!
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير . . } [الحج : 28] .
البائس : هو الذي يبدو على مِحْنته وشكله وزِيّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر والغِنَى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : { يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً . . } [البقرة : 273] .
والمعنى : كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهي الصدقة المحضة ، أو الهدية للبيت غير المشروطة

بشيء ، يعني : لا هي دم قِرَان أو تمتُّع ، ولا هي فدية لمخالفة أمر من أمور الإحرام ، أو كانت نذراً فهذه كلها لا يؤكَل منها .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ، ومن رحمة الله بالفقراء أنْ جعل الأغنياء والمياسير هم الذين يبحثون عن الذبائح ويشترونها ويذهبون لمكان الذبح ويتحمَّلون مشقة هذا كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليعطوه وهو جالس في مكانه مستريحاً ، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله سهلاً وميسّراً .

لذلك يقولون : من شرف الفقير أنْ جعله الله ركناً من أركان إسلام الغنيّ ، أي : في فريضة الزكاة ، ولم يجعل الغني ركناً من أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ . . }

.

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

{ لْيَقْضُواْ . . } [الحج : 29] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذي يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شيء في مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كأن المعنى { لْيَقْضُواْ . . } [الحج : 29] أي : يقطعوا .

ومعنى { تَفَثَهُمْ . . } [الحج : 29] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة في لسان قريش ، ولم تكن دائرة على ألسنتهم ، فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفَثُ يعني : الأدران والأوساخ التي تعلَقُ بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعةَ نزل القرآن بها .

فالمراد – إذن – ليقطعوا تفثهم أي الأدران التي لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاجُّ أيام الحج مُحْرِماً لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هَدْية يجوز له أنْ يقطع هذا التفث ، ويزيل هذه الأدران بالتحلُّل من الإحرام ، وفِعْل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : { وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ . . } [الحج : 29] يعني : طواف الإفاضة ، والطواف : أنْ تدور حول شيء بحيث تبدأ وتنتهي ، وتبدأ وتنتهي ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت في اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وُضِع للناس فهو إذن قديم ، والقِدَم هنا صفة مدح؛ لأنها تعني الشيء الثمين الذي يُحافظ عليه ويُهتَم به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل : التحف وغيرها ، وكلما مَرَّ عليها الزمن زادتْ قميتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد

بوصف البيت هنا بأنه عتيق؟
وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كُلَّ هذه المعاني : فهو قديم؛ لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر حيث نرى فيه مَا لا نراه في غيره من آيات ، ويكفي أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذي لا مثيلَ له .
وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألاَ ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بأبرهة حين أراد هَدْمه؟ حتى الفيل الذي كان يتقدَّم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءٌ على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجَّه أي وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .
ويُقال : إن رجلاً تقدّم إلى الفيل . وقال في أذنه : ابْرُك محمود – اسم الفيل – وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام . وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف ، فقال :
حُبِسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حَتَّى ... ظَلَّ يعوي كأنه مَعْقُور
ثم ينزل الله عليهم الطير الأبابيل التي ترميهم بالحجارة حتى الموت .
لذلك لما ذهب عبد المطلب جَدُّ الرسول صلى الله عليه وسلم ليُكلِّم أبرهة في الإبل المائة التي أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك حين رأيتُك ، لكنك سقطت من نظري لما كلَّمتني في مائة بعير أصبْتها لك ، وتركتَ البيت الذي فيه مجدُكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب؟ قال : أما الإبل فإنها لي ، أما البيت فله رَبٌّ يحميه .
البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةً منه في حماية الله لبيته؛ لذلك رَدَّه إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إنْ كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتي وقدرتي وحيلتي ، لكنني أريد أنْ أرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ البيت إلاَّ وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو وتُربكه .
وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما قال له قومه : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : **61**] فقال في يقين وثقة : {كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : **62**] .
إذن : لم يكُنْ عبد المطلب سلبياً كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً من النوع الراقي ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذي تريدون لأعطتْه هذه الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرُّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً بقدرة الله وقُوَّته سبحانه؛ لذلك تدخَّلتْ فوراً جنود السماء .
لكن لماذا الطواف والدوران حول الكعبة؟
قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصلِّي لجهتها ، كلّ حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين في كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعني بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبتَ إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفتَ برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذي كنتَ تتجه إليه في صلاتك وغيرك وغيرك؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : { فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله . . } [البقرة : 115] فليس هناك مكان أَوْلَى من مكان؛ لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذلك وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام . . }

.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30)

{ ذلك . . } إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمْر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتي ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلَّق به من مناسك الحج يستأنف السياق : { وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ . . } [الحج : 30] فالحق – سبحانه – يريد لعبده أنْ يلتزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النهي ، فكُلُّ أمر لله يَحْرُم عليك أن تتركه ، وكلّ نَهْي يحرم عليك أنْ تأتيه ، فهذه هي حرمات الله التي ينبغي عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهي .

وحين تُعظِّم هذه الحرمات لا تُعظمها لذاتها ، فليس هناك شيء له حُرْمة في ذاته ، إنما تُعظِّمها لأنها حرمات الله وأومره؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتغيّراً ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً في الظاهر .

فالوضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجوده حَلَّ محلّه التيمُم بالتراب الطاهر الذي نُغبِّر به أعضاء التيمم ، إذن : ليس في الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبل على أمر غير عادي يجب عليك أنْ تتطَّهر له بالوضوء ، فإنْ أمرتُكَ بالتيمم فعليك الالتزام دون البحث في أسباب الأمر وعِلّته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها؛ لأنها من الله ، ولِمَ لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة التأديب في الالتزام في تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندي حين يُجنَّد يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أنْ يُمسِك سلاحاً أوْ يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة « ثابت » معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لَدغه عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود في صالة الطعام فيقول : ثابت فينفذ الجميع . . الملعقة التي في الطبق تظل في الطبق ، والملعقة التي في فم الجندي تظل في فمه ، فلا ترى في الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركي السلوكي مقدمة للانضباط في الأمور العسكرية الهامة

والخطيرة بعد ذلك .
إذن : فربُّك – عز وجل – أَوْلَى بهذا الانضباط؛ لأن العبادة ما هي إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففي الطواف تُقبِّل الحجر الأسود ، وفي رمي الجمار ترمي حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقَبَّل وحَجر يُقْنبل؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمات الله .
لذلك الإمام علي – رضي الله عنه – يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول في التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .
وقد ذكرنا في الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هي الأشياء المحرمة التي يجب الاَّ تفعلها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : { فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ . . } [الحج : 30] الخيرية هنا ليست في ظاهر الأمر وعند الناس أو في ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .
ثم يقول سبحانه : { وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ . . } [الحج : 30] قد تقول : كيف وهي حلال من البداية وفي الأصل ، قالوا : لأنه لما حرَّم الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه في قوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وَمَآ أَكَلَ السبع إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بالأزلام . . } [المائدة : 3] .
وقوله تعالى : { وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ . . } [الأنعام : 121] .
ومعنى : { فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان . . } [الحج : 30] الرِّجْس : النجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشيء . يعني : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هي في نفس الشيء لا يمكن أنْ تفصلها عنه .
{ واجتنبوا . . } [الحج : 30] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعي هذه المعصية؛ لأنك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومَنْ حام حول الشيء يوشك أنْ يقع فيه ، لذلك لم يقُل الحق – سبحانه وتعالى – امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر في اجتنبوا لا يعني تحريم الخمر ، فلم يَقُلْ : حُرِّمَتْ عليكم الخمر .
نقول : اجتنبوا أبلغ في النهي والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عليكم ، لو قال الحق – تبارك وتعالى – حُرِّمت عليكم الخمر ، فهذا يعني أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها

وتحملها وتبيعها ، أما اجتنبوا فتعني : احذروا مجرد الاقتراب منها على أيِّ وجه من هذه الوجوه . لذلك ، تجد الأداء القرآني للمطلوبات المنهجية في الأوامر والنواهي من الله يُفرّق بين حدود ما أحلَّ الله وحدود ما حرَّم ، ففي الأوامر يقول : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . } [البقرة : 229] .

وفي النواهي يقول : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . } [البقرة : 187] .

ففي الأوامر وما أحلَّ الله لك قِفْ عند ما أحلَّ ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمَّا المحرمات فلا تقترب منها مجردَ اقتراب ، فلما أراد الله نَهْي آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : { وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة . . } [البقرة : 35] .

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجْس في عبادة الأصنام قال : { واجتنبوا قَوْلَ الزور } [الحج : 30] فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما في الإثم سواء؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم سلَّم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة زور جعلها الله بعد الأوثان » .

لماذا؟ لأن في شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير في الحقيقة ، أو يذمُّ الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

ولما عدَّد النبي صلى الله عليه وسلم الكبائر ، قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين – وكان متكئاً فجلس – فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، قال الراوي : فما زال يكررها حتى قلنا (ليته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت » .

ويقولون في شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ، ضلَّلتَ القُضاة ، وحلفت كاذباً بالله . ومن العجيب في شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شَهِد لصالحك ، ورفع رأسك على خَصْمك لكن داستْ قدمك على كرامته وحقَّرته ، ولو تعرَّض للشهادة في قضية أخرى فأنت أول مَنْ تفضحه بأنه شهد زوراً لصالحك .

ثم يقول سبحانه : { حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء . . } .

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)

اكتفتْ الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به ، وحنفاء : جمع حنيف ، مأخوذة من حنيف الرِّجل يعني : تقوُّسها وعدم استقامتها ، فيقال : فيه حَنَف أي : ميْل عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُعْوجون ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة .

لذلك وُصِف إبراهيم – عليه السلام – بأنه {كَانَ حَنِيفاً . . } [آل عمران : 67] يعني : مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا : إن السماء لا تتدخَّل برسالة جديدة إلا حين يَعمُّ الفسادُ القومَ ، ويستشري بينهم الضلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظَ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته؛ ذلك لأن في النفس البشرية مناعةً للحق طبيعية ، لكن تطمسها الشهوات ، فإذا عُدِم هذا الواعظ وهذه المناعة في المجتمع تدخَّلَتْ السماء بنبي جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد؛ لأن الفساد عَمَّ الجميع ، ولم يَعُدْ أحد يعِظُ الآخر ويهديه .

وهذا المعنى الذي قال الله فيه : {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المائدة : 79]

ومن هنا شهد الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنها خير أمة أُخرِجَتْ للناس؛ لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم؛ لذلك قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة » .

والمعنى : الخير فِيَّ حصراً وفي أمتي نَثْراً ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع خصال الخير كله ، وخَصه الله بالكمال ، لكن مَنْ يُطيق الكمال المحمدي من أمته؟ لذلك نثر الله خصال الخير في جميع أمة محمد ، فأخذ كلّ واحد منهم صفةً من صفاته ، فكماله صلى الله عليه وسلم منثور في أمته : هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حليم . . إلخ .

ولما كان لأمة محمد هذا الدور كان هو خاتم الأنبياء؛ لأن أمته ستؤدي رسالته من بعده ، فلا حاجة – إذن – لتدخل السماء برسالة جديدة إلى أن تقوم الساعة .

إذن نقول : الرسل لا تأتي إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم لِيُقوِّموا هذا الاعوجاج ، ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو { حُنَفَآءَ لِلَّهِ . . } [الحج : 31] .

وهذه الصفة هي مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسبابَ الكمال ثم نقول : ينبغي أن يكون كذا وكذا ، لا إنما الذي يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

والحق – سبحانه وتعالى – ليس مراده من الفعل أنْ يُفعل لذاته ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أنْ يُفعل لأنه أمر به ، وقد أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذي يفعل الخير وينفع الناس والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق الإنسانية والمكانة الاجتماعية

والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا لا يجحفه الله حَقه ، ولا يبخسه ثواب عمله ، يعطيه لكن في الدنيا عملاً بقول الله تعالى :

{ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [الكهف : **30**] .

لكن لا حَظَّ لهؤلاء في ثواب الآخرة؛ لأنهم عملوا للمجتمع وللناس وللمنزلة ، وقد أخذوا المقابل في الدنيا شُهْرة وصيتاً ذائعاً ، ومكانة وتخليداً .

وفي الحديث القدسي يقول الحق سبحانه لهم : « لقد فعلْتَ ليُقال وقد قيل » وانتهت المسألة .

والحق – تبارك وتعالى – ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب . . } [النور : **39**] .

فعمل الكافر كالسراب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفُوجِئ بوجود إله عادل لم يكُنْ في باله يوم عمل ما عمل .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ . . } [إبراهيم : **18**] .

وقال : { كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين . . } [البقرة : **264**] .

وهل ينبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصَّلد الأملس؟ هكذا عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقق معنى { حُنَفَآءَ للَّهِ . . } [الحج : **31**] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن : العمل لا يُفعَل؛ لأنه حسن في ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سيأمرك بأمور لا تجد فيها حُسْناً ، ومع ذلك عليك أنْ تلتزم بها لتحقق الانضباط الذي أراده منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحُسْن في هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رعايته وإكرامه وكفالته حتى أنه قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى » فكافل اليتيم قرين لرسول الله في الجنة .

ففي هذا الموقف حِكَم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يَجِدْ له أباً ، في حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً من كل الناس كأنهم آباؤه لتربّي عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذي حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سويّة في المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على

الناس؛ لأنهم جميعاً عاملوه كأنه ولد لهم .
وهناك ملحظ آخر : حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع وينهض به يطمئن قلبك إنْ فاجأك الموت وأولادك صغار ، هذه مناعات يجعلها الإسلام في المجتمع : مناعة في نفس اليتيم ، ومناعة فيمَنْ يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدَّ أنْ تتم في إطار { حُنَفَآءَ للَّهِ . . } [الحج : 31] فيكون عملك لله خالصاً ، دون نظر إلى شيء آخر من متاع الدنيا ، كالذي يسعى للوصاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطمعاً في أمه . . إلخ فهذا عمله كالذي قُلْنا : (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صَلْد لا ينبت شيئاً .
فإنْ حاول الإنسان إخلاص النية لله في مثل هذا العمل فإنه لا يأمن أنْ يخالطه شيء ، كما جاء في الحديث الشريف : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك » .
الصفة الثانية التي وصف الله بها عباده المؤمنين : { غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ . . } [الحج : 31]
فالشرك أمر عظيم؛ لأن الحق – تبارك وتعالى – كما قال في الحديث القدسي – أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود؟
لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشِرْكه » .
ويعطينا الحق سبحانه بعدها صورة توضيحية لعاقبة الشرك : { وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . . } [الحج : 31] .
خرَّ : يعني سقط من السماء لا يُمسكه شيء ، ومنه قوله تعالى : { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ . . } [النحل : 26] .
وفي الإنسان جمادية؛ لأن قانون الجاذبية يتحكم فيه ، فإنْ صَعِد إلى أعلى لا بُدَّ أنْ يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبية ، لا يملك أنْ يُمسِك نفسه مُعلَّقاً في الهواء ، فهذا أمر لا يملكه وخارج عن استطاعته ، وفي الإنسان نباتية تتمثل في النمو ، وفيه حيوانية تتمثل في الغرائز ، وفيه إنسانية تتمثل في العقل والتفكير والاختيار بين البدائل ، وبهذه كُرِّم عن سائر الأجناس .
وتلحظ أن (خرَّ) ترتبط بارتفاع بعيد { خَرَّ مِنَ السمآء . . } [الحج : 31] بحيث لا تستطيع قوة أنْ تحميه ، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره ، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطفه الطير ، فإنْ لم تتخطفه تهوي به الريح في مكان بعيد وتتلاعب به ، فهو هالك هالك لا محالةَ ، ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية .
وعلى العاقل أنْ يتأمل مغزى هذا التصوير القرآني فيحذر هذا المصير ، فهذه حال مَنْ أشرك

بالله ، فإنْ أخذتَ الصورة على أنها تشبيه حالة بحالة ، فها هي الصورة أمامك واضحة ، وإنْ أردتَ تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها : فالسماء هي الإسلام ، والطير هي الشهوات ، والريح هي ريح الشيطان ، يتلاعب به هنا وهناك . فأيُّ ضياع بعد هذا؟ ومَنْ ذا الذي ينقذه من هذا المصير؟

ثم يقول سبحانه : { ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله . . }

.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32)

{ ذلك . . } [الحج : 32] كما قلنا في السابقة : إشارة إلى الكلام السابق الذي أصبح واضحاً معروفاً ، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تَنبَّه له .

{ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله . . } [الحج : 32] الشعائر : جمع شعيرة ، وهي المعالم التي جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسَّعْي شعيرة ، ورمْي الجمار شعيرة . . إلخ . وهذه أمور عظّمها الله ، وأمرنا بتعظيمها .

وتعظيم الشيء أبلغ وأشمل من فِعْله ، أو أدائه ، أو عمله ، عَظَّم الشعائر يعني : أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طُلِبَ منه .

ومثالنا في ذلك : خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أنْ يرفع قواعد البيت : كان يكفيه أنْ يبني على قَدْر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدّى ما أُمِر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبَّه فاحتال للأمر ووضع حجراً على حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحبة أمر الله مَرْقى من مراقي الإيمان ، يجب أن نسموَ إليه ، حتى في العمل الدنيوي : هَبْ أنك نُقِلْتَ إلى ديوان جديد ، ووصل إلى عِلْمك أن مدير هذا الديوان رجل جادّ وصعب ، ويُحاسب على كل صغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسيّب أثناء الدوام الرسمي ، فإذا بك تلتزم بهذه التعليمات حرفياً ، بل وتزيد عليها ليس حباً في العمل ، ولكن حتى لا تُسأَل أمام هذا المدير في يوم من الأيام .

إذن : الهدف أنْ نؤدي التكاليف بحُبٍ وعِشْق يُوصِّلنا إلى حب الله عز وجل؛ لذلك نجد من أهل المعرفة مَنْ يقول : رُبَّ معصية أورثتْ ذلاً وانكساراً خَيْر من طاعة أورثت عِزاً واستكباراً .

فالمهم أن نصل إلى الله ، أن نخضع لله ، أنْ نذِلّ لعزته وجلاله ، والمعصية التي تُوصِّلك إلى هذه الغاية خير من الطاعة التي تُسلِمك للغرور والاستكبار .

هذه المحبة للتكاليف ، وهذا العشق عبَّر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : « وجُعلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة » لذلك نَعَي القرآن على أولئك الذين { إِذَا قاموا إِلَى الصلاة قاموا كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً . . } [النساء : 142] .

وابنته فاطمة – رضي الله عنها – كانت تجلو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت : لأنني نويتُ أنْ أتصدَّق به ، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أنْ يقع في يد الفقير . هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب .

وفي عصور الإسلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسبقهم إلى صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظَّموا شعائر الله فلم يُقدِّموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أنْ قال : لقد أصبحتُ أخشى ألا يثيبني الله على طاعته ، فسألوه : ولماذا؟ قال : لأنني أصبحتُ أشتهيها يعني : أصبحتْ شهوة عندي ، فكيف يُثاب – يعني – على شهوة عندي؟!

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرَّحْب والسِّعَة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظِّمونه؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون في أمور فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل تعدُّد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم مَنْ يتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يليق .

نقول لهم : ما دُمْتُم آمنتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موازين الكمال من عند أنفسكم . وتقولون : كان ينبغي أنْ يفعل كذا ، ولا يفعل كذا؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فِعْل رسول الله؟ المفروض أن الكمال منه صلى الله عليه وسلم ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

ثم يقول سبحانه : { فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب } [الحج : 32] ليست من تقوى الجوارح ، بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محلُّ نظر الله إليك ، ومحلُّ قياس تعظيمك لشعائر الله .

وسبق أنْ ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أنْ يُخضِع قوالبنا ، إنما يريد أنْ يُخضع قلوبنا ، ولو أراد سبحانه أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمة ، كما جاء في قوله تعالى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3 – 4] .

وأنت تستطيع أنْ تُرغِم مَنْ هو أضعف منك على أيِّ شيء يكرهه ، إنْ شئتَ سجد لك ، لكن لا تملك أنْ تجعل في قلبه حباً أو احتراماً لك ، لماذا؟ لأنك تجبر القالب ، أمّا القلب فلا سلطة لك عليه بحال .

ثم يقول الحق سبحانه : { لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . }

.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

يعني : ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظِّموها؛ لأن لكم فيها منافع عرفتها أو لم تعرفها ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقي؛ لأنه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص في هذا العمل .

ومعنى { إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . } [الحج : 33] ما دام الحق – سبحانه وتعالى – ذَيَّل الآية بقوله { ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق . . } [الحج : 33] .

إذن : فالمراد هنا شعيرة الذَّبْح ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، ونتخذها زينة وركوبة .

كل هذا { إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . } [الحج : 33] يعني : زمن معلوم ، وهو حين تقول وتنوي : هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه النية فليس لك الانتفاع بشيء منها ، لا أنت ولا غيرك؛ لذلك يُميِّزونها بعلامة حتى إنْ ضلت من صاحبها يعرفون أنها مُهْداة لبيت الله ، فلا يأخذها أحد .

وما دامت هذه منافع إلى أجل مسمى ، فلا بُدَّ أنها المنافع الدنيوية ، أما المنافع الأخروية فسوف تجدها فيما بعد في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : { ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق } [الحج : 33] أي : بعد هذا الأجل المسمى ينتهي بها المطاف عند الحرم حيث تُذبَح هناك .

وقد كان للعلماء كلامٌ حول هذه الآية : { ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق } [الحج : 33] حيث قالوا : محل الذَّبْح في مِنَى ، وليس في مكة ، والآية تقول ، محلها البيت العتيق .

نقول : الأصل كما جاء في الآية أن الذبح في مكة وفي الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبْح في الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرُؤي أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أنْ يكون الذَّبْح في الحرم ، كما جاء في آية أخرى : { هَدْياً بَالِغَ الكعبة . . } [المائدة : 95] وفي الحديث الشريف : « مكّةُ كلُّها مَنْحرٌ » .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام . . }

.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

يُبيِّن لنا الحق سبحانه بعض صفات المختبين ، فهم { الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . } [الحج : 35] (وَجِلت) : يعني خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له ، ومهابة منه .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : { أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب } [الرعد : 28] . فمرة يقول { وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . } [الحج : 35] ومرة { تَطْمَئِنُّ القلوب } [الرعد : 28] ، لماذا؟ لأن ذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عز وجل ، أما إنْ جاء ذِكْر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئنُّ به ، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة وتركَنُ إليه عند الضيق والبلاء ، فإنْ تعرَّضَت لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول : أنا لي رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى – عليه السلام – حين قال : { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] .

{ والصابرين على مَآ أَصَابَهُمْ . . } [الحج : 35] ومعنى أصاب : يعني جاء بأمر سيء في عُرْفك أنت ، فتعده مصيبة؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حَسْب سطحية العمل الإيذائي ، إنما لو أخذتَ مع المصيبة في حسابك الأجر عليها لهانَتْ عليك وما أعتبرتَها كذلك؛ لذلك في الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : « المصاب من حرم الثواب » .

هذا هو المصاب حقاً الذي لا تُجبَر مصيبته ، أما أنْ تُصاب بشيء فتصبر عليه حتى تنالَ الأجر فليس في هذا مصيبة .

ثم يقول سبحانه : { والمقيمي الصلاة . . } [الحج : 35] لأن الصلاة هي الولاء الدائم للعبد المسلم ، والفرض الذي لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكفي أنْ تقولها في العمر مرة ، والزكاة إنْ كان عندك نِصَاب فهي مرة واحدة في العام كله ، والصيام كذلك ، شهر في العام ، والحج إنْ كنتَ مستطيعاً فهو مرة واحدة في العمر ، وإنْ لم تكُنْ مستطيعاً فليس عليك حج .

إذن : الصلاة هي الولاء المستمر للحق سبحانه على مَدار اليوم كله ، وربك هو الذي يدعوك إليها ، ثم لك أنْ تُحدِّد أنت موعد ومكان هذا اللقاء في حَضْرته تعالى؛ لأنه سبحانه مستعد للقائك في أيِّ وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويُحتِّم عليك أنْ يراك في اليوم خمس مرات لتكون في حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقائه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات في اليوم والليلة؛ لأنه سبحانه لا يتكلف في هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يَلْقَى الجميع في وقت واحد .

ولما سئل الإمام علي – رضي الله عنه – : كيف يُحاسب اللهُ كلَّ هؤلاء الناس في وقت واحد؟ قال : كما أنه يرزقهم جميعاً في وقت واحد .

وقوله تعالى : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [الحج : 35] لا ينفقون من جيوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه .

ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغدِق عليك تفضلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . } [الحديد : 11]
وكأن الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود في هبتي ولا عطائي ، فأقول : أعْطِ ما أخذته لفلان ، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدَّخر لا يضيع ، فرِزْقك الذي وهبك الله إياه مِلْكك ، ولا نغبنك في شيء منه أبداً ، فربّك يحترم ملكيتك ويحترم جزاء عملك وجدّك واجتهادك .
نقول – ولله المثل الأعلى – : كالرجل الذي يحتاج مبلغاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من الباقين ما معهم وما ادخروه من مصروفاتهم على وَعْد أنْ يُعوِّضهم بدلاً منها فيما بعد .
لذلك يقول بعدها : { فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . } [الحديد : 11] فيعاملك ربك بالزيادة؛ لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرَّم علينا الربا وهو يعاملنا به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : اترك لي أنا هذا التعامل؛ لأنني حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أُنقِص مما عندي ، ولا أُرهِق ضعيفاً ولا محتاجاً ولا أستغلّ حاجته .
والصدقة في الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج ، فأخوَفُ ما يخافه المرءُ الحاجة عند الكبَر ، وعدم القدرة على الكَسْب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يخاف أنْ ينفد ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كِبَره .
وعندها يقول له ربه : اطمئن ، فكما أَعطيْتَ حال يُسْرك سيعطيك غيرُك حال عَوَزِك وحاجتك .

إذن : أخذ منك ليعطيك ، وليُؤمِّن لك مستقبل حياتك الذي تخاف منه .
الصدقة في الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين في شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوْتَ الكِبَر والعجز نقول لك : لا تحزن فأنت في مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أنْ تعطي وأنت واجد طلبنا من غيرك أنْ يعطيَك وأنت مُعْدم .
ثم يقول الحق سبحانه : { والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ الله لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا . . }

.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36)

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى في النفقة مِمَّا رزقكم الله تكلَّم في النفقة في البُدْن ، والبُدْن : جمع بَدَنة ، وهي الجمل أو الناقة ، أو ما يساويهما من البقر ، وسمَّاها بَدَنة إشارة إلى ضرورة أنْ تكون بدينة سمينة وافرة ، ولا بُدَّ أنْ تراعي فيها هذه الصفة عند اختيارك للهَدْي الذي ستُقدمه لله ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله ما يكرهون ، إنما كُنْ من الذين قال الله لهم : { يأيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ . . } [البقرة : 267] وقوله تعالى : { فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ . . } [الحج : 36] أي : اذكروا الله بالشكر على أنْ وهبها وذلَّلها لكم ، واذكروا اسم الله عليها حين ذَبْحها .

ومعنى { صَوَآفَّ . . } [الحج : 36] يعني : واقفةً قائمة على أرْجُلها ، لا ضعفَ فيها ولا هُزَال ، مصفوفة وكأنها في معرض أمامك . وهذه صفات البُدْن الجيدة التي تناسب هذه الشعيرة وتليق أنْ تُقدَّمْ هَدْياً لبيت الله .

ومعنى : { فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا . . } [الحج : 36] وجبَ الشيء وجباً يعني : سقط سقوطاً قوياً على الأرض ، ومعلوم أن البَدَنة لا تُذبح وهي مُلْقاة على الأرض مثل باقي الأنعام ، وإنما تُنْحر وهي واقفة ، فإذا ما نُحِرَتْ وقعتْ على الأرض وارتمتْ بقوة من بدانتها .

{ فَكُلُواْ مِنْهَا . . } [الحج : 36] وقلنا : إن الأكل لا يكون إلا من الهَدْي المحض والتطوع الخالص الذي لا يرتبط بشيء من مسائل الحج ، فلا يكون هَدْيَ تمتُّع أو قِرَان ، ولا يكون جِبْراً لمخالفة ، ولا يكون نَذْراً . . إلخ .

وعِلَّة الأمر بالأكل من الهَدْي؛ لأنهم كانوا يتأففون أنْ يأكلوا من المذبوح للفقراء ، وكأن في الأمر بالأكل منها إشارة لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

ومعنى : { القانع والمعتر . . } [الحج : 36] القانع : الفقير الذي يتعفَّف أنْ يسأل الناس ، والمعترّ : الفقير الذي يتعرَّض للسؤال .

ثم يقول سبحانه : {كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . } [الحج : 36] يعني : سخّرناها لكم ، ولو في غير هذا الموقف ، لقد سخَّرها الله لكم منذ وُجِد الإنسان؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله على أنْ أوجدها وملّككم إياها ، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم ، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذي سيعود عليكم بالنفع في الدنيا وفي الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانة : { لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ . . }

.

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

ذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطّخون الصنم بدماء الذبيحة ، كأنهم يقولون له : لقد ذبحنا لك ، وها هي دماء الذبيحة ، وفي هذا العمل منهم دليل على غبائهم وحُمْق تصرفهم ، فهم يروْن أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله .

وهنا ينبه الحق – سبحانه وتعالى – إلى هذه المسألة : { لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا . . } [الحج : 37] يعني : لا يأخذ منها شيئاً ، وهو سبحانه قادر أنْ يعطي الفقير الذي أمرك أنْ تعطيه ، ويجعله مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس في مسألة الفقر والغنى أن يُحدِث توازناً في المجتمع ، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على وتيرة واحدة ، إنما هي حياة بشر لا بُدَّ من هذه التفاوتات بين الناس ، ثم تتدخّل الشرائع السماوية فتأخذ من القوى وتعطي الضعيف ، وتأخذ من الغني وتعطي الفقير . . وساعتها ، نقضي على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأَثَرَة .

فحين يعطي القويُّ الضعيفَ من قوته لا يحسده عليها ، ويتمنى له دوامها؛ لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطي الغنّي مما أفاض الله عليه للفقير يُؤلِّف قلبه ، ويجتثّ منه الغِلَّ والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لا بد من هذا التفاوت ليتحقق فينا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً » .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذي ينثر منها على غيره ، إنْ أصابته في ماله مصيبة يحزن له الآخرون ويتألمون بألمه؛ لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيرُه ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الواحد منهم يُرِبِّي البقرة أو الجاموسة؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعُونَ الله له أنْ يبارك له في ماله ، وإنْ أصابته ضرَّاء في ماله حَزِنوا من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على مَنْ حُرِم منها تدفع عن نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإنْ لم تفعل فلا أقلَّ من إخفاء هذا الخير عن أعْيُنِ المحتاجين حتى لا تثير حفائظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يُردعه إيمانه فلا تمتدّ عيناه إلى ما في يدك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حُرِموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هنا تكون المشكلة وقوله تعالى : { ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ . . } [الحج : 37] واتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصي ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج ب « افعل » و « لا تفعل » ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أنْ تتذكر في كل نعمة مَنْ أنعم بها ، وإياك أنْ تُنسيَك النعمةُ المنعِمَ .

ثم يقول تبارك وتعالى : { كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المحسنين } [الحج : 37]

تلحظ هنا مسألة المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون في القرآن الكريم ، ففي الآية السابقة ذَيَّلها الحق سبحانه بقوله : {كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الحج : 36] . هذه المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون في القرآن ويُقلِّبون في آياته؛ لذلك يجمعون مثل هذه المتشابهة التي تتحدث في موضوع واحد ويُرتِّبونها في الذِّهن؛ لذلك لا يُؤتمنون على الحِفْظ ، ومن هنا قالوا : ينبغي لِمَنْ أراد حِفْظ القرآن أنْ يدعَ مسألة العلم جانباً أثناء حِفْظه ، حتى إذا نسي كلمةً وقف مكانه لا يتزحزح إلى أنْ يعرفها ، أمّا العالم فربما وضع مرادفها مكانها ، واستقام له المعنى .

والمراد بقوله تعالى : { لِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ . . } [الحج : 37] يعني : تذكرونه وتشكرونه على ما وفّقكم إليه من هذه الطاعات { وَبَشِّرِ المحسنين . . } [الحج : 37] بشِّر يعني : أخْبِرْ بشيء سَارٍّ قبل مَجِيء زمنه ، ليستعد له المبشَّر ويفرح به ، كذلك الإنذار : أن تخبر بشيء سيء قبل حلوله أيضاً؛ ليستعد له المنذر ، ويجد الفرصة التي يتلافى فيها خطأه ، ويُجنِّب نفسه ما يُنذَر به ، ويُقبل على ما يُنجيه .

و { المحسنين . . } [الحج : 37] : جمع مُحسِن ، والإحسان : أعلى مراتب الإيمان ، وهو أنْ تُلزِم نفسك بشيء من طاعة الله التي فرضها عليك فوق ما فرض ، فربُّك عز وجل فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة ، وفي إمكانك أنْ تزيد من هذه الصلوات ما تشاء ، لكن من جنس ما فرض الله عليك ، لا تخترع أنت عبادة من عندك ، كذلك الأمر في الصوم ، وفي الزكاة ، وفي الحج ، وفي سائر الطاعات التي ألزمك الله بها ، فإنْ فعلت هذا فقد دخلتَ في مقام الإحسان .

وفي الإحسان أمران : مُحسن به وهو العبادة أو الطاعة التي تُلزِم نفسك بها فوق ما فرض الله عليك ، ودافعٌ عليه ، وهو أن تؤدي العمل كأن الله يرقبك ، كما جاء في حديث جبريل : « والإحسان أنْ تعبدَ الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك » .

فمراقبتك لله ومراعاتك لنظره تعالى إليك ، يدفعك إلى هذا الإحسان ، أَلاَ ترى العامل الذي تباشره وتُشرِف عليه ، وكيف يُنهِي العمل في موعده؟ وكيف يُجيده؟ على خلاف لو تركتَه وانصرفْتَ عنه .

فإنْ لم تَصِل إلى هذه المرتبة التي كأنك ترى الله فيها ، فلا أقلَّ من أنْ تتذكر نظره هو إليك ، ومراقبته سبحانه لحركاتك وسكناتك .

لذلك ، في سورة الذرايات : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } [الذاريات : 15 - 16] ثم يُفسِّر سبب هذا الإحسان : {كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 17-19] .

ومَنْ يلزمك بهذه الكاليف؟ لك أنْ تصلي العشاء ثم تنام إلى الفجر ، كذلك لم يُلزمك بالاستغفار وقت السَّحَر ، ولم يلزمك بصدقة التطوع . إذن : هذه طاعات فوق ما فرض الله وصلَتْ بأصحابها إلى مقام الإحسان ، وأعلى مراتب الإيمان ، فليُشمِّر لها مَنْ أراد .
ثم يقول الحق سبحانه : { إنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا . . } .

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)

صَدْر الآية : { إنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا . . } [الحج : 38] يُشْعِرنا أن هناك معركة ، والمعركة التي يدافع الله فيها لا بُدَّ أنها بين حق أنزله ، وباطل يُواجهه ، وقد تقدَّم قبل ذلك أن قال تبارك وتعالى : { هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ . . } [الحج : 19] .
وما دام هناك خصومة فلا بُدَّ أنْ تنشأ عنها معارك ، هذه المعارك قد تأخذ صورة الألفاظ والمجادلة ، وقد تأخذ صورة العنف والقوة والشراسة والالتحام المباشر بأدوات الحرب .
ومعركة النبي صلى الله عليه وسلم مع معارضيه من كفار مكة لم تقف عند حَدِّ المعركة الكلامية فحَسْب ، فقد قالوا عنه - صلوات الله وسلامه عليه : ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وشاعر ، ومُفْتر . . إلخ ثم تطوَّر الأمر إلى إيذاء أصحابه وتعذيبهم ، فكانوا يأتون رسول الله مَشْدوخين ومجروحين فيقول لهم صلى الله عليه وسلم : « لم أومر بقتال ، اصبروا اصبروا ، صبراً صبراً . . » .
إلى أنْ زاد اعتداء الكفار وطَفَح الكَيْل منهم أذن الله لرسوله بالقتال ، فقال : { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الحج : 39] .
فقوله تعالى : { إنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا . . } [الحج : 38] صيغة يدافع : مبالغة مِنْ يدفع ، معنى يدفع يعني : شيئاً واحداً ، أو مرة واحدة ، وتنتهي المسألة ، أمّا يدافع فتدل على مقابلة الفعل بمثله ، فالله يدفعهم وهم يقابلون أيضاً بالمدافعة ، فيحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا في معركة .
والمعركة تعني : منتصر ومنهزم ، لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة في صفوفهم ، وسيدافع عنهم .
فقوله تعالى : { إنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا . . } [الحج : 38] أمر طبيعي؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليُرسِل رسولاً ، ويتركه لأهل الباطل يتغلَّبون عليه ، وإلاّ فما جَدْوى الرسالة إذن؛ لذلك يُطمئِن الله تعالى رسوله ويُبشِّره ، فيقول : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171 - 173] .
وقال : { وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ . . } [الحج : 40] .
وقال : { إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد : 7] .

فهذه كلها آيات تُطمئِن المؤمنين وتُبشّرهم ، وقد جاءتْ على مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال في البداية لحكمة ، ثم جعل القتال فيما بينهم ، وقبْل أنْ يأذنَ لهم في قتال أعدائهم لحكمة : هي أنْ يَبْلوا المؤمنين ويُمحِّصهم ليُخرِج من صفوفهم أهل الخَوَر والجُبْن ، وضعيفي الإيمان الذين يعبدون الله على حَرْف ، ولا يبقى بعد ذلك إلا قويُّ الإيمان ثابتُ العقيدة ، الذي يحمل راية هذا الدين وينسَاح بها في بقاع الأرض؛ لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أنْ تقوم الساعة ، ولما كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بُدَّ لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداءُ القضاءَ عليها فلن تقومَ لدين الله قائمة .

إذن : كان لا بُدَّ أن يُصفِّي الحقُ سبحانه أهلَ الإيمان كما يُصفِّي الصائغُ الذهبَ ، ويُخرِج خَبَثه حين يضعه في النار ، كذلك كانت الفِتَن والابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم ، لكن بالقتال في صَفٍّ واحد .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } [الحج : 38] فكأن الحق – سبحانه وتعالى – أصبح طرفاً في المعركة ، والخَوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى الخيانة يقتضي أن هناك أمانةً خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهي أمانة التكليف التي قال الله فيها : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان . . } [الأحزاب : 72] فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِي أنْ يكونَ أهْلاً لها .

وهناك أمانة قبل هذه ، وهي العهد الذي أخذه الله على عباده ، وهم في مرحلة الذَّرِّ : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ . . } [الأعراف : 172 – 173] .

فإنْ قالوا : نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، ومَنْ مِنَّا يذكرها الآن؟

نقول : ألم تُقِرُّوا بأن الله خلقكم ، وأوجدكم من عدم ، وأمدكم من عُدم؟ كما قال سبحانه : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . } [الزخرف : 87] كما أقرُّوا بخَلْق السماوات والأرض وما فيها من خيرات لله عز وجل ، فكان وفاء هذا الإقرار أنْ يؤمنوا ، لكنهم مع هذا كله كفروا ، أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعايشوها وأسهموا فيها؟

والكَفُور : مَنْ كفر نِعَم الله وجَحَدها .

وما دام هناك الخَوَّان والكفور فلا بُدَّ للسماء أنْ تُؤيِّد رسولها ، وأنْ تنصره في هذه المعركة أولاً ، بأنْ تأذنَ له في القتال ، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر ، فإنْ عزَّتْ المسائل

عليكم ، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندي .
وقد حدث هذا في بَدْء الدعوة ، فأيَّد الله نبيه بجنود من عنده ، بل أيَّده حتى بالكافر المعاند : ألم يكُن دليل رسول الله في الهجرة كافراً؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو في الغار؟ ألم ينصره بالأرض التي ساخَتْ تحت أقدام فرس « سُرَاقة » الذي خرج في طلبه؟
هذه جنود لم نَرها ، ولم يُؤيَّد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لَطوَّع لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعناد لمحمد ، إنما الحق – تبارك وتعالى – يريد أنْ يعطيه طواعية ويخضع له القوم ، ألم يقُلْ سبحانه وتعالى : { إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 4] .
وقلنا : إن الله تعالى يريد أنْ يُخضِع قلوب عباده لا قوالبهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالريح أو الصاعقة أو الخَسْف ، أو غيره من الآيات التي أخذتْ أمثالهم من السابقين لقالوا : إنها آفاتٌ طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يسَّر لحزبه وجنوده أسباب النصر .
قال سبحانه : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } [التوبة : 14] .
ثم يقول الحق سبحانه : { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ . . . }
.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأول هذا الدفاع : أنْ أَذِن لهم في أنْ يقاتلوا . ثانياً : أمرهم بإعداد القوة للقتال : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل . . } [الأنفال : 60] .
والمراد أنْ يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفدوا كل ما لديهم من وسائل ، فإنِ استنفدتم وسائلكم ، أتدخَّل أنا بجنود من عندي لا تروها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن تدخُلَ السماء لحمايتهم وهم جالسون في بيوتهم ، لا إنما يأخذون بأسباب القوة ويسعَوْنَ ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .
ومعنى { أُذِنَ . . } [الحج : 39] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ، ويستشرفون للنصر على الأعداء ، لكن لم يُؤذَن لهم في ذلك ، فلما أراد الله لهم أنْ يقاتلوا أَذن لهم فيه ، فقال تعالى : { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الحج : 39] .
وعِلّة القتال أنهم ظُلِموا ، لذلك أمرهم ربهم – تبارك وتعالى – أنْ يقاتلوا ، لكن لا يعتدوا ، كما قال سبحانه : { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتدوا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المعتدين *

واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ . . } [البقرة : 190 – 191] .

إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفي المرحلة الأولى بأنْ يقاتلوا لِردِّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسِهم دون أنْ يعتدوا ، وفي المرحلة الثانية سيقول لهم : { ياأيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين } [التوبة : 123] .

وقوله تعالى : { وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الحج : 39] بأسباب يُمكِّنهم منها ، أو بغير أسباب فتأتيهم قوة خفية لا يروْنَها ، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله . . }

.

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)

فلو أنهم أُخْرِجوا بحقٍّ كأنْ فعلوا شيئاً يستدعي إخراجهم من ديارهم ، كأنْ خدشوا الحياء ، أو هددوا الأمْن ، أو أجرموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذَنْب { إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا . . } [الحج : 40] هذه المقولة اعتبرها القوم ذَنْباً وجريمة تستحق أنْ يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه في أهل الأخدود : { وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد } [البروج : 8] .

وفي آية أخرى : { هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بالله . . } [المائدة : 59] .

وفي قصة لوط عليه السلام : { قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : 56] .

إذن : أخرجوهم ، لا لأنهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لأنهم أناسٌ يتطهَّرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التي يُخْرَجُون من أجلها!! كما تقول : لا عيْبَ في فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامةَ في فلان إلا أنه لِصٌّ . فهذه – إذن – صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السويّة بهذه الأحكام الفاسدة التي تدل على فساد الطباع ، وأيّ فساد بعد أنْ قَلَبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أنْ يُحب ، وأحبوا ما يجب أن يكره؟ ولا أدلَّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وترْكِهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : { وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً . . } [الحج : 40]

وفي آية أخرى يُبيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : { وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ

بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض . . } [البقرة : 251] .
والفساد إنْ حدث بين الناس في حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوَّض ويُتدارك ، أما إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيماني في الأرض فكَرِه الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذي لا صلاحَ بعده ، فكأن الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال في الفساد ، والاتّضاع في الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف؟ هَبْ أن ظالماً مسْتبداً في بلد ما يستعبد الناس ويمتصّ خيراتهم بل ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد ، لا شكَّ أن هذا سيُحدث في المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لغيره؟ وهذا بداية الفساد في الأرض .

فإنْ قُلْنا : هذا فساد بين الناس في حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتدَّ الفساد إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذي يربطهم بالسماء؟

إنْ كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خرَّبْتَ الموازين التي كانت تُنظِّم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلْحظُ في قوله تعالى : { وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ .

. } [الحج : 40] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخصْ طائفة دون أخرى ، فلم يَقُلْ مثلاً : لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مُطلْق الناس؛ لأنها قضية عامة يستوي فيها الجميع في كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة؛ لتدل على أن كلاً الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فَهُمْ لبعض بالمرصاد : مَنْ أفسد يتصدى له الآخر لِيُوقِفه عند حَدِّه ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

ومثال ذلك قوله تعالى : { وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . } [الزخرف : 32] دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع ، وأيهما مرفوع عليه؛ لأن كلاً منهما مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابي منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا في الشرق وقوة أمريكا في الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : { وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ . . } [الحج : 40] فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكري ، وكأن الله تعالى جعلها لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذي يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم؟ لا بُدَّ أن المنتصر سيعيثُ في الأرض فساداً ويستبد بالآخرين

، ويستشري ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردِعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويؤدِّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْماً؛ ليظلّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طَرَفاً فيها؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رِقَاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة في الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : { وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } [الأنعام : **129**] .

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحْقِن دماءهم ، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخولَ المنتصر ، بعد أنْ أخرجه قومه منها ، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ،كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذي تمكّن من رقاب أعدائه؟

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة مُطَأطيء الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس السرج الذي يجلس عليه ، تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله في هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً .

وبعد أن تمكَّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنُّون أَنِّي فاعل بكم؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » .

فأيُّ رحمة هذه؟ وأيُّ لين هذا الذي جعله الله في قلوب المؤمنين؟ وهل مِثْل هذا الدين يُعارَض ويُنْصَرف عنه؟

إذن : يُسلِّط الحق – تبارك وتعالى – الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها في الظالمين في كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التي يُهلِك الله فيها الظالمين بالظالمين .

ثم يقول سبحانه وتعالى : { لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ . . } [الحج : **40**] صوامع جمع صومعة ، وهي مكان خاصٌّ للعبادة عند النصارى ، وعندهم مُتعبَّد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصَّومعة فهي مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصَّوْمعة في حضر ، إنما تكون في الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس ، وهي التي يسمونها الأديرة وتوجد في الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى؛ لأنها رهبانية ما شرّعها الله ،كما قال سبحانه : { وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . . } [الحديد : **27**] .

ومعنى : { وَبِيَعٌ . . } [الحج : 40] البِيعَ هي الكنائس .

فالحق – سبحانه وتعالى – مَا نَعَى عليهم الانقطاع للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش؛ لذلك قال : { فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . . } [الحديد : 27] .

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهُّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون في جَلْوة يعني : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبَّد الله في كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً في بالك ونُصْب عينيك في كُلِّ ما تأتي ، وفي كل ما تدَع ، إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يعبد الله في خَلْوته ، ومَنْ يعبد الله في جَلْوته .

لذلك سيدنا عمر – رضي الله عنه – قال عن الرجل الذي لازم المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفّل به ويُنفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف؟

قالوا : لأنك تستطيع أنْ تجعل من كل حركة لك في الحياة عبادة ، حين تُخلِص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يعمل ويجتهد لِيقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر في عمله على هذا الهدف لاستوى مع الكافر تماماً .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن في نيته وضميره ، المؤمن يفعل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه ويُنفِق من الباقي ويتصدَّق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ * والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [المؤمنون : 1 – 4] هل يعني : مُؤدُّون فقط؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفي نيته مَنْ لا يقدر على السَّعْي والعمل ، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفي نيته أنْ يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُميِّز المؤمن في حركة الحياة عن الكافر .

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف في الشتاء في الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجاني ، وكان مريضاً – رحمه الله ورضي الله عنه – وكان يسكن في حارة ، وفضَّلنا أن نأخذ (تاكسي) يُوصِّلنا بدل أن نمشي في وَحْل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق (التاكسي) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفي لغسيل السيارة وتنظيفها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكني قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسي) ولماذا تتعب؟ قال : من أجل مصالحي ومصالح أولادي ، فقلت له : وما يُضيرك إنْ زِدْتَ على ذلك وجعلْتَ في نيتك أنْ تُيسِّر بعملك هذا على الناس؟ فاهتمّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا اردُّ راكباً أبداً .

ومعنى : { والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [المؤمنون : 4] لم يقل مؤدون؛ لأن { فَاعِلُونَ } [المؤمنون : 4] تعني : أن نيتهم في الفعل أنْ يفعلوا على قَدْر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شيء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حرَّم الإسلام الرهبانية التي تَحرِم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية في الإسلام » لأنه اعتبر كل حركة مقصودٍ منها صالحُ المجتمع كله حركةً إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لمَنْ أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألاَّ يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً لِيُوفِّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

لَيْسَ زُهْداً تصوف من تقي ... فرَّ من غَمْرة الحيَاة بدين

إنما يُعرَفُ التصَوفُ في ال ... سُّوق بمالٍ ومَطْمعٍ وفُتُون

ثم يقول تعالى : { وَصَلَوَاتٌ . . } [الحج : 40] وهذه لليهود يُسمُّون مكان التعبد : صَالوتاً . لكن ، لماذا لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ، فيقول : لهدمت صلوات وصوامع وبيع؟ قالوا : لأن القرآن يُؤرِّخ للقريب منه فالأبعد .

{ وَمَسَاجِدُ . . } [الحج : 40] وهذه للمسلمين { يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً . . } [الحج : 40] .

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل { لَّهُدِّمَتْ . . } [الحج : 40] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحكر للعبادة ، وإنْ جُعِلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطَهُوراً ، ومعنى ذلك أنْ تصلي في أيّ بقعة من الأرض ، وإنْ عُدِم الماء تتطهر بترابها ، وبذلك تكون الأرض مَحلاً للعبادة ومَحلاً لحركة الحياة وللعمل وللسَّعْي ، فيمكنك أن تباشر عملك في مصنعك مثلاً وتُصلِّي فيه ، لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوقَف فقط لأمور العبادة .

لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمِفْحَصِ قَطَاةٍ بنى الله له بيتاً في الجنة » .

فقوله تعالى : { لَّهُدِّمَتْ . . وَمَسَاجِدُ . . } [الحج : 40] تدل على مكان خاص للعبادة وإلاَّ لو اعتُبِرتْ الأرضُ كلها مسجداً ، فماذا تهدم؟

وعليه ، فكل مكان تُزاوَل فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كأماكن الصلاة التي يتخذونها تحت العمارات السكنية ، هذه ليست مساجد ، والصلاة فيها كالصلاة في الشارع وفي البيت؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعني : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا في بيت الله الحرام نصلي فوق سطح المسجد ، ونتجه لجوِّ الكعبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا في مخابِيء أو في مناجم تحت الأرض؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة .
وكذلك في المسْعَى مَسْعَى .
إذن : المسجد ما حُكِر للعبادة ، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوي ولا تُعقد فيه صفقة . . إلخ .
أما أنْ نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشر الناس حياتهم ومعيشتهم بما فيها من هَرج ولَهْو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجاسة ، ومعاشرة زوجية . . إلخ فهذا كله يتنافى مع المسجدية التي جعلها الله حِكْراً للعبادة من الأرض إلى السماء . فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصلّى . ولا نقول : مسجد .
ثم يصف الحق سبحانه المساجد بقوله : { يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً . . } [الحج : 40] لأن ذِكْر الله في المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن مساجد قُطْر من الأقطار ، إنما المراد مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .
ولو نظرتَ إلى أوقات الصلوات لرأيتَ أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس في الشروق ، وفي الزوال ، وفي الغروب ، وباعتبار فارق التوقيت في كل بلاد الله تجد أن ذِكْر الله دائم لا ينقطع أبداً في ليل أو نهار ، فأنت تُؤذِّن للصلاة ، وغيرُك يقيم ، وغيركما يصلي ، أنت تصلي الظهر ، وغيرك يصلي الصبح أو العصر ، بل أنت في الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك في الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .
إذن : هي منظومة عبادية دائمة في كل وقت ، ودائرة في كل مكان من الأرض ، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله . أليس هذا ذِكْراً كثيراً؟ أليستْ كلمة (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهي أبداً؟
ثم لما كان دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسْفر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : { وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ . . } [الحج : 40] فإنْ كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهي ، وإنْ كان بين حقٍّ لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بُدَّ أن تنتهي بنُصْرة الحق ، وغالباً لا تطول هذه المعركة؛ لأن الحق دائماً في حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أَوْلَى بنُصْرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن في الآخر ، وإنْ لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا؟ لأنه لا يوجد قويٌّ لا هوى له يستطيع أن يفصل فيها ، وطالما تدخّل الهوى تستمر المعركة .

يبقى في القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجودَ لها؛ لأن الحق واحد في الوجود ، فلا يمكن أنْ يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق – تبارك وتعالى – في نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأخذوا هم بأسباب النصر؛ لذلك يُعلّمهم أصول هذه المسألة ، فيقول سبحانه : { فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ ولكن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ . . } [محمد : 4] .

ومعنى { أَثْخَنتُمُوهُمْ . . } [محمد : 4] يعني : جعلتموهم لا يقدرون على الحركة { فَشُدُّواْ الوثاق . . } [محمد : 4] لا تُجهزوا عليهم ، ولا تقتلوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسِروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه في الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم { فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً . . } [محمد : 4] مَنّاً إنْ كان هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أنْ يفدي نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقِّ في الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يحلو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون في ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم في نِشْر الرقِ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرّعه الإسلام ، ولم يُوجِدْه بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب الاستعباد متعددة : فَمنْ تحمّل دَيْناً وعجز عن سدادة يُسْتعبد لصاحب الدين ، ومَنْ عمل ذنباً وخاف من عقوبته أخذوه عبداً ، ومَنْ اختطفه الأشرار في الطريق جعلوه عبداً . . إلخ .

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرقِ هذه ، وجعل الرقَّ مقصوراً على الحرب المشروعة . ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرق القائم ، حيث لم يكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد في أنْ يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليمين ، وكفارة للظِّهار ، وحثَّ على الصدقة في سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب الذي يريد العتق ويسعى إليه . . إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطعمه من طعامك ، وتُلْبسه من ملبسك ، ولا تُحمِّله ما لا يطيق ، وإنْ حمَّلْته فأعِنْه ، وكما يقول النبي صلى الله عليه وسلم « إنما هم إخوانكم » .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقِّ في الحروب أنهم يقارنون بين الرِّق والحرية ، لكن المقارنة هنا ليستْ كذلك ، المقارنة هنا بين الرق والقتل؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكَّن منه في المعركة ، وكان باستطاعته قَتْله ، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله ، وأباحت أَخْذه رقيقاً ، فالنفعية للمقاتل المنتصر يقابلها حَقْن دم الآخر ، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على

عتقه ، ونفتح له أبواب الحرية .
إذن : لا تقارن بين عبد وحر ، إنما قارن بين العبودية والقتل : أيهما أقلّ ضرراً؟
لذلك قال تعالى :

{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة : 14 – 15] .
هذه نتائج سِتٌّ للأمر { قَاتِلُوهُمْ . . } [التوبة : 14] وجواب الأمر مجزوم بالسكون كما في (يُعذِّبْهم) ومجزوم بحذف حرف العلة كما في (وَيُخْزِهِم) ، والخزي لأنهم كانوا مغترين بقوتهم ، ولديهم جبروت مفتعل ، يظنون ألاَّ يقدر عليهم أحد ، وكذلك في : ينصركم ، ويشف ، ويذهب .
ثم قطع السياقُ الحكمَ السابق ، واستأنف كلاماً جديداً ، وإنْ كان معطوفاً على ما قبله في اللفظ ، وهذا مظهر من مظاهر الدقة في الأداء القرآني ، ومَلْحَظ لرحمة الله تعالى حتى بالكفار ، فقال تعالى : { وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ . . } [التوبة : 15] هكذا بالرفع ، لا بالجزم فقطع الفعل (يتوب) عما قبله؛ لأن الله تعالى لم يشأ أن يشرّك بينهم حتى في جواب الأمر .
وحتى على اعتبار أنهم هُزِمُوا ، وكُسِرت شوكتهم ، وضاعتْ هيبتهم ، لعلهم يفيقون لأنفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة بالكافرين في معاركهم مع الإيمان .
لكن ، لماذا يتوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعياله ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله في الخَلْق أن يكونوا جميعاً طائعين .
لذلك ، يقول سبحانه في الحديث القدسي : « قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » « .
فالكون كله ناقم على الكافرين ، متمرد على العصاة ، مغتاظ منهم ، فماذا قال الحق – تبارك وتعالى – لهم؟ قال سبحانه : » دعوني وخَلْقي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إليَّ ، فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم « .
نعود إلى قوله تعالى : { وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ . . } [الحج : 40] وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أنْ تبحثوا في القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم ، فلربك عز وجل جنود لا يعلمها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت في حضانة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحتسب وبأهْون

الأسباب ، أقلّها أن الله يُريكم أعداءكم قليلاً ويُكثِّر المؤمنين في أعين الكافرين ليفتَّ ذلك في عَضُدهم ويُرهبهم ويُزعزع معنوياتهم ، وقد يحدث العكس ، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إذن : { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ . . } [المدثر : 31] فلا تُعوِّل فقط على قوتك وتحسب مدى تكافُئِك مع عدوك ، دَعْكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أنْ تستنفد وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقي الرعب في قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرْوى أنهم في إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظِّفون أسنانهم ، ويُطيِّبون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : { إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج : 40] عزيز : يعني لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أن تنتهي المعركة بالنصر مهما خارتْ القوى ومهما ضَعُفتْ ، ألم يكُن المسلمون في مكة ضعفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار؟

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] تعجب عمر بفراسته وعبقريته : أيُّ جمع هذا الذي سيُهزم ونحن غير قادرين حتى حماية أنفسنا؟

فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

فما دام أن الله قوي عزيز فلا بُدَّ أن ينصركم ، وهذه مسألة محكوم بها أزلاً : { كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي . . } [المجادلة : 21] .

فإذا تمَّتْ لكم الغَلَبة ، فاعلموا أن لك دَوْراً ، ألاَ وهو : { الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة . . }

.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

معنى : { مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض . . } [الحج : 41] جعلنا لهم سلطاناً وقوة وغَلَبة ، فلا يجترئ أحد عليهم أو يزحزحهم ، وعليهم أنْ يعلموا أن الله ما مكّنهم ونصرهم لذاتهم ، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح وينقوا الخلافة الإنسانية في الأرض من كُلّ ما يُضعِف صلاحها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله حيث أراد ، فداخله شيء من الزهو ، فمال به البساط وأوشك أنْ يُلقيه ، ثم سمع من البساط مَنْ يقول له : أُمِرْنا أن نطيعك

ما أطعتَ الله .

والممكَّن في الأرض الذي أعطاه الله البأْس والقوة والسلطان ، يستطيع أنْ يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إنْ مُكِّن في الأرض بباطل يستطيع أنْ يفرض باطله ويُخضِع الناس له ، ولو إلى حين .

فماذا يُناط بالمؤمن إنْ مُكِّن في الأرض؟

يقول تعالى : { الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة . . } [الحج : 41] ليكونوا دائماً على ذِكْر وولاء من ربهم الذي وهبهم هذا التمكين؛ ذلك لأنهم يترددون عليه سبحانه خَمْس مرات في اليوم والليلة .

{ وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر } [الحج : 41] فهذه أسس الصلاح في المجتمع والميزان الذي يسعد به الجميع .

{ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور } [الحج : 41] يعني : النهاية إلينا ، وآخر المطاف عندنا ، فمَن التزم هذه التوجيهات وأدَّى دوره المنُوط في مجتمعه ، فبها ونِعْمتْ ، ومَنْ ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة .

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يهتم بما يفعله قوم من كفر وعناد ومجابهة للدعوة : { وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ . . } .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42)

{ وَإِن يُكَذِّبُوكَ . . } [الحج : 42] يعني : في دعوتك فيواجهونك ، ويقفون في سبيل دعوتك ليبطلوها ، فاعلم أنك لست في ذلك بِدْعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، وعليك أَلاَّ تلاحظ مسألة التكذيب منفصلةً عن عاقبته ، نعم : كذب القوم لكن كيف كانت العاقبة؟ اتركناهم أم أخذناهم أَخْذ عزيز مقتدر؟

فلا تحزن ، فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتحمّل من مشقة الرسالة وعناء الدعوة على قَدْر رسالته ، فكلُّ رسل الله قبل محمد كان الرسول يُرْسَل إلى قومه خاصة ، وفي مدة محدودة ، وزمان محدود ، ومع ذلك تعبوا كثيراً في سبيل دعوتهم ، فما بالك برسول بُعِثَ إلى الناس كافة في كل زمان وفي كل مكان ، لا شَكَّ أنه سيتحمل من التعب والعناء أضعاف ما تحمّله إخوانه من الرسل السابقين .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يُعد رسوله صلى الله علية وسلم ويُوطِّنه على تحمُّل المشاقِّ من بداية الطريق حتى لا تفتّ في عَضُده حين يواجهها عند مباشرة أمر الدعوة ، يقول له : ليست السيادة أمراً سهلاً ، إنما دونها متاعب وأهوال ومصاعب فاستعد ، كما تنبه ولدك : انتبه ،

فالامتحانات ستأتي هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يُجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يواجه الامتحانات .

ثم يذكر الحق – تبارك وتعالى – نماذج للمكذِّبين للرسل : { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ موسى فَأمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ . . }

.

وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44)

نلحظ هنا أن الحق سبحانه ذكر المكذبين ، إلا في قصة موسى فذكر المكذَّب ، فلم يَقُل : وقوم موسى بل قال : وَكُذِّب موسى ، لماذا؟ قالوا : لأن مهمته كانت أصعب حيث تعرَّض في دعوته لمنِ ادَّعى الألوهية ذاتها .

وقوله تعالى : { فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ . . } [الحج : 44] أمليت : أمهلْتُ حتى ظنوه إهمالاً ، وهو إمهال بأنْ يمدّ الله لهم ، ويطيل في مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذ عزيز مقتدر ، وفي آية أخرى يُوضِّح لنا هذه البرقية المختصرة ، فيقول سبحانه : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْماً . . } [آل عمران : 178]

وفي هذا المعنى يقول أيضاً : { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 55] .

إذن : لا تغتر بما في أيديهم؛ لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت حسرتهم أكبر ، فمن عُدم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يألَمَ لفقدها .

وقد حدث شيء من هذا في أيام سعد زغلول ، وكان أحد معارضيه يشتمه ويتطاول عليه ، لكن فوجئ الجميع بأنه يُولِّيه منصباً مرموقاً في القاهرة ، فتعجّب الناس وسألوه في ذلك فقال : نعم ، وضعته في هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسَّر عليها حين تُسْلَب منه ، وتكون أنكى له . يعني : يرفعه إلى أعلى حتى يهوي على رقبته ، لأنه ما فائدة أن توقعه من على الحصيرة مثلاً ؟!!

ثم يقول تعالى : { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج : 44] الحق سبحانه يُلقِي الخبر في صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به .

والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون؟

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذي يُكرمك ويُواسيك

ويَبَشُّ في وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول : لماذا تنكَّر لي فلان؟ يعني : قطع عني نعمته .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد أن ينتزع مِنَّا الإقرار بقدرته تعالى على عقاب أعدائه ومُكذِّبي رسله ، وهذا المعنى جاء أيضاً في قوله تعالى : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 29 – 36] يعني : هل جُوزي الكفار بما عملوا؟ وهل استطعنا أنْ نعاقبهم بما يستحقون من العذاب؟

{ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج : 44] أي : إنكاري لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا . . }
.

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45)

قوله تعالى : { فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ . . } [الحج : 45] (كأيّن) أداة تدل على الكَثْرة مثل : كم الخبرية حين تقول : كَمْ أحسنتُ إليك . تعني مرات عديدة تفوق الحصر ، فهي تدل على المبالغة في العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ . . } [آل عمران : 146] .

والقرية : اسم للمكان ، وحين يُهلِك الله القرية لا يُهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه ، فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد في قوله تعالى : { وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا . . } [يوسف : 82] أي : اسأل أهل القرية .

ويحتمل أن يكون المعنى : اسأل القرية تُجبك ، لأنك لو سألتَ أهل القرية فلربما يكذبون ، أمَّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبِر بها كما حدثت .

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى : { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا . . } [النمل : 52] .

ومعنى : { أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ . . } [الحج : 45] أي : بسبب ظُلْمها ، ولا يُغيِّر الله ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

فهلاك القُرى لا بُدَّ أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت { خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا

. . } [الحج : 45] الشيء الخاوي يعني : الذي سقط وتهدَّم على غيره ، وقوله : { على عُرُوشِهَا . . } [الحج : 45] يدل على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ، ثم انهارت عليه الجدران ، أو : أن الله تعالى قَلَبها رأساً على عَقِب ، وجعل عاليها سافلها .

وقوله سبحانه : { وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ . . } [الحج : 45] البئر : هو الفجوة العميقة في الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفيّ ، ومنه يُخرجون الماء للشُّرْب وللزراعة . . إلخ ومنه قوله تعالى : { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ . . } [القصص : 23] أي : البئر الذي يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُسْتفاداً منها تلحظ حولها مظاهر حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوي منها ، أما البئر المعطّلة غير المستعملة فتجدها خَرِبة ليس بها علامات حياة ، وربما تسفو عليها الرياح ، وتطمسها فتُعطَّل وتُهجَر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السُّقيا .

{ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } [الحج : 45] القصر : اسم للمأوى الفَخْم؛ لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقي الإنسان في المأوى فيبني لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لا بُدَّ له أنْ يخرج لقضاء لوازم الحياة من طعام وخلافه ، أما القصر فيعني مكان السكن الذي يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه ، يعني : بداخله كل مُقوِّمات الحياة . ومنه : سميت الحور مقصورات في قوله تعالى : { حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام }

[الرحمن : 72] يعني : لا تتعداها ولا تخرج منها .

و { مَّشِيدٍ } [الحج : 45] من الشيد ، وهو الجير الذي يستعمل كَمُونَةٍ في بناء الحجر يعني : مادة للصق الحجارة ، وجَعْلها على مستوى واحد ، وقديماً كان البناء بالطوب اللَّبن ، والمونة من الطين ، أما في القصور والمساكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشيد أيضاً العالي المرتفع ، ومنه قولهم : أشاد به يعني : رفعه وأعْلى من مكانته ، والارتفاع من مَيْزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف في العمارات مثلاً غيرها في القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية

.

وفي قوله تعالى { وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } [الحج : 45] دليل على أن هؤلاء المهلْكين كانوا من أصحاب الغِنَى والنعيم ، ومن سكان القصور ومِنْ عِلْية القوم .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . }

.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

السَّيْر : قَطْع مسافات من مكان إلى آخر ، ويسمونه السياحة ، والحق سبحانه يدعو عباده إلى السياحة في أنحاء الأرض؛ لأن للسياحة فائدتين :

فإما أنْ تكون سياحة استثمارية لاستنباط الرزق إنْ كنتَ في مكان يضيق بك العيش فيه ، كهؤلاء الذين يسافرون للبلاد الأخرى للعمل وطلب الرزق .

وإما أن تكون سياحة لأَخْذ العبرة والتأمل في مخلوقات الله في مُلْكه الواسع ليستدل بخَلْق الله وآياته على قدرته تعالى .

والسياحة في البلاد المختلفة تتيح لك فرصة ملاحظة الاختلافات من بيئة لأخرى ، فهذه حارة وهذه باردة ، وهذه صحراء جرداء وهذه خضراء لا يوجد بها حبة رمل ، لذلك يخاطبنا ربنا تبارك وتعالى : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . } [الأنعام : 11]

فالعطف في الآية ب (ثُمَّ) يدل على أن للسياحة مهمة أخرى ، هي الاستثمار وطلب الرزق ، ففي الآية إشارة إلى الجمع بين هاتين المهمتين ، فحين تذهب للعمل إياك أنْ تغفل عن آيات الله في المكان الذي سافرت إليه ، وخُذْ منه عبرة كونية تفيدك في دينك .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فَانْظُرُواْ . . . } [النمل : 69]

العطف هنا بالفاء التي تفيد الترتيب ، يعني : سيروا في الأرض لتنظروا آيات الله ، فهي خاصة بسياحة الاعتبار والتأمل ، لا سياحة الاستثمار وطلب الرزق .

لذلك يقولون في الأمثال : (اللي يعيش ياما يشوف ، واللي يمشي يشوف أكثر) فكلما تعددتْ الأماكن تعددت الآيات والعجائب الدالة على قدرة الله ، وقد ترى منظراً لا يؤثر فيك ، وترى منظراً آخر يهزُّك ويُحرِّك عواطفك ، وتأملاتك في الكون .

وقوله : { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ . . . } [الحج : 46] تعني وتؤكد أنهم ساروا فعلاً ، كما تقول : أفلم أُكرمك؟ ولا تقول هذا إلا إذا أكرمته فعلاً ، وقد حدث أنهم ساروا فعلاً في البلاد أثناء رحلة الشتاء والصيف ، وكانوا يمرون على ديار القوم المهلكين ، كما قال تعالى : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . . . } [الصافات : 137] .

يعني : أنتم أهل سَيْر وترحال وأهل نظر في مصير مَنْ قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله؟

{ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور } [الحج : 46] فما داموا قد ساروا وترحلَّوا في البلاد ، فكيف لا يعقلون آيات الله؟ وكيف لا تُحرّك قلوبهم؟

ولنا وقفة عند قوله تعالى : { فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ . . } [الحج : 46] وهل يعقِل الإنسانُ بقلبه؟ معلوم أن العقل في المخ ، والقلب في الصدر .

نعم ، للإنسان وسائل إدراك هي الحواس التي تلتقط المحسَّات يُسمُّونها تأدُّباً مع العلم : الحواس الخمس الظاهرة؛ لأن العلم أثبت للإنسان في وظائف الأعضاء حواساً أخرى غير ظاهرة ، فحين تُمسِك بشيئين مختلفين يمكنك أن تُميِّز أيهما أثقل من الآخر ، فبأيِّ حاسة من الحواس الخمس المعروفة توصلْتَ إلى هذه النتيجة؟

إنْ قُلْتَ بالعين فدعْها على الأرض وانظر إليها ، وإنْ قُلْتَ باللمس فلك أنْ تلمسها دون أنْ ترفعها من مكانها ، إذن : فأنت لا تدرك الثقل بهذه الحواس ، إنما بشيء آخر وبآلة إدراك أخرى هي حاسة العَضَلِ الذي يُميِّز لك الخفيف من الثقيل .

وحين تذهب لشراء قطعة من القماش تفرك القماش بلطف بين أناملك ، فتستطيع أنْ تُميِّز الثخين من الرقيق ، مع أن الفارق بينهما لا يكاد يُذْكَر ، فبأيِّ حاسة أدركْتَه؟ إنها حاسة البَيْن .

كذلك هناك حاسة البُعْد وغيرها من الحواسّ التي يكتشفها العلم الحديث في الإنسان .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقل ليغربل هذه المدركات ، ويختار من البدائل ما يناسبه ، فإنْ كان سيختار ثوباً يقول : هذا أنعم وأرقّ من هذا ، وإنْ كان سيختار رائحة يقول : هذه ألطف من هذه ، إنْ كان في الصيف اختار الخفيف ، وإنْ كان في الشتاء اختار السميك .

وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر في الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك ، ولا لاختيار بين البدائل ، وعندها تنفذ ما استقر في نفسك ، وارتحْتَ إليه بقلبك .

إذن : إدراك بالحواس وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب ، وما دام استقر المبدأ في قلبك فقد أصبح دستوراً لحياتك ، وكل جوارحك تخدم هذا المبدأ الذي انتهيتَ إليه ، واستقر في قلبك ووجدانك .

لكن ، لماذا القلب بالذات؟ قالوا : لأن القلب هو الذي يقوم بعملية ضَخِّ سائل الحياة ، وهو الدم في جميع إجزاء الجسم وجوارحه ، وهذه الجوارح هي أداة تنفيذ ما استقر في الوجدان؛ لذلك قالوا : الإيمان محلّه القلب ، كيف؟ قالوا : لأنك غربلْتَ المسائل وصفَّيْت القضايا إلى أن استقرت العقيدة والإيمان في قلبك ، والإيمان أو العقيدة هي ما انعقد في القلب واستقرَّ فيه ، ومن القلب تمتد العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواس التي تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان ، وما دُمْتَ قد انتهيتَ إلى مبدأ وعقيدة ، فإياك أنْ تخالفه إلى غيره ، وإلاَّ فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه .

وكلمة { يَعْقِلُونَ بِهَآ . . } [الحج : 46] تدل على أن للعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله أنْ يشرد في المتاهات ، والبعض يظن أن معنى عقل يعني حرية الفكر وأنْ يشطح المرء بعقله في الأفكار كيف يشاء ، لا ، العقل من عِقَال الناقة الذي يمنعها ، ويحجزها أنْ تشرُدَ منك .
ثم يقول سبحانه : { أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . } [الحج : 46] كيف ولهؤلاء القوم آذان تسمع؟ نعم ، لهم آذان تسمع ، لكن سماع لا فائدة منه ، فكأن الحاسَّة غير موجودة ، وإلا ما فائدة شيء سمعتَه لكن لم تستفد به ولم تُوظِّفه في حركة حياتك ، إنه سماع كعدمه ، بل إن عدمه أفضل منه؛ لأن سماعك يقيم عليك الحجة .

{ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور } [الحج : 46] فعمي الأبصار شيء هيّن ، إذا ما قِيسَ بعمى القلوب؛ لأن الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أنْ يسمع ، وأنْ يُعمل عقله ، وأنْ يهتدي ، ومَا لا يراه يمكن أنْ يخبره به غيره ، ويَصِفه له وَصْفا دقيقاً وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عَميَتْ القلوب ، والأنظار مبصرة؟
وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعِوَض ، فما البديل إذا عَمي القلب؟ الأعمى يحاول أنْ يتحسَّس طريقه ، فإنْ عجز قال لك : خُذْ بيدي ، أما أعمى القلب فماذا يفعل؟
لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر : أعمى قَلْب . يعني : طُمِس على قلبه فلا يعي شيئاً .
وقوله : { القلوب التي فِي الصدور } [الحج : 46] معلوم أن القلوب في الصدور ، فلماذا جاء التعبيرهكذا؟ قالوا : ليؤكد لك على أن المراد القلب الحقيقي ، حتى لا تظن أنه القلب التفكيريّ التعقليّ ، كما جاء في قوله تعالى : { يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم . . } [آل عمران : 167] ومعلوم أن القَوْل من الأفواه ، لكنه أراد أن يؤكد على القول والكلام؛ لأن القول قد يكون بالإشارة والدلالة ، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول وآكده؛ لذلك قال الشاعر :
جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ ... ولاَ يُلْتَامُ مَا جَرَح اللسَانُ
ويقولون : احفظ لسانك الذي بين فكّيْك ، وهل اللسان إلا بين الفكّيْن؟ لكن أراد التوكيد على القول والكلام خاصة ، لا على طرق التفاهم والتعبير الأخرى .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ . . }
.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)

ألم يقولوا في استعجال العذاب : { اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . } [الأنفال : 32] .
وقالوا : { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [الأعراف : 70] .
ولا يستعجل الإنسانُ العذابَ إلا إذا كان غَيْرَ مؤمن به ، المؤمن بالعذاب – حقيقةً – يخاف منه ، ويريد أنْ يبطئ عنه أو أنْ ينجوَ منه . والمعنى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب . . } [الحج : 47] أنهم يظنون أنَّه إنْ توعّدهم الله بالعذاب فإنه سيقع لِتَوِّه . لذلك ، الحق سبحانه يصحح لهم هذا الفهم ، فيقول : { وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . . } [الحج : 47] فلا تتعجلوا توعّدكم به ، فهو واقع بكم لا محالة؛ لأنه وَعْد من الله ، والله لا يُخلِف وعده ، لكن اعلموا أن اليوم عند الله ليس كيومكم ، اليوم عندكم أربع وعشرون ساعة ، أما عند الله فهو كألف سنة من حسابكم أنتم للأيام .
واليوم زمن يتسع لبعض الأحداث ، ولا يسع أكثر مما قدِّر أن يُفعل فيه من الأحداث ، أما اليوم عند الله – عَزَّ وجَلَّ – فيسع أحداثاً كثيرة تملأ من الزمن ألف سنة من أيامكم؛ ذلك لأنكم تزاولون الأعمال وتعالجونها ، أما الخالق سبحانه فإنه لا يزاول الأفعال بعلاج ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كُنْ فيكون ، ففِعْلُك يحتاج إلى وقت ، أما فِعْل ربك فبكلمة كُنْ . وقد شاء الحق سبحانه أنْ يعيشَ هؤلاء في عذاب التفكير في هذا الوعيد طول عمرهم ، فيُعذّبون به قبل حدوثه .
إذن : لا تظن أن العذاب الذي توعّدكم به سيحدث اليوم أو غداً ، لا؛ لأن حساب الوقت مختلف .
ألم تقرأ قول الله تعالى لنبيه موسى – عليه السلام – لَمَّا دعا على قومه : { رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم . . } [يونس : 88]
قال له ربه : { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . } [يونس : 89] .
ويقول المفسرون : حدثتْ هذه الإجابة لموسى بعد أربعين سنة من دعوته عليهم .
وفي موضع آخر يقول تعالى : { يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } [السجدة : 5] .
وتزيد هذه المدة في قوله سبحانه : { تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [المعارج : 4] لماذا؟ لأن الزمن عندكم في هذه الحالة مُعطَّل ، فأنتم من هَوْل ما تروْنَ تستطيلون القصير ، ويمر عليكم الوقت ثقيلاً؛ لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .
كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمر عليه الوقت كأنه لمح البصر ، ومن ذلك ما تلاحظه من قِصَر الوقت مع الأحبة وطوله مع الأعداء ومَنْ لا يهواه قلبك ، ولهذه المسألة شواهد كثيرة في شعرنا العربي ، منها قول أحدهم :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً ... وَالبَلايَا تُكَال بالقُفْزَان

وقول الآخر :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي ولكِنْ لَمْ أَنَمْ ... ونَفَى عَنِّي الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ

ويقول ابن زيدون :

إنْ يَطُلْ بعدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ ... بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليْلِ مَعَك

ثم يقول سبحانه : { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ . . . }

.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

{ وَكَأَيِّن . . } [الحج : 48] قلنا : تدل على الكثرة يعني : كثير من القرى ، { أَمْلَيْتُ . . } [الحج : 48] : أمهلتُ ، لكن طول الإمهال لا يعني الإهمال؛ لأن الله تعالى يُملي للكافر ويُمهله لأجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

{ ثُمَّ أَخَذْتُهَا } [الحج : 48] وأخْذُ الشيء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أَخْذه؟

في آية أخرى يوضح ذلك فيقول : { أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر : 42] لا يُغالب ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقَهْر .

ثم يقول سبحانه : { وَإِلَيَّ المصير } [الحج : 48] يعني : المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أنْ يُفلِتوا .

إذن : الإملاء : تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه : { فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً } [الطارق : 17] .

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث في الأمم السابقة التي أهلكها الله بالخسْف أو بالغرق . . الخ ، أما في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية في الدنيا ، كالذي حَلَّ بالكفار من الخِزْي والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أمّا العذاب الحقيقي فينتظرهم في الآخرة .

لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم : لا تستبطئ عذابهم والانتقام منهم في الدنيا ، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب في الدنيا ستراه في الآخرة : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77]

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ ياأيها الناس إِنَّمَآ . . }

.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49)

والإنذار نوع من الرحمة ، لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أنْ يُنجي نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أُذكِّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أخْذَ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأن تنجوَ من دواعي الهلاك .
ومعنى { مُّبِينٌ } [الحج : 49] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة .

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50)

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت أَلَمَّتْ نفوسهم بشيء من المعاصي ، ويكون لهم رزق كريم . والكريم هو البذَّال ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة ، كما أن الكريم هو الذي تظل يده مبسوطة دائماً بالعطاء ، على حَدِّ قول الشاعر :
وَإِنِّي امْرؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِي ... عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَات سَبِيل
فالرزق نفسه كريم؛ لأنه ممدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنه يحلُّ محلَّه غيره على الفور ، وهكذا .

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

السعي : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قطع مسافة نقول : سِرنْا من كذا إلى كذا ، وإنْ كان في قضية علمية فكرية ، فيعني : أن الحدث يعمل من شيء بداية إلى شيء غاية .
والسَّعْيُ لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذَمُّ على إطلاقه ، فإنْ كان في خير فهو محمود ممدوح ، كالسعي الذي قال الله فيه : { فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً } [الإسراء : 19] ، وإنْ كان في شَرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعي الذي قال الله تعالى فيه : { وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة الدنيا وَيُشْهِدُ الله على مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام * وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحرث والنسل . . } [البقرة : 204 - 205] .
أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر . وتعني : الوشاية والسّعي بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَّاء بين الخلق يعني : بالشر ينقله بين الناس بقصْد الأذى ، وهؤلاء إنْ عَلِموا الخير أخفَوْه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا .
لذلك ، نقول عَمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الآخِذ ، يعني : الذي سمع الشرَّ ونقله وسعى به ، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفِيَه ، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخَلْق .

وقد وشى واشٍ بمهام بن عبد الله السلولي إلى زياد بن أبيه ، وكان زياد جباراً فقال للواشي : أأجمع بينك وبينه؟ فلم يجد الواشي بُدّاً من أنْ يقول : نعم ، فكيف ينكر ما قال؟! ولعله قال في نفسه : لعل الله يقضي أمراً يُخرِجني من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همام فأُتِي به ، وقد جعل زياد الواشي في مجلسه خلف ستار ، وأُدخِل همام ، فقال له : يا همام بلغني أنك هجوْتني ، فقال : كلا ، أصلحك الله ما فعلتُ : ولا أنت لذلك بأهْل ، فكشف زياد الستار وقال : هذا الرجل أخبرني أنك هجوتني ، فنظر ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له :

أنتَ امْرؤٌ إمّا ائتمنْتكَ خَالياً ... فَخُنْتَ وَإمّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ

فَأَنْتَ مِنَ الأَمْرِ الذي كَانَ بينَنَا ... بمنزلةٍ بيْنَ الخِيَانَةِ والإثْمِ

يعني : أنت مذموم في كل الأحوال؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحفظ سِراً فضفضْتُ لك به ، وإمَّا اختلقْتَ هذا القوْل كذباً وبلا علم .

وعندها خلع زياد على همام الخُلَع ، لكنه لم يعاقب الواشي ، وفي هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن ينقل إليهم ، وأن آذانهم قد أخذتْ على ذلك وتعوَّدَتْ عليه .

ومعنى { فِي آيَاتِنَا } [الحج : 51] والآيات إما كونية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَوْا فيها يعني : قالوا فيها قوْلاً باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشي بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إنْ نظروا في آيات الكون قالوا : من صنع الطبيعة .

وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبيٍّ قالوا : سحر وأساطير الأولين ، وإنْ سمعوا آيات الأحكام تُتْلى قالوا : شعر . وهم بذلك كله يريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى { مُعَاجِزِينَ } [الحج : 51] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل : مقاتل ، وهي من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعني : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعني باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر ، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن : فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفَس الذي نأخذه في الشهيق ، ونُخرجه في الزفير ، والذي به يتأكسد الدم ، وتستمر حركة الإنسان ، فإن امتنع التنفس يموت؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد .

وقد حدثتْ هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضي الله عنهما : قال عمر للعباس : أتُنافسني في الماء ، يعني : نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعجِز الآخر ، ويتحمل عملية توقُّف النفَس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إنْ كتم نفسَه وهو في جَوِّ الهواء ،

أما إنْ نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه المسألة؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتي الذي اختزنه كل منهما في رئته ، ومثل هذه المنافسة أيهما أفسح صَدْراً من الآخر ، وأيُّهما أكثر تحمُّلاً تحت الماء . هذه هي المعاجزة .

فمعنى { سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ . . } [الحج : 51] أي : يظنون أنهم قادرون أن يُعجزونا ، فحين نأتي إليهم بكلام بليغ مُعْجز يختلقون كلاماً فارغاً ليعجزونا به ، فأنّى يكون لهم ذلك؟ وأنّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله؟

ثم يُبيّن جزاء هذا الفعل وهذه المكابرة : { أولئك أَصْحَابُ الجحيم } [الحج : 51] فهذا حُكْم الله فيهم قضية واضحة من أقصر الطرق ، فمَنْ ذَا الذي يُعجِز الله؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ . . }

.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)

أثارت هذه الآية جَدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليات ، خاصة حول معنى { تمنى } [الحج : 52] وهي تَرِد في اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أَوْ◌َلَى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتي التمني في اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد في قول حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنهما :

تمنَّى كِتابَ الله أوّلَ لَيْلةٍ ... وآخِرَهَا وَافَاهُ حَتْم المقَادِرِ

يعني : قُتِل عثمان وهو يقرأ القرآن ، وهذا المعنى غريب في حَمْل القرآن عليه لعدم شيوعه .

وتأتي تمنى بمعنى : أحب أن يكون الشيء ، وهذا هو القول المشهور في لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ، ويُردّ هذا القول ، وينقضه نَقْضاً أولياً مبدئياً قوله تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ . . } [الحج : 52] .

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أمّا النبي فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل . إذن : فما دام الرسول والنبي مشتركَيْن في إلقاء الشيطان ، فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى : أحب أن يكون الشيء ، لا بمعنى قرأ ، فأيُّ شيء سيقرأ النبي وَليس معه كتاب؟

والذين فهموا التمني في قوله تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ } [الحج : 52] أنه بمعنى : قرأ ، سواء أكانوا من العلماء المتعمّقين أو السطحيين ، قالوا : المعنى إذا قرأ رسولُ الله القرآنَ تدخّل الشيطان في القراءة ، حتى يُدخِل فيها

ما ليس منها .

وذكروا دليلاً على ذلك في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى } [النجم : 19 –20] ثم أضافوا : والغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكأن الشيطان أدخل في القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته .

لكن هذا القول يُشكِّك في قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى في القرآن : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين } [الشعراء : 193 – 194] .

وقال : { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين * فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } [الحاقة : 44 – 47] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف نُدخِل في القرآن هذه الكفريات؟ وكيف تستقيم عبارتهم : والغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى * أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى } [النجم : 19 – 22] كيف ينسجم هذا وذاك؟

فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أنْ يُدخِل في القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخُّل الشيطان على وجه آخر : فحين يقرأ رسول الله القرآن ، وفيه هداية للناس ، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات ، أتنتظر من عدو الله أنْ يُخلِي الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يُشوِّش عليهم ، ويُبلبل أفكارهم ، ويَحُول بينهم وبين سماعه؟

فإذا تمنّى الرسول يعني : قرأ ألقى الشيطان في أُمنيته ، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون في القرآن : سِحْر وشِعْر وإفْك وأساطير الأولين : فدَوْر الشيطان – إذن – لا أنْ يُدخِلَ في كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يُمكِّنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أنْ يُلقِي في طريق القرآن وفَهْمه والتأثر به العقبات والعراقيل التي تصدُّ الناس عن فَهْمه والتأثر به ، وتُفسِد القرآن في نظر مَنْ يريد أن يؤمن به .

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصَدّ الناس عنه جاءت بنتيجة ، وصرفتْ الناس فعلاً عن كتاب الله؟

لقد خيَّبَ الله سَعْيه ، ولم تقف محاولاته عقبة في سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به؛ لأن القرآن وجد قلوباً وآذاناً استمعتْ وتأملتْ فآمنت وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ لأسلوبه وبلاغته ، فآمنوا به واحداً بعد الآخر .

ثم يقول تعالى : { فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشيطان ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الحج : 52] يعني : ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التي أراد بها أنْ يصدَّ الناس عن القرآن ، وأحكمَ الله آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعْجز الذي لو

اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .
هذا على قول مَنِ اعتبر أن { تَمَنَّى } [الحج : 52] بمعنى : قرأ .
أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذي نتمناه ، فنقول : الرسول الذي أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخَلْق ، فإنْ كان قادراً على تطبيق المنهج في نفسه فإنَّ أُمنيته أنْ يُصدَّق وأنْ يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أنْ يسودَ منهجه ويُسيطر ويسُوس به حركة الحياة في الناس .
والنبي أو الرسول هو أَوْلى الناس بقومه ، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .
لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أنْ تتحقق أُمنيته في قومه أَمْ يضع في طريقه العقبات ، ويُحرِّك ضده النفوس ، فيتمرّد عليه قومه حيث يُذكِّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام؟
وهكذا يُلْقي الشيطان في أُمنية الرسول { إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ } [الحج : 52]
وما كان الشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم ، أليس هو صاحب فكرة : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ . . } [فصلت : 26] .
إن الشيطان لو لم يُلْق العراقيل في سبيل سماع القرآن ويُشكّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه؛ لأن للقرآن حلاوةً لا تُقَاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفُتّ ما ألقى الشيطان في عَضُد القرآن ، ولا في عَضُد الدعوة ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدِّقين به ، المهم أن نتنبه : كيف نستقبل القرآن ، وكيف نتلقاه ، لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالي من هوى ، فالذي يفسد الأحكام أنْ تُستقبل وتدخل على هوى سابق .
وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين في وقت واحد ، لا بُدَّ أنْ تُخرِج أحدهما لتُدخِل الآخر ، فعليك – إذن – أنْ تُخلِي عقلك وفكرك تماماً ، ثم تستقبل كلام الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهي إلى الإيمان به شريطة أنْ تُصفِّي له قلبك ، فلا تُبق في ذِهْنِك ما يُعكِّر صَفْو الفطرة التي خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشْرِب قلبُك حُبَّ القرآن ، فلا يزحزحه بعد ذلك شيء .
ولنا في إسلام سيدنا عمر مثالٌ وعِظَة ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة ، وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أَدْمى وجهها ، وعندها رَقَّ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكأن عاطفة الحب زحزحتْ عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طَبْعه ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور .

كذلك ، إنْ أردت أنْ تناقشَ قضية الإيمان أو الكفر ، وأنْ تختار بينهما؛ لأنهما يجتمعان أبداً ، ولا بُدَّ أنْ تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصِرٌّ على الكفر فلن تصل إلى الإيمان؛ لأن الله يطبع على القلب المُصِرّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنما أخرجْ الكفر أولاً وتحرّر من أَسْره ، ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى : { قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . } [سبأ : 46] .

أما أنْ تناقش قضية ، وفي ذهْنك فكرة مُسبقة ، فأنت كهؤلاء الذين قال الله فيهم : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . } [محمد : 16] يعني : ما الجديد الذي جاء به ، وما المعجزة في هذا الكلام؟ فيأتي الرد : { أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ * والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقُوَاهُمْ } [محمد : 16 - 17] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . } [فصلت : 44] .

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاي الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إنْ أردتَ أنْ تُدفِئ يديك في برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف - إذن - والفاعل واحد؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبل للفعل مختلف .

وقوله تعالى : { مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ } [الحج : 52] .

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين ، فكل نبي أو رسول يتمنى يعني : يودّ ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبِّق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، لكن هيهات أنْ يتركه الشيطان وما أحبَّ ، بل لا بُدَّ أنْ يقف له بطريق دعوته ليصدَّ الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن في النهاية ينصر الله رسُله وأنبياءه ، وينسخ عقبات الشيطان التي ألقاها في طريق الدعوة ، ثم يُحكِم الله آياته ، ويؤكدها ويظهرها ، فتصير مُحْكَمة لا ينكرها أحد .

وساعةَ تسمع كلمة { أَلْقَى } [الحج : 52] فاعلم أن بعدها عقبات وشروراً ، كما يقول تعالى : { وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العداوة والبغضآء إلى يَوْمِ القيامة } [المائدة : 64] .

ومما قاله أصحاب الرأي الأول في تفسير { تَمَنَّى } [الحج : 52] وأنها بمعنى قرأ : يقولون : إن الله تعالى يُنزِل على رسوله صلى الله عليه وسلم أشياء تُثبت بشريته ، ثم يمحو الله آثار هذه البشرية ليبين أن الله صنعه على عينه ، حتى إنْ همَّتْ بشريته بشيء يعصمه الله منها .

لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « يَرِدُ عليَّ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ مِنّي فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلاَّت البشر .

ومن بشريته صلى الله عليه وسلم أنه تعرّض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد : استهزاءً ، وسباباً ، واضطهاداً ، وإهانة ، ثم تآمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيَّتوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] .

وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالماً ، وهكذا فضح الله تبييتهم وخيّب سَعْيهم ، وفشلَتْ محاولاتهم الجهرية والسرية فلجئوا إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه ، وعملوا لرسول الله سحراً في مُشْطٍ ومُشَاطة من شعره صلى الله عليه وسلم وطلع نخلة ذكر ففضحهم الله ، وأخبر رسوله بذلك فأرسل الإمام علياً فأتى به من بئر ذروان .

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُبيّن لنا بشرية الرسول ، وأنه يجري عليه ما يجري على البشر ، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها ، وإنما يعصمه بقيوميته .

وهذا المعنى هو ما قصده أصحاب الرأي الأول : أن الرسول يطرأ عليه ما يطرأ على البشر العادي ، لكن تتدخّل السماء لتعصمه ونحن نختار الرأي الآخر الذي يقول أن تمنى بمعنى ودَّ وأحب .

ثم تختتم الآية بقوله تعالى : { والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الحج : 52] عليم بكيد الشيطان ، وتدبيره ، حكيم في علاج هذا الكيد .

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53)

ولسائل أن يقول : إذا كان الله تعالى ينسخ ما يُلقي الشيطان ، فلماذا كان الإلقاءُ بدايةً؟

جعل الله الإلقاء فتنةً ليختبر الناس ، وليُميِّز مَنْ ينهض بأعباء الرسالة ، فهي مسئولية لا يقوم بها إلا مَنْ ينفذ من الفتن ، وينجو من إغراءات الشيطان ، ويتخطى عقباته وعراقيله؛ لذلك قال تعالى عنهم : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران : 110] .

وما تبوأتُم هذه المنزلة إلا لأنكم أهلٌ لحمْل هذه الأمانة ، تمرُّ بكم الفتن فتهزأون بها ولا تزعزعكم؛ لذلك قال تعالى : { لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } [الحج : 53] أي : نفاق ، فإنْ تعرَّض لفتنة انقلب على وجهه . يقول كما يقولون : سحر وكذب وأساطير الأولين .

وكذلك فتنة { والقاسية قُلُوبُهُمْ } [الحج : 53] وهم الذين فقدوا لين القلب ، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم في الكون خَلْقاً وإيجاداً وإمداداً ، ولم يعترفوا بفضل الله عليهم ، ولم يستبشروا به

ويأتوا إليه .
ونحن نلحظ الولد الصغير يأنس بأمه وأبيه ، ويركن إليهما؛ لأنه ذاق حنانهما ، وتربَّى في رعايتهما ، فإنْ ربَّته مثلاً المربية حتى في وجود أمه فإنه يميل إليها ، ويألف حضنها ، ولا يلتفت لأمه ، لماذا؟ لأنه نظر إلى الجميل ، من أين أتاه ، ومَنْ صاحب الفضل عليه فرقَّ له قلبه ، بصرف النظر مَنْ هو صاحب الجميل .
فهؤلاء طرأوا على كَوْن الله ، لا حَوْلَ لهم ولا قوة ، فاستقبلهم بكل ألوان الخير ، ومع ذلك كانت قلوبهم قاسيةً مُتحجِّرة لا تعترف بجميل .
ثم يقول سبحانه : { وَإِنَّ الظالمين لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [الحج : 53] فهم ظالمون أولاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة ، وتركوا منفعة كبيرة دائمة . والشِّقاق : الخلاف ، ومنه قولنا : هذا في شِقٍّ ، وهذا في شِقٍّ ، يعني : غير ملتئمين ، وليْته شِقَاق هَيِّن يكون له اجتماع والتئام ، ليته كشِقَاق الدنيا بين الناس على عَرَضٍ من أعراض الحياة ، إنما هم في شقاق بعيد . يعني : أثره دائم ، وأثره فظيع .
إذن : العلة الأولى لما يُلقِي الشيطان أن يكون فتنة . أما العلة الثانية ففي قوله تعالى : { وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ . . . }
.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)

قوله تعالى : { وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ } [الحج : 54] يعني : يتأكدوا تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق ، مهما شوَّشَ عليه المشوِّشون ، ومهما قالوا عنه : إنه سحر ، أو كذب ، أو أساطير الأولين؛ لأن الله سيُبطل هذا كله ، وسيقف أهل العلم والنظر على صِدْق القرآن بما لديهم من حقائق ومقدمات واستدلالات يعرفون بها أنه الحق .
وما دام هو الحق الذي لم تزعزعه هذه الرياح الكاذبة فلا بُدّ أن يؤمنوا به { فَيُؤْمِنُواْ بِهِ } [الحج : 54] ثم يتبع هذا الإيمان عملٌ وتطبيق { فَتُخْبِتَ لَهُ } [الحج : 54] يعني : تخشع وتخضع وتلين وتستكين .
ثم يقول سبحانه : { وَإِنَّ الله لَهَادِ الذين آمنوا إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [الحج : 54] .
فمسألة كيد الشيطان وإلقائه لم تنته بموت الرسول ، بل هو قاعد لأمته من بعده؛ فالشيطان يقعد لأمة محمد كلها ، ولكل مَنْ حمل عنه الدعوة .
يقول تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [الأنعام : 112] .

يعني : دعهم جانباً فالله لهم بالمرصاد ، فلماذا – إذن – فعلوه؟ وما الحكمة؟ يقول تعالى : { وَلِيُمَحِّصَ الله الذين آمَنُواْ . . } [آل عمران : **141**] .

وقال : { ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة } [الأنعام : **113**]

فمهمة الشيطان أنْ يستغلّ ضعاف الإيمان ، ومَنْ يعبدون الله على حرف من أصحاب الاحتجاجات التبريرية الذين يريدون أنْ يبرروا لأنفسهم الانغماس في الشهوة والسير في طريق الشيطان ، وهؤلاء يحلو لهم الطعن في الدين ، ويتمنون أن يكون الدين والقيامة والرب أوهاماً لا حقيقة لها ، لأنهم يخافون أن تكون حقيقة ، وأن يتورطوا بأعمالهم السيئة ونهايتهم المؤلمة ، فهم – إذن – يستبعدون القيامة ويقولون : { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [الصافات : **16**] .

لماذا؟ لأنه يريد أنْ يبرر سلوكه ، إنه يريد أنْ يُخرِج نفسه من ورطة ، لا مخرج منها ، وهؤلاء يتبعون كل ناعق ، ويجْرُون وراء كل شبهة في دين الله يتلقفونها ويرددونها ، ومرادهم أن يهدموا الدين من أساسه .

نسمع من هؤلاء المسرفين على أنفسهم مثلاً مَنْ يعترض على تحريم الميتة وأكل الذبيحة ، وهذا دليل على خميرة الشرك والكفر في نفوسهم ، ولهم حجج واهية لا تنطلي إلا على أمثالهم من الكفرة والمنافقين ، وهذه مسألة واضحة ، فالموت غير القتل ، غير الذبح .

الموت : أن تخرج الروح أولاً دون نَقْض بِنْية الجسم ، وبعد خروج الروح ينقض بناء الجسد ، أما القتل فيكون بنقض البنية أولاً ، ويترتب على نَقْض البنية خروج الروح ، كأن يُضرب الإنسان أو الحيوان على رأسه مثلاً ، فيموت بعد أنْ اختلّ مخه وتهشَّم ، فلم يعُدْ صالحاً لبقاء الروح فيه .

يقول تعالى : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ . . }

[آل عمران : **144**] إذن : فالموت غير القتل .

وقد مثَّلْنا لذلك بضوء الكهرباء الذي نراه ، والذي يسري في الأسلاك ، ويظهر أثره في هذه اللمبات ، نحن لا نعرف حتى الآن كُنْه هذه الكهرباء وماهية هذا الضوء ، إنما نراه وننعَم به ، فإذا ما كُسِرت هذه اللمبة ينطفئ النور؛ لأنها لم تعُدْ صالحة لاستقبال هذا النور ، رغم أنه موجود في الأسلاك ، إذن : لا يظهر نور الكهرباء إلا في بنية سليمة لهذا الشكل الزجاجي المفرَّغ من الهواء .

كذلك الروح لا تسكن الجسم ، ولا تبقى فيه إلا إذا كانت له مواصفات معينة ، فإن اختلَّتْ هذه المواصفات خرجتْ الروح من الجسد .

أما الذبح فهو أيضاً إزهاق روح ، لكن بأمر الله خالقها وبرخصة منه سبحانه ، كأن يُقتلَ إنسان في قصاص ، أو في قتال مشروع ، أو نذبح الحيوان الذي أحلَّه الله لنا وأمرنا بذبحه ، ولولا أمر

الله بذبحه ما ذبحناه ، ولولا أحلَّه ما أكلناه ، بدليل أننا لا نأكل ما لم يحِل لنا من الحيوانات الأخرى .

والذين يجادلون في عملية الذَّبْح الشرعية ، ويُزهقون أرواح الحيوان بالخنق مثلاً غفلوا عن الحكمة من الذبح : الذبح إراقة للدم ، وفي الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم ذبيحته؛ لأن بها كمية من الدم الفاسد الذي لم يمرّ على الكلية لتنقيه .

فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحريص على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدَعه الشيطان يُحقِّق هذه الأمنية ، كما لم يدع رسوله صلى الله عليه وسلم من قبل ، فكَيْده وإلقاؤه لم ينتهِ بموت الرسول ، وإنما هو بَاقٍ ، وإلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك يقول تعالى في الآية بعدها : { وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى . . }

.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

قوله : { فِي مِرْيَةٍ } [الحج : 55] يعني : في شك من هذا ، لذلك قلنا : إن أتباع رسوله صلى الله عليه وسلم مُكلَّفون من الله بأنْ يكونوا امتداداً لرسالته : { لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . } [البقرة : 143] شهداء أنكم بلَّغتم كما كان الرسول شهيداً عليكم ، فكلٌّ مِنَّا كأنه مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله؛ لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما حمَّلنا هذه الرسالة قال : ما دُمْتم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا بُدَّ أنْ تتعرَّضوا لما تعرَّض له الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء في أمنياتكم ، فإنْ صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يُلقي الشيطان ، وينصر في النهاية أولياءه ، وسيظل الإسلام إلى أنْ تقوم الساعة ، وسيظل هناك أناس يُعَادُون الدين ويُشكِّكون فيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشكِّكون الناس في وجود الله يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم : إن هذا الكون خُلِق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام في كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلم العلم التجريبي من خرافاتهم هذه ، فإنْ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا : لقد أمدته الطبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفي النبات حينما يقفون عند آية من آياته مثلاً : { يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل . . } [الرعد : 4] يقولون : إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعني النبات هو الذي ينتخب ويختار غذاءه ، ففي التربة الواحدة وبالماء الواحد ينمو النبات الحلو والمر

والحمضي والحريف ، فبدل أنْ يعترفوا لله تعالى بالفضل والقدرة يقولون : الطبيعة وعملية الانتخاب .

وقد تحدثنا مع بعض هؤلاء في فرنسا ، وحاولنا الرد عليهم وإبطال حججهم ، وأبسطها أن عملية الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُميِّز بين الأشياء المنتخبة ، فهل عند النبات إرادة تُمكِّنه من اختيار الحلو أو الحامض؟ وهل يُميز بين المرِّ والحريف؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليبعدوا عن الأذهان قدرة الله فيقولون : إن النبات يتغذّى بخاصية الأنابيب الشعرية يعني : أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة في الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقلّ من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إنْ كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوي الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

فقُلْنا لهم : لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مُذَاب بعضها في بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشَّعْرية ، هل سنجد في كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل المخلوط بكل عناصره؟

لو قمتَ بهذه التجربة فستجد السائل يرتفع نعم في الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُمِيِّز بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد في كل الأنابيب ، وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته .

وصدق الله حين قال : { الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 2 – 3] .

إذن : ما أبعدَ هذه التفسيرات عن الواقع! وما أجهلَ القائلين بها والمروِّجين لها! خاصة في عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدّم البحث ، وتنوَّعت وسائلة في عصر استنارتْ فيه العقول ، واكتُشِفت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً . . } [الحج : 55] .

فهم – إذن – موجودون في أمة محمد إلى أنْ تقومَ الساعة ، وسنواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يُلقِي في نفوس هؤلاء ، ويوسوس لهم ، ويوحي إلى أوليائه من الإنس والجن ، ويضع العقبات والعراقيل ليصدَّ الناس عن دين الله . هذا نموذج من إلقاء الشيطان في مسألة القمة ، وهي الإيمان بالله .

كما يُلقِي الشيطان في مسألة الرسول ، فنجد منهم مَنْ يهاجم شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف وهو الأميّ يقود أمة ويتهمونه ويخوضون في حقِّه ، وفي مسألة تعدُّد زوجاته صلى الله عليه وسلم . . الخ مِمّا يُمثِّل عقبة في سبيل الإيمان به صلى الله عليه وسلم .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل في طياته إيماناً بأنه رسول الله ، وإلا لَمَا استكثروا عليه ولَمَا انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرَّض لهذه الانتقادات .

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء في مسألة الرسول ، إنما في مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلِّغ عن هذا الإله ، أمّا أنْ تخوض معهم في قضية الرسول بدايةً فلن تصلَ معهم إلى حَلٍّ؛ لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقيسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وَضْع مقلوب ، فالكمال نأخذه من الرسول ومن فِعْله ، لا نضع له نحن مقاييس الكمال .

ثم يُشكِّكون بعد ذلك في الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق في الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين؟ وهذا أمر عجيب منهم فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا يَبْغُونها ، وكأنهما مقترنان في سلسلة من حديد؟ كيف وأنت لا تستطيع أنْ تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة في اليوم مثلاً؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين في مكان واحد ، وهما مأمونان على بعض في حال الكراهية؟

ويُخيِّب الله سَعْيهم ، ويُظهر بطلان هذه الأفكار ، وتُلجِئهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى تشريع الطلاق ، حيث لا بديلَ عنه لحلِّ مثل هذه المشاكل .

وقد ناقش هؤلاء كثيراً في قوله تعالى :

{ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ } [التوبة : 33] .

وفي قوله : { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون } [الصف : 8] { وَلَوْ كَرِهَ المشركون } [الصف : 9] .

يقولون : ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجمهرة العالمية في الدنيا غَيْر مؤمنين بالإسلام ، يريدون أنْ يُشكِّكوا في كتاب الله . وهذا القول منهم ناشيء عن عدم فَهْم للآية ، ولمعنى { لِيُظْهِرَهُ } [التوبة : 33] فهي لا تعني أن ينتصر الإسلام على كل ما عداه انتصاراً يمحو المخالفين له .

إنما يُظْهِره يعني : يكتب له الغلبة بصدق حُجَجه وقضاياه على كُرْه من الكافرين والمشركين ، فهم – إذن – موجودون ، لكن يظهر عليهم ، ويعلو دين الإسلام ، ويضطرون هم للأخذ بقوانينه وتشريعاته حَلاً لمشاكلهم ، وكَوْنهم يتخذون منه حلاً لمشاكلهم وهم كافرون به أبلغ في الردِّ عليهم لو آمنوا به ، فلو آمنوا بالإسلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم .

فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا رسول ، فها هي الأيام قد عضّتكم بأحداثها وتجاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذي تعارضونه ، وها أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى { حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً } [الحج : 55] يعني : فجأة ، وقد تكلَّم العلماء في معنى الساعة : أهي يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتي فجأة ، كما أن القيامة تأتي فجأة ، فهما – إذن – يستويان .

لكن ، إنْ كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأهوالها ، فما العلامات الصُّغْرى؟ وما العلامات الكبرى؟ أليست مقدمات تأذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة؟ قالوا : علامات الشيء ليست هي إذن وجودة ، العلامة تعني : قُرْب موعده فانتبهوا واستعِدُّوا ، أما وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أنْ يأتي بغتة رغم هذه المقدمات .

ثم يقول الحق تعالى : { أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [الحج : 55] البعض اعتبر : { عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [الحج : 55] يعني القيامة ، وبالتالي فالساعة تعني الموت ، وآخرون يقولون : { عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [الحج : 55] المراد يوم بدر الذي فصل الله فيه بين الحق والباطل .

وهذا اجتهاد يُشْكرون عليه ، لكن لما نتأمل الآية : { وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ } [الحج : 55] يعني : المرية مستمرة ، لكن بدراً انتهت ، المرية ستظل إلى أن تقوم الساعة .

ولا مانعَ أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هي زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتي العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة في حَدِّ ذاته عذاب .

ومعنى { عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [الحج : 55] العقيم : الذي لا يلد ، رجل كان أو امرأة ، فلا يأتي بشيء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام :

{ عَجُوزٌ عَقِيمٌ } [الذاريات : 29] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهي نهاية المطاف على حَدِّ قول أحدهم : حَبَتْهُم به الدنيا وأدركَها العُقْم .

أو { عَقِيمٌ } [الذاريات : 29] بمعنى : أنها لا تأتي بخير ، بل بشرٍّ ، كما في قوله تعالى : { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم } [الذاريات : 41 – 42] .

ذلك لأن الريح حين تهُبُّ ينتظر منها الخير ، إما بسحابة مُمطرة ، أو تحريك لقاح الذكورة بالأنوثة { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ } [الحجر : 22] أما هذه فلا خَيْر فيها ، ولا طائل منها ، ولتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعدَّاه إلى جَلْب الضُّر { مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم } [الذاريات : 42] فهي تدمر كل شيء تمرُّ عليه .

وكما جاء في قوله سبحانه : { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأْصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ

} [الأحقاف : 24 – 25] .

فالمعنى – إذن – { عَقِيمٍ } [الحج : 55] لا خيرَ فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعني : لا يأتي يوم بعده؛ لأنكم تركتم دنيا الأغيار ، وتقلّب الأحوال حال بعد حال ، فالدنيا تتقلّب من فقر إلى غنى ، ومن صحة إلى مرض ، ومن صِغَر إلى كِبَر ، ومن أَمْن إلى خوف ، وتتحول من صيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار . . وهكذا .

أما في الآخرة فقد انتقلتم مِن عالم الأغيار الذي يعيش بالأسباب إلى عالم آخر يعيش مع المسبِّب سبحانه ، وإلى يوم آخر لا يومَ بعده ، كأنه عَقِم أن يكون له عَقِب من بعده أو مثيل له ، كما لو حضرتَ حفلاً مثلاً قد استكمل ألوان الكمال والنعم ، فتقول : هذا حدث لا يتكرر يعني : عقيم لا يأتي بعده مثله .

وإذا كنتَ في الدنيا تعيش بالأسباب التي خلقها الله لك ، فأنت في الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبِّب عَزَّ وجَلَّ ، ويكفي أن يخطر الشيء ببالك ، فتراه بين يديك؛ ولأن القيامة لا أغيارَ فيها ولا تقلّب ، فسيظل الجميع كلٌّ على حاله في سِنٍّ واحدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

ألاَ ترى إلى قوله تعالى في نساء الجنة : { إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليمين } [الواقعة : 35 – 38] .

والكاره لزوجته في الدنيا لأنها كانت تتعبه نقول له : لا تقِسْ زوجة الدنيا بزوجة الآخرة؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : { لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ } [النساء : 57] .

أي : مطهرة من كل ما كنتَ تكرهه فيها في الدنيا شكلاً وطَبْعاً وخُلقاً ، فأنت الآن في الآخرة التي لا يعكر نعيمها كَدَر .

ثم يقول الحق سبحانه : { الملك يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فالذين آمَنُواْ . . }

.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56)

ولقائل أنْ يقول : أليس المُلْك لله يومئذ ، وفي كل يوم؟ نعم ، المُلْك لله في الدنيا وفي الآخرة ، لكن في الدنيا خلق الله خَلْقاً وملّكهم ، وجعلهم ملوكاً من باطن مُلْكه تعالى ، لكنه مُلْك لا يدوم ، كما قال سبحانه : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران : 26] .

إذن : ففي الدنيا ملوك مَلّكهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أمّا في الآخرة فالمُلْك لله تعالى وحده : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

وفي القيامة { الملك يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . . } [الحج : 56] فقد رَدَّ المُلْك كله إلى صاحبه

، ورُدَّت الأسباب إلى مُسبِّبها .
ومعنى { يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . . } [الحج : 56] أن هناك خصومةً بين طرفين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، والفَصْل في خصومات الدنيا تحتاج إلى شهود ، وإلى بينة ، وإلى يمين فيقولون في المحاكم : البينة على المدَّعي واليمين على مَنْ أنكر ، هذا في خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاضيها الحق – سبحانه وتعالى – الذي يعلم السرَّ وأخفى ، فلا يحتاج إلى بينة ولا شهود ولا سلطة تُنفِّذ ما حكم به .
محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أنْ تُدلِّس على القاضي ، أو تُؤجِّر شاهد زور ، لا تستطيع في محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتنقض الحكم ، أو تُسقطه؛ لأن المُلْك يومئذ لله وحدة ، والحكم يومئذ لله وحدة ، هو سبحانه القاضي والشاهد والمنفِّذ ، الذي لا يستدرك على حكمه أحد .
وما دام هناك حكومة ، فلا بُدَّ أن تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويُوضِّحهما قوله تعالى : { فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي جَنَّاتِ النعيم } [الحج : 56] .
وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم في صالحهم .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57)

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة في دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذي يُهينهم بعد عِزَّتهم وسلطانهم في الدنيا ، وتلحظ أن العذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .
فالعذاب الأليم الذي يُؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهي ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهيمن هو الذي يُذِله ويدوس كرامته التي طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون في تقبُّل ألوان العذاب : فمنهم مَنْ لا يؤثر فيه الضرب الموجع ولا يحركه ، لكن تؤلمه كلمة تجرح عِزَّته وكرامته . لذلك جاء العذاب هكذا ألواناً؛ ليستوعب كل صنوف المَلَكات النفسية ، ويواجه كُلَّ نفس بما يؤلمها .
ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بُدَّ أن نعرفه ، فالمسلمون الأوائل في مكة أُخرِجوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا : ربنا الله ، ولا شَكَّ أن للوطن وللأهل والبيئة التي نشأ فيها المرء أثراً في ملكات نفسه ، لا يمكن أنْ يُمحَى بحال ، فإنْ غاب عنه اشتاق إليه وتمنَّى العودة ، وكما يقول الشاعر :
بَلَدِي وَإنْ جَارَتْ عليَّ عَزِيزَةٌ ... أَهْلِي وإنْ ضَنُّوا عليَّ كِرَامُ
لذلك ، فطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون : لا بُدَّ له أنْ يرجع ، ولو أن تعضَّه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها في نهاية

المطاف ليدفنوه في تراب بلده .

وقالوا : إن سيدنا سليمان – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لما تفقَّد الطير { فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [النمل : 20 – 21] .

ذلك لأنه نبي ، فالمسألة ليستْ جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه . وقالوا : إن الطير سأل سليمان : كيف يعذب الهدهد؟ قال : أضعه في غير بني جنسه ، وفي غير المكان الذي يألفه ، يعني : في غير موطنه .

يقول تعالى : { والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً . . }

.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58)

وفي موضع آخر يقول تعالى : { الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله } [الحج : 40] هؤلاء تحملوا الكثير ، وتعبوا في سبيل عقيدتهم ، فلا بُدَّ أنْ يُعوّضهم الله عن هذه التضحيات ، لذلك يقول هنا : { والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً } [الحج : 58] وأوضحنا أن الموت غير القتل : الموت أن تخرج الروح دون نَقْضٍ للبنية ، أما القتل فهو نَقْض للبِنْية يترتب عليه خروج الروح .

{ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً . . } [الحج : 58] تعويضاً لهم عَمَّا فاتوه في بلدهم من أهل ومال ، كما يُعوّض الحاكم العادل المظلوم فيعطيه أكثر مِمَّا أُخِذ منه؛ لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : { وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله . . } [النساء : 100] .

لأن مَنْ قُتِل فقد فاز بالشهادة ونال إحدى الحُسْنيين ، أما مَنْ مات فقد حُرِم هذا الشرف؛ لذلك فقد وقع أجره على الله ، وما بالك بأجر مُؤدِّيه ربك عز وجل؟ وكما لو أن رجلاً مُتْعباً يسير ليس معه شيء ولا يجد حتى مَنْ يقرضه ، وفجأة سقطت رِجْله في حفرة فتكَّدر وقال : حتى هذه؟! لكن سرعان ما وجد قدمه قد أثارتْ شيئاً في التراب له بريق ، فإذا هو ذهب كثير وقع عليه بنفسه .

ويُروْى أن فضالة حضرهم وهم يدفنون شهيداً ، وآخر مات غير شهيد ، فرأوْه ترك قبر الشهيد وذهب إلى قبر غير الشهيد ، فلما سألوه : كيف يترك قبر الشهيد إلى غير الشهيد؟ قال : والله ما أبالي في أيّ حفرة منهما بُعثْت ما دام قد وقع أجري على الله ، ثم تلا هذه الآية : { وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله . . } [النساء :

[100] .

ثم يقول سبحانه : { وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين } [الحج : 58] حين يصف الحق سبحانه ذاته بصفة ، ثم تأتي بصيغة الجمع ، فهذا يعني أن الله تعالى أدخل معه الخَلْق في هذه الصفة ، كما سبق أنْ تكلمنا في قوله تعالى : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

فقد أثبت للخَلْق صفة الخَلْق ، وأشركهم معه سبحانه في هذه الصفة؛ لأنه سبحانه لا يبخس عباده شيئاً ، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم ، فكل مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه ، حتى في الكذب قال { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً . . } [العنكبوت : 17] .

لأن الخَلْق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كوب الماء من الزجاج أوجدتَ ما لم يكن موجوداً ، وإن كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملتَ فيها عقلك حتى توصلْتَ إلى إنشاء شيء جديد لم يكُنْ موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدتَه أنت يظل على حالته ويجمد على خلْقتك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خَلْق ربك سبحانه فكما تعلم .